رينيه الحايك

الساكتات

رواية



رينيه الحايك

الساكتات

أربع صديقات في بيروت يصارعن ظروف حياتهنّ المعقّدة.
كلّ على طريقتها تغالب الغرق والخضوع... من أجل خلاصها.
لكن في بحر متعاظم الموج ومجتمعات بلا رحمة، هل النجاة ممكنة؟

تفكّر ميرا بعبثية هذه الأشياء. ولا تعلم لماذا تغضب من نفسها وتلومها على كل تفاهات العالم حولها.

نسيت نفسها، منذ فترة عليها أن تقصد الحلاق لتقصّ شعرها ولتقليم أظافرها لكنها لا تجد القوة لتحمّل هكذا أمر. لا قوة لديها لتكون في أمكنة كهذه. كأنّ مرض أمّها انتقل إليها.

في عملها مشتّتة على الدوام. تنسى المعاملات المستعجلة التي عليها انهاؤها أو تقديمها في الدوائر الرسمية. لولا دقّتها التي ميّزتها في السنوات الماضية لكان مديرها فقد صبره. لكنه بدلًا من ذلك يظلّ يسألها إن كانت مريضة أم بها شيء ما. لا تعرف أن تجيب. تكتفي بالاعتذار متحجّجة بالتعب أو بالصداع. هي تعلّم أنه لولا شكوى مسؤولتها المباشرة عنها لما انتبه. كيف يفعل وهو لا يأتي إلّا ظهرًا.

كانت تقود بحذر، مطر خفيف وهواء لطيف يدخل من الشباك. تحبّ المطرة الأولى، رغم أنّ لا شيء فيها الآن من ذكريات الماضي، لا الرائحة ولا النداوة. لا البحر ولا السماء نفسَيهما.



daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس

رينيه الحايك

الساكتات

رواية



الكتاب: الساكتات (رواية)

تأليف: رينيه الحايك

عدد الصفحات: 304 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-060-8

الطبعة الأولى: 2019

الناشر

التنوير دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إلى مروى وربيع

مدخل

تمحوه من رأسها ما إن تبدأ بقيادة سيارتها مبتعدة عن بيروت. تضع هاتفها خارج الخدمة، ترفع صوت الموسيقى وتنطلق كأنها امرأة مختلفة. حتى حين يتسلّل القلق إليها تطرده، وتنشغل بالتفكير بيومها.

خلال الأيام الخمسة، رأت لأول مرة أشياء كثيرة كقطف الزيتون وسقاية الجلول، وقطف البندورة. توقف سيارتها ببساطة وتتفرّج بفضول على عالم كانت تجهل وجوده. عالم لا عجلة فيه. كثيرًا ما تلقت دعوة من أولئك القاطفين لمشاركتهم غداءهم. تشكرهم وتمضي. في كل يوم يطلع كانت تخترع لنفسها حياة مختلفة... تخيّلت لها مهنة جديدة، كبيع التذكارات في السوق القديم، اختارت حتى البيت الذي تسكنه. والحديقة التي ستزرعها هي التي لم تر إلّا من فترة قصيرة كيف تكون شتول البندورة، وأشجار الخرمة...

لماذا لا تبيع مربّيات وصابونًا ومونة من صنعها كما تفعل أولئك النسوة في أكشاك عند مداخل البلدات. لماذا تريد راتبًا كالذي تتقاضاه؟ ستستغني عن الثياب وعن الهاتف ومصروف السيارة وأجرة المولد وكلفة الكابل.

تعلم أنها تخيلات لا تصادفها إلّا في كتب تقرأها، وأحلام ابتدعتها لتنسى.

لذا حين عادت الجمعة كانت تشبه محكومة بالاعدام. وتلك الأيام الخمسة كانت وجبتها الأخيرة.

الفصل الأوّل

حياة هادئة مع ألزهايمر

الهواء الخريفي يطيّر شرشف الطاولة ذا المربعات الحمراء والبيضاء. رماد السجائر المتجمّع في المنفضة يحطّ فوق قميص ميرا الأبيض ويلطخه. يهرع النادل ناحيتهنّ ويسألهن هل يرغبن في الجلوس داخل الصالة، مادًّا يده جهة البحر والأمواج العالية.

قالت ليلى إنّ الهواء بارد حقًا ثم لفّت كتفيها بشال أزرق موشّى بخطوط فضيّة.

يبدأ ضحكهنَّ ما إن يركبن السيارة. بسبب أو دون سبب كأنهن عدن صغيرات.

ميرا وليلى تشربان نبيذًا أبيض. ندى وسارة تشربان بيرة.

كنّ يجتمعن مرّة كلّ آخر أسبوع. مع مرور السنوات زادت الصعوبة في ايجاد متسع من الفراغ لفعل ذلك. تمرّ شهور بلا لقاء. عددهن أيضًا تناقص. جمانة سافرت إلى واشنطن مع زوجها وولديها. وتانيا ابتعدت شيئًا فشيئًا منشغلة هي الأخرى بمهنتها وبمحيطها الجديد، تعلّم مادة القانون المدني في جامعة الكسليك.

ما تبقى من ذلك الزمن صور اصفرّت. الوجوه فيها جمدت. بقيت شابة في ذاكرتهن إلى الأبد.

تتفقّد ميرا هاتفها كلّ بضع دقائق. قلقها لا يهدأ، رغم علمها أنّ أمّها ليست وحدها. جارتهم أمّ شفيق ستمكث برفقتها. وعدتها أن تتّصل بها إن استجدّ أيّ شيء. تُعَدِّد في رأسها كل من تعرف أنهم في مثل عمر

والدتها وهم بصحة جيدة. خمسة وسبعون عامًا ليس عمرًا متقدّمًا. ما ينفع أن يقول الطبيب أن بعض الناس يصابون بمرضها وهم أصغر. قلقها لا يبدو مبرّرًا حتى لأخويها. كأنّ العمر هو حجة كافية. تنظر ليلى نحوها. في عينيها المحمرَّتين سؤال.

ليلى أقدم صديقة لميرا. كانتا تسكنان في الحي نفسه وتعلّمتا في المدرسة نفسها. كانت صداقتهما سببًا في تعارف وتزاور عائلتيهما في الأعياد والمناسبات الاجتماعية. لا زواج ليلى ولا سفر ميرا للدراسة أثّر على علاقتهما.

صحيح أن وقتًا طويلًا ينقضي قبل أن تلتقيا لكن دقائق قليلة كافية لإذابة جليد الارتباك بينهما.

شريط أغان فرنسية قديمة يمتزج بهدير الموج ضاربًا الأفريز. صحون البزورات شبه فارغة وقطع الجزر تسبح في الحامض كأنها أجساد مشلولة. تدندن ميرا الكلمات وتحسّ أن غصّة تتجمع كحجر وتسدّ منفذ الهواء في صدرها.

يعود النادل ليسألهن إن يرغبن بشيء ويبدلّ المنفضة والأكواب، تسارع ليلى إلى سحب سيجارتها المشتعلة. لا تخفي ضيقها من حومه المستمرّ حول الطاولة. تقول له بلهجة آمرة فيها نبرة عنف ألّا يزعج نفسه وفي حال أردن شيئًا سوف يناديه. تنظر ندى بلوم إلى ليلى «ماذا لديك ست ندى الآن؟» تسألها ليلى بتحدّيها المعهود. لا تجرؤ ندى على قول ما لديها. ليست بحاجة للكلام. كلهن يعرفن ندى وحسّها المتعاطف. ألقاب كثيرة التصقت بها بسبب ذلك على مرّ السنوات «كاريتاس، غاندي، القديسة تيريز» أي مشهد يؤثّر فيها حتى لو كان فيلمًا. ليلى تطلق عليها مؤخرًا اسم «مدام نكد».

تحزر ميرا أن ليلى تعاني من ضغط كبير. صحيح أنها لم تخبرها شيئًا، لكن في كل مرّة يرتفع فيها منسوب عدائيتها يكون لديها أمر يؤلمها.

كم تبدّلتا على مرّ السنين. ما كانتا تخفيان عن بعضهما شيئًا. تذكر ميرا يوم سرقت ليلى علبة التلوين المائي. كانتا في الصف التمهيدي، المعلمة فتّشت كلّ الحقائب ولم تجد العلبة واضطرّت أن تشتري من مالها علبة أخرى للصغيرة التي لم تتوقّف عن البكاء. ثمّ في الأول الابتدائي أخذت نقودًا من حقيبة والدتها واشترتا بوظة على مدى أسبوع. لم تقلع عن عادتها تلك إلّا بعد التاسعة. ما كانت ميرا تساعدها في سرقاتها لكنها كانت تستفيد منها. لم تخفِ ليلى عنها أيًّا من علاقاتها حتى تلك العابرة منها. كان لديها طريقة جميلة في سرد تلك الأمور. تحكي عن غرامياتها كأنّها أمور منسلخة عنها شاهدتها في فيلم ما. ربّما هذا عائد إلى أنها تحكي عن نفسها بصيغة الغائب وتبدأ قصصها بـ «ليلى فعلت كذا أو قالت كذا.» لا تستخدم هذه الطريقة إلّا حين يكون الحديث عن أشياء مؤثّرة فيها.

التلفون يرتجّ أمامها، الرقم ليس معروفًا لديها. لا تردّ. لكن ما إن يتوقّف حتى يمتلئ رأسها بالوساوس. ماذا لو كانت أم شفيق تتّصل من خارج المنزل. أعادت طلب الرقم فيما يداها ترتعشان. اتّضح سريعًا أن أحدًا أخطأ ويريد طلبية غداء.

باستثناء ميرا لا واحدة منهن ترغب في العودة. يعلمن ما يشغلها. تطميناتهن لا تقنعها. لن تعتاد على مرض أمّها ولن يصبح أسهل. إضافة لما قاله الطبيب قرأت كثيرًا عن مراحل المرض. هي منذ أسبوعين لم تعرف ليلة واحدة من النوم.

كالعادة اهتمّ أخواها واتصلا لثلاثة أيّام متوالية وبعدها لا شيء.

تحبّ تذكّرهما كما عرفتهما في طفولتها. فارق الخمسة عشر عامًا بينها وبين أخويها التوأمين جعل منها مدلّلة لوقت طويل. لم يكن والداها فقط من نسيا معها التربية الصارمة، بل إنّ أخويها رالف وميشال عاملاها كملكة.

ميشال علّمها كرة القدم وبقيت لما بعد العاشرة تشارك صبيان الحي

لعب كرة القدم وكان الأولاد لا يمانعون أن تلعب لأنّها أقوى من كثيرين بينهم. رالف علّمها ركوب الدرّاجة، كانت أمها تعترض قائلة إن البنت التي حلمت بإنجابها تحوّلت إلى صبي ثالث في العائلة. كان ركوبها الدراجة والابتعاد بها جهة أحياء قريبة من التماس يصيب أمها بنوبة جنون. لا ينفع أن تسمي من رافقها بمشوارها. ولا إنها استأذنت والدها في محلّه.

سفرهما وهي في العاشرة غيّرها تمامًا. كأنّها برحيلهما ودّعت طفولتها والألعاب التي علماها إيّاها. تذكر نهار مغادرتهما عبر مرفأ جونيه إلى قبرص ومنها إلى كندا. ذلك اليوم مقرون بذاكرتها بقصف شديد وبالنوم في الملجأ.

والدها الذي دمّر محله لبيع لوازم الخياطة في باب أدريس، اشترى آخر في الأشرفية. ميرا لا تعرف القديم إلّا من صور بالأسود والأبيض. اثنتان من هذه الصور معلّقتان في محلّه الجديد. يقف والدها شابًا بين أصابعه سيجارة، فوقه لافتة كتب عليها محلات حبيب لبيع لوازم الخياطة. اعترضت الأم على موقع المحل الجديد. زاروب صغير والقليل من المباني السكنية حوله. كان عليها أن ترضخ. إمكانياتهما لا تسمح بشراء محل أكبر في شارع رئيسي.

كان والدها قادرًا على رصف الكثير من البضاعة في دكانه الصغير.

مع الوقت صار يبيع الأقمشة والصوف. حين هبط سعر صرف الليرة عكفت عائلات كثيرة على حياكة وخياطة ما تحتاجه بنفسها. كان يبيع أيضًا مجلّات خياطة وتطريز.

كانت ميرا تحبّ حين ترافق أمها بعد الظهر إلى محل والدها. ترمس من القهوة وأنواع من الحلوى كانت أمها تحضّرها. تذكره واقفًا بباب المحلّ ينتظرهما مبتسمًا. قليل من الانحناء بين كتفيه، ابتسامة تظهر أسنانًا جعلها التدخين الطويل صفراء.

كان يعطي ميرا أزرارًا قديمة وأشياء لمّاعة تخاط فوق فساتين الأعراس والمناسبات والكثير من الخرز الملوّن. مع ليلى كانت تجلس ساعات لصنع عقود وأساور من خرز. لاحقًا عندما تبدآن ببيع هذه الأساور ستجمعان أول مبلغ لهما. بفضله تمكّنتا من شراء استريو كبير مع مكبري صوت. اتّفقتا على وضعه في غرفة ميرا. في بيت ليلى سيفسد أخوتها الجهاز.

كان جلوسهما معًا لسماع الكاسيتات وكتابة الفروض طقسًا يوميًا. بوسترات لفرق ولمغنين بقيت معلّقة على الجدران حتى بعد أن كبرت ميرا وتبدّل ذوقها الموسيقي.

أن تعتمدا على نفسَيهما في تحصيل المال أعجبهما ودفعهما معًا إلى إعطاء دروس خصوصية لأطفال في الصفوف الأبتدائية. كانتا مرغوبتين لطول صبرهما ولتعليمهما كل المواد. بدأتا بذلك وهما في الصف الأول الثانوي.

كان والدا ميرا يعترضان بشدة بحجة أن ذلك يلهيها عن دروسها. لكن نظرًا لعنادها رضخا وراحا يتباهيان أمام المعارف بشطارتها واستقلالها.

بعد سفر أخوَيها، تبدّلت وباتت تخاف من أمور ما كانت تعيرها انتباهًا. إن اشتكت أمها من ألم رأس تحاصرها ميرا النهار بطوله حتى تقول أمها إن الألم زال. متى تأخّر والدها في العودة إلى ما بعد السادسة، تخرج لملاقاته في الزواريب المعتمة. يؤنسها صوت مولدات الكهرباء.

لن ترى بعد ذلك أخويها إلّا بعد انقضاء أكثر من خمس سنوات على سفرهما. عادا في زيارة دامت شهرًا. خلاله أعادت التعرّف عليهما بخجل. ليس لأنها كبرت وصارت في الخامسة عشرة بل لأنهما بدورهما تحوّلا إلى شخصين مختلفين. ميشال بانت عليه أول بوادر صلع ورالف صار ميالًا إلى السكوت بعد أن كان لخمسة وعشرين عامًا شخصًا طريفًا يحبّ قلب المواقف الجدية إلى أخرى تضحكهم من أعماق قلبهم.

ميشال المتخصّص بإدارة الأعمال بدأ بإدارة ناد رياضي. ثم الصدفة جعلته في عشاء عند صديق لبناني يتذوّق بيتزا أعدّتها أمّه. في البداية لم يفعل سوى أن شكرها مثنيًا على براعتها. لاحقًا ستلحّ عليه فكرة انشاء مطعم بيتزا. لم تقتنع الأم بسهولة. كانت في الخمسين أو أكثر من عمرها. طوال حياتها كانت ربّة بيت مشهورة بطبخها. لا أكثر. ظنّت في البداية أن عرضه نوع من المجاملة.

هكذا في أقلّ من سنتين استطاع بالشراكة أن يفتتح محلًا آخر في مدينة أخرى.

رالف يعمل في اختصاصه ويتشارك عيادة الأسنان مع ثلاثة كنديين. أراهم صور حبيبته الكندية. أراد أن ترافقه لكنّها خافت ولم تقتنع أن البلد في حالة استقرار حقًا. خلال الشهر تصرّفا كسائحَين وزارا برفقة العائلة أو بعض أصدقاء الجامعة مناطق لم يعرفاها مسبقًا، كالشوف وصور واهدن وشواطئ البترون.

حين سافرا مجددًا وعدا أن يزورا لبنان كل سنة خاصة بعد أن هدأت الأحوال. لكن غيابهما كان يطول. يكتفيان بالرسائل القصيرة كل بضعة شهور. ولاحقًا إيميلات ترسل في الأعياد والمناسبات الأخرى كتخرّج ميرا من البكالوريا أو للاطمئنان على والدهما بعد عملية القسطرة التي خضع لها. أو حين يحصل أي اعتداء اسرائيلي، كانا يدعوان الأهل للالتحاق بهما في كندا، لكن الوالدين كانا يردّان أنه في مثل عمرهما يستصعبان التغيير. أما ميرا فلم تعتبر نفسها معنية بالردّ حتى حين سألها رالف لماذا لا تأتي للدراسة في تورنتو بدلًا من الالتحاق باليسوعية.

كانت فترات صمت رالف تطول. وكان ميشال يبرّر سكوت أخيه التوأم تارة بانشغاله بزواجه، وأخرى بعيادته الجديدة. دائمًا هناك عوائق تمنعه من الكتابة. الانجاب الطلاق، المؤتمرات، فارق التوقيت.

ميشال بقي ثابتًا. على الأقل كتب لهم بالوتيرة نفسها. من حين لآخر

كان يكسر العادة ليتشارك معهم سعادة افتتاحه لفرع ناجح آخر أو يرسل لهم مقالات تحتفي بسلسلة المطاعم التي يمتلكها. حوالات مالية راحت تصل منه كل شهر. عندما اتصل به أهله ليطلبا منه الاهتمام بمستقبله والتوقّف عن إرسال المال، أجاب إنها مساهمة بسيطة منه في أقساط ميرا. كان يحلو له أن يتفاخر بثرائه.

على عكس رالف لم يتزوّج ميشال. على مدى السنوات كانت المرأة الواقفة قربه تتبدّل في الصور حتى صار صعبًا على ميرا أن تحفظ أسماءهن.

حين كانت أمه تسأله ألا يريد أن يستقرّ وينجب لها أحفادًا، يردّ إن لديها حفيدًا، قاصدًا ابن رالف الذي لم تتعرّف عليه إلّا عبر سكايب. تراه عندما يكون مع والده في العطل المدرسية الطويلة. بعد أن بلغ حفيدها الحادية عشرة ما عادت تراه. ارتاح رالف من مهمة ترجمة حديث بلا معنى بين ابنه وأهله. حديث يجبره عليه بنظراته الزاجرة.

الآن حتى هو كان يجهل أخبار ابنه. بعد الجامعة صار ابنه صحافيًا.

هذا كل ما عرفوه من أخباره. ميرا كانت تشكّ في استمرار تواصلهما. تحسّ بذلك من طريقته ومن ضيقه حين يأتي الكلام جهة ابنه. على أية حال مع المرض نسيت الأم أمر حفيدها كأنه لم يوجد يومًا. كانت تسأل رالف أسئلة غريبة عمن يطبخ له أو يغسل ثيابه أو عن الجامعة. اعتاد أن يردّ على أسئلتها دون أن يصحّح لها. ميشال كان بداية يستغرق في الضحك متسائلًا إن كانت أمه تمزح معه وهي تناديه نقولا على اسم والده. أو حين تحكي له عن أشخاص لا يعرفهم ويتّضح لاحقًا أنهم كانوا رفاقها في طفولتها البعيدة.

عندما يحكي أحد أخويها عبر سكايب تجد ميرا حجة لتبتعد عن الشاشة. تكتفي بإلقاء التحية والردّ على الأسئلة بأقلّ قدر ممكن من الكلمات.

شيء من الحرج والارتباك يسيطر عليها. صحيح أنها لا تزال تحنّ إلى الأخوين اللذين أحبّاها ودلّلاها، لكن ذلك ينتمي إلى ماضٍ ما عاد موجودًا إلّا في قلبها. كلّهم تغيّروا، حتى أهلها. والدتها ما عادت تتدخّل بالشاردة والواردة. لم يكن مرضها هو السبب بل موت زوجها نقولا.

تلوم ميرا نفسها كثيرًا مؤخرًا كيف لم تنتبه لمرض أمها. مؤشّرات كثيرة تجاهلتها. حين قال الطبيب إن ذلك ما كان ليغيّر شيئًا من واقع المرض لم تصدّق. أكثر ما آلمها هو حين سألها ميشال كيف لم تلاحظ أن أمّها باتت تنسى أن تأكل. ردّت ميرا بعصبية لم تعتدها مع أخيها إنها هي أيضًا قد تفوّت أكثر من وجبة ولن يعني ذلك أنها مريضة. كيف لها أن تعلم وهي غائبة في عملها النهار بطوله.

ضحكهن أعادها من شرودها. كانت ليلى تقول لندى إنه ما كان ينقص إلّا عملها مع الجمعية ليكتمل معها جوّ السعادة. اعتادت ندى أن تحكي قصص أطفال النازحين. الجمعية التي تعمل معها تحاول أن تؤمن لهم الترفيه عبر الغناء والمسرح وقراءة القصص. تعليقات ليلى الهازئة كانت فجّة إلى درجة صادمة. كأن تقول «الآن انتهت مشاكلهم، تعلّموا وشبعوا وصاروا بأحسن صحة». أو تقول باختصار «ما هذه السذاجة!».

ما كانت أيّة واحدة منهن تزعل من ليلى. هي هكذا منذ صغرها. كم مرة تسبّب لها ذلك بعقاب وحتى بطرد لأيّام من المدرسة. لا تخفي شيئًا مما تفكّر فيه. الشخص الوحيد الذي تكون في حضوره مختلفة هو زوجها. حين يلتقينها في بيتها يتواصلن مع الوجه الآخر لها.

رغم قولهن أن الجلسة في بدايتها نهضت ميرا ونظرت باتجاه المياه التي أعتمت بعض الشيء، ردّت على المكالمة وهي تسير باتجاه سيارتها، زميلة لها في العمل تريد رأيها في نوع هدية سوف تقدّم لزميل لهم أنجبت زوجته مؤخّرًا. كل اقتراحاتها تلقى الرفض.

تسكت ثم تقول ساخرة «سيارة» كم تضحك حين تتحمّس زميلتها

قائلة إنّ لا أحد سيخطر له أن يشتري لعبة مميزة كهذه. تعترض ميرا مذكّرة زميلتها بأنه طفل حديث الولادة. تردّ بعجلة «لكنه سيكبر صحيح؟»

تفكّر ميرا بعبثية هذه الأشياء. ولا تعلم لماذا تغضب من نفسها وتلومها على كل تفاهات العالم حولها.

نسيت نفسها، منذ فترة عليها أن تقصد الحلاق لتقصّ شعرها ولتقليم أظافرها لكنها لا تجد القوة لتحمّل هكذا أمر. لا قوة لديها لتكون في أمكنة كهذه. كأنّ مرض أمّها انتقل إليها.

في عملها مشتّتة على الدوام. تنسى المعاملات المستعجلة التي عليها انهاؤها أو تقديمها في الدوائر الرسمية. لولا دقتّها التي ميّزتها في السنوات الماضية لكان مديرها فقد صبره. لكنه بدلًا من ذلك يظلّ يسألها إن كانت مريضة أم بها شيء ما. لا تعرف أن تجيب. تكتفي بالاعتذار متحجّجة بالتعب أو بالصداع. هي تعلّم أنه لولا شكوى مسؤولتها المباشرة عنها لما انتبه. كيف يفعل وهو لا يأتي إلّا ظهرًا.

كانت تقود بحذر، مطر خفيف وهواء لطيف يدخل من الشباك. تحبّ المطرة الأولى، رغم أنّ لا شيء فيها الآن من ذكريات الماضي، لا الرائحة ولا النداوة. لا البحر ولا السماء نفسَيهما.

تذكّرت حلمًا رأته الليلة الماضية، كان والدها لا يزال في أواسط الخمسينات، رأته قادمًا من بعيد، استغربت وجوده بعيدًا عن البيت والمحل، ابتسم لها ما إن لمحها، لكنها تجاهلته واستمرّت في حديثها مع رفاقها، مرّ قربهم وقد اعتم وجهه. استيقظت من الكابوس، كانت تبكي كلما استعادته. حاولت أن تتذكّر وجوه من كانت برفقتهم، أناس عرفتهم معرفة سطحية. الوجع الذي أحسّته والغضب من نفسها حرمها النوم ثانية، هكذا نهضت من سريرها قبل الثانية. أعدّت كوب نسكافيه كبيرًا جلست قبالة التلفزيون تقلّب القنوات. غفت على الكنبة قليلًا ثم أجفلها صوت دراجة نارية مسرعة.

ظلّت تقاتل نفسها طوال النهار متسائلة كيف تتجاهل والدها. سنوات لم تره.

يوم مات تذكر الطقس الربيعي، والدها يحادث الكناري ويسأله عما به ليوقظ الحي بغنائه المبكر.

صبحيته مع والدتها على شرفة المطبخ الصغيرة. سندويش اللبنة الذي لم يأكل إلّا القليل منه. قال إنّ معدته تزعجه منذ أمس ولولا اضطراره لأكل شيء قبل الدواء لما فعل. لا شهية عنده. سألها شيئًا بينما تتحضّر للتوجّه إلى عملها، لم تسمعه ولم تردّ.

ظهرًا وجدته زبونة متكئًا على الطاولة، لم يبدُ لها غافيًا لذا أعلمت البقّال القريب منه أن يأتي ليتفقّده.

منذ كانت صغيرة لا تذكر أنه لازم الفراش إلّا مرّة واحدة. كانت أمّها هي التي تمرض. آلام الظهر، عملية المرارة، حصى الكلى، نوبات الربو.

سكتة دماغية قال الطبيب. بعد الجنازة تباحثوا في شأن المحل، أراد أخواها أن يباع وأن تودع أمهم المبلغ في حساب مجمّد. لكنّها رفضت قالت إنّه جزء من كيان والدهم.

صحيح أنّ المحلّ بقي طوال السنين مقفلًا، لكنّ أمّها قبلت على الأقلّ أن تبيع البضاعة التي فيه لصاحب دكّان مماثل. سعر زهيد أقلّ من الكلفة. لم تصدّق ميرا أنّ محلًا صغيرًا كهذا يحوي هذه الكميّات. هذا عدا أدوات الزينة التي أدخلها إلى تجارته. قال إنّ طلّاب الجامعة يشترون منه النظّارات المقلّدة والعقود والأساور وغيرها. حتّى العطور التركية تاجر بها. يكفي أن يُسأل مرة عن ماركة حتّى يطلبها من الموزّع في اليوم نفسه.

كان يحمل لميرا قناني العطر ويقول لها إنّه جاءها بهديّة سوف تعجبها. تقبلها دون أن تخبره أنّها تشتري الأصلي منها. يقول إنّ طالبات الجامعة كلّهن يطلبن هذه الماركة، يختار

لزوجته ماركة مختلفة كانت تشتريها منذ أوّل زواجهما. رغم تجارته بالعطور بقيت رائحة «بيان أيتر» هي الكولونيا التي تفوح منه وتتشرّب ثيابه. رائحة تعيد لميرا دائمًا ذكرى والدها.

القنينة منسية لا تزال على رفّ المغسلة، يمسح عنها الغبار كمثل الخشبيات ورفوف المكتبة والطاولات وأطر الصور المعلّقة فوق الجدران.

بعد وفاة والدها كانت ميرا تعتني بالكناري على غير عادتها، تطعمه الخس وتبدّل الماء وتنظّف القفص من المخلّفات. لكنها وجدته ميتًا ذات صباح وهي ترفع الغطاء عن القفص. بكت بحرقة عليه أكثر مما بكت في جنازة والدها.

لا يزال الكثير من السماسرة يتّصلون من أجل المحلّ، لكنّ أمّها ما كانت توافق. حتى تأجيره كشقة لعمال البناء لم ترض. قالت إنهم سيخرّبونه.

عندما سافرت ميرا من أجل الماجيستير ظنّت أنها ستمكث في فرنسا وتعمل هناك. خاصّة أنّ من أحبته لسنتين في الجامعة سبقها إلى هناك لإكمال دراسته هو أيضًا. كان داني هو حبّها الحقيقي الأوّل. كانت ليلى تسخر منها لأنها بحسب رأيها تمنع نفسها من العيش. وطال بها الأمد دون حبّ.

أول شهر سافر فيه كان يكتب لها ايميلًا كلّ ليلة يصف فيه مسكنه في المدينة الجامعية رفيق غرفته، طعام الكافيتريا، الشوارع التي يمشي فيها ساعات. انبهرت مثله بالحي اللاتيني بسان ميشال بسان جيرمين والماريه ومون مارتر. تتفرّج ساعات على الصور الماثلة على شاشة الكمبيوتر، تمسح دموعًا تغالبها ما إن تختلي بنفسها.

حتى في بيتها كلّ شيء يذكرها به. كان يقضي الكثير من الوقت عندهم. حين تسأله ألا تزعجه تلك الأحاديث مع أبويها، يجيب إنه يحبّ كل ما يتعلّق بها.

على عكسه كانت لا ترتاح في زيارة بيت أهله. لم تستطع ان تفهم لماذا مهما حاولت كان هناك مسافة تبعدها عن جوّهم. حياتها أكثر بساطة. لم تعتد على هذا النوع من الأحاديث. ولا على هذا النمط من العيش. حتى لطف والديه تجده متصنّعًا.

عندما تباعدت أيميلات داني وانعدمت اتصالاته. لم تسئ الظنّ. محاضرات كثيرة ووقت قليل للدرس. هي نفسها كانت غارقة في الدرس وفي التحضير للمشروع النهائي. حتى حين أرسلت تخبره عن قبولها في الجامعة، لم تلق ردًّا إلّا بعد أكثر من عشرين يومًا. عدم حماسه رجّحت أن سببه قلة النوم والتعب وهي الأدرى بتأثيرهما على النفسية.

في مطار شارل ديغول الشاسع ما وجدته في استقبالها. حين توجّهت إلى المدينة الجامعية، كان بانتظارها في البيت اللبناني مع شابَّين آخرين. قبّلها على خديها كالغريبة عنه. تعشيا سائرين بصحبة رفيقيه قريبًا من المدينة الجامعية. أكلوا الكريب ثم جلسوا على مقعد خشب في المدينة الجامعية وقد سحرتها هندسة المباني.

في الستديو الصغير الذي أعطي لها في الطابق الأرضي. جلست على السرير الضيق. قبالتها شباك عريض يطلّ على أشجار تسمع عبره صوت السيارات على الطريق السريع.

علمت في أعماق قلبها أنها صارت غريبة عنه. سألتها أمها وهي تحكي معها بصوت يخالطه النوم «ميرا حبيبتي صوتك حزين هل كل شيء على ما يرام، وكيف حال داني؟»

«جيد جيد» هو جوابها على أسئلتهما.

لم تحاول أن تتّصل به في اليوم التالي، في الكافيتيريا رأته مساء مع شلة صاخبة، اقترب منها وسألها إن كانت قد ارتاحت وأنه أراد أن يقرع بابها أو يتّصل بها لكنه يعلم حاجتها للنوم بعد السفر. كانت طوال جلوسه قربها تقاوم دموعها. لم ترد أن تعاتبه أو تسأله. أرادت فقط أن يختفي هذا

الألم الذي يعتصرها. حين دعاها لتقاسمهم طاولتهم، قالت لا دون أن تضيف كلمة. سألها هل فعل ما يزعجها. أجابت إنها تحتاج للهدوء تعاني من صداع فقط. ارتبك مشيرًا بيده جهة شلّته. «عد إليهم» قالت.

مع أن بدل الايجار أرخص بكثير في المبنى الجامعي سعت من الأسبوع الأوّل لإيجاد ستديو تتقاسمه مع أحد خارج المدينة الجامعية. لكن تعقيدات الحصول على كفيل مالي جعلتها ترضخ. تجنّب داني لم يكن بعد ذلك أمرًا معقدًا. هو الآخر، كان يحييها من بعيد كأنّهما ما كانا يومًا حبيبين لا يفترقان، خطّطا لعمر يعيشانه معًا.

حين التقته في سان جيرمين دي بري وقد أحاط بذراعه فتاة، لم ينتبه لها. كانت رفيقته تحكي وهو يستمع إلى كلماتها مبتسمًا كأنّ العالم كفّ عن الوجود حوله.

فكّرت ميرا أنه كان ينظر إليها بالطريقة نفسها.

لم تكن أبدًا الأولى في أيّ من سنوات دراستها، لكنّها في فرنسا دفنت أوقاتها في أبحاث لا يلهيها عنها شيء. درس دائم أرادت به أن تبتعد قدر الامكان عن رأسها وعن قلبها. تعرّفت على فتاة بولندية في صفّها وتسكن البيت الإنكليزي، كانتا معًا تقصدان المكتبات تعملان دون تعب. آشا تتحدّر من عائلة فقيرة، تعلّمت الفرنسية في شهرين، لكنّها من ألمع الطلاب في الصفّ. كانت ميرا تأتي إلى الستديو أواخر الليل للنوم فقط. بين الصفوف والمكوث عند آشا كان الوقت ينقضي. دام هذا الروتين حتى صار لها لاحقًا رفاق جدد.

في كلّ مرة كانت تظنّ أنّها شفيت ونسيت أمر داني، يحصل ما يعكّر صفو ظنّها. أن تراه ولو من بعيد يشعرها برغبة عميقة في أن تموت لحظتها لترتاح. لا يهمّ ان يكون وحده أو مع آخرين. كانت تتمنّى ألّا يتصنّع اللطف في كلّ مرّة ويقترب لملاقاتها والسؤال عن أحوالها وعن أخبار الدراسة.

لكنّ ككلّ الأشياء تبدأ كبيرة ثمّ تتلاشى. ذكريات تعود إليها دون أن توجعها. مكانها حلّت أخرى أكثر ايلامًا. حين تنظر من بعيد إلى تلك الفترة تجدها طفولية تمامًا. تشكّ انها أحبّت داني بحق. تفكّر أنها لو تعرّفت إليه الآن لوجدته مدّعيًا ثقيل الظلّ.

في تلك الفترة كان أخوها ميشال بشكل خاصّ يداوم على الاتصال بها، حتى أحسّت أن الرابط بينهما استعاد قوته السابقة. وحين زارها في الربيع برفقة صديقته الأميريكية، اصطحبها معهما لزيارة جنوب فرنسا. ضحكت حين قال لها إن بإمكانها أن تدعو صديقها لو أرادت. ظلّ يسألها «أتخجلين، هيا اتصلي به». أحبّت تلك الرحلة. عطلة الربيع والطقس في الجنوب ذكّرها بلبنان. لم ينزلوا في فندق. استأجر ميشال بيتًا صغيرًا في قرية قريبة من الشاطئ. على درّاجات هوائية قطعوا قرى وبلدات وهم يتفرّجون على حقول لا آخر لها. روائح ملأت أرواحهم. الشمس لوّحت سحناتهم المصفرّة بفعل الخباء والبرد. مئات من صور بيوت الفلاحين ومزارعهم، من القصور والأوتيلات، والتماثيل. كان ميشال يقول «انسي الهندسة قليلًا واستمتعي بدلًا من الالتهاء بالصور». كانا يسبقانها ويفقدان صبرهما حين تتأنّى في التقاط الصور تبعًا للضوء وللخلفية التي تريدها.

حزنت حقًا وهي تودّعهما، صارت تتبادل مع ميشال ايميلات بوتيرة ثابتة، كأن عيشًا مشتركًا يجمعهما. هذا الاتصال انقطع وعاد إلى وتيرته السابقة يوم عادت إلى بيروت.

أحيانًا تحسّ أنها الفتاة نفسها لم تتبدّل على مرّ السنين، لكنّ ذلك ليس صحيحًا. جرأتها السابقة حلّ محلّها تحفّظ يأسرها حتى مع أقرب أصدقائها. يساء تفسيره في عملها، تشعر دائمًا أنها لا تنال الترقيات التي تستحقها. مسافة طبيعية تستقرّ بينها وبين المسؤولين عنها، يتسبّب باضطهادها أحيانًا، كما يحصل مؤخّرًا. المهندسة المسؤولة عن مشروع في البترون لمجمّع سياحي، تعاكسها حتى لو كانت فكرتها الأوفر والأكثر ألمعية.

تراقب عملها كالصقر. أيّ هفوة منها لا تغتفر. منذأكثر من سنتين وهي كتلة أعصاب. رغم كرهها للتغيير وقضائها أكثر من ست سنوات في الشركة تحسّ أنّ الأفضل لها أن تبحث عن عمل آخر، لا يهمّ أن يكون الراتب أقلّ. تحلم بالسكينة وبفراغ البال. كانت تذهب بحماس إلى عملها، الآن تنهض رغمًا عنها وتواجه يومها بحذر. لا تعلم كيف لا يرى مديرهم محدودية المسؤولة عنها. كادت ميرا أن تسافر إلى أبوظبي للعمل في شركة تنفّذ مشاريع بيئية، لكن ترك أمها وحدها ما كان بالأمر اليسير. الآن بات الوضع أصعب مع المرض.

تقود سيارتها بسرعة، تريد أن تصل إلى البيت. لا تطمئن إلى ترك أمها برفقة أم شفيق. لا لأنّها غريبة، فهي جارتهم منذ أكثر من ثلاثين عامًا، بل لتعليقاتها غير المراعية، هذا لا يساعد كما قال الطبيب. لكن بطبيعة الحال لا تستطيع أن تلزم الغرباء عنهم بسلوك معيّن. هي نفسها تجد صعوبة في أن تقابل عدائية والدتها ببرودة، أو أن تصبر عليها حين تحكي شيئًا وتضيع فيه وتتشتّت. مؤخّرًا تنسى كلمات بديهية ويومية، تقولها ميرا بدلًا منها. أو تتظاهر أنها فهمت عليها. تستمع إلى ذكريات قديمة. تناديها بغير اسمها لكنها لا تصحّح لها. يؤلمها أن تغيب عن عيني أمّها تلك النظرة الرقيقة الحانية، كأنها ما عادت الابنة. هذا أكثر ما يجرحها. كل الأمور التي نبّه الطبيب إلى حصولها مستقبلًا تحاول ميرا إبعادها عن خيالها. تفكّر أنها أعراض قد تتأخّر ثم ماذا لو لم يتطوّر المرض كما توقّع الطبيب.

ميشال نصحها أن تستشير طبيبًا آخر. طلب ملفّها الطبيّ قال إنه سيريه لأحد معارفه ليأخذ رأيه. رالف حكى معها مرّة واحدة. على الأقلّ لم يعطها تعليمات كما فعل ميشال، أغضبها أن يكون هناك وبعيدًا ومنهمكًا في حياته وبعدها يقول لها ما تفعل وما لا تفعل.

قال أن توظّف ممرضة لمساعدتها. سألت عن الكلفة اليومية ولم تجد أقل من خمسين ألفًا لليوم الواحد. كيف ستتمكّن من دفع هذه الكلفة؟

قال ميشال بأن تأتي بمن يبقى مع أمها أي عاملة آسيوية. لن تكلّف كممرضة. تكاد ميرا تخرج عن هدوئها حين يبدأ باقتراحاته. سألته «هل آتي بغريبة لم ترها أمي بحياتها وأتركها بعهدتها النهار بطوله؟».

يوم الأحد الماضي، استيقظت لتجد أمّها في زاوية المطبخ، دامعة العينين من الرائحة انتبهت للبول الذي خلّف بركة أمام المجلى. أوّل رد فعل من ميرا، كان أن سألتها باستنكار: «لماذا تركت نفسك حتى اللحظة الأخيرة!!» لكنها ما لبثت أن زعلت من نفسها وتذكّرت أن كل ذلك لا يفيد. اللوم سوف يحطّم أمها نفسيًا.

اقترحت عليها وضع حفاض أعطتها إياه. لكنها لاحقًا وجدته ملقى فوق السرير.

أوّل مرّة حمّمت فيها ميرا أمّها امتلأت عيناها بالدموع. دعكت الجلد المترهّل وفكّرت أنها لم تر أمها عارية أبدًا قبل اليوم. كانت خائفة من أن تنزلق لذا أجلستها على كرسي بلاستيك داخل الحمام، وراحت ترفع لها ذراعًا تلو الأخرى. كانت ساكنة صامتة ولم تدر ميرا إن كانت والدتها تعي تمامًا ما يحصل أم أنها في لحظة ضياع.

قبل أن تخرج إلى عملها تنبّهها من استخدام الغاز، تدلّها على السندويشات الملفوفة والموضوعة فوق طاولة المطبخ.

تقضي يومها قلقة. تدخل الحمام لتتمكّن من الاتصال بها. لكنّها لا تردّ دائمًا. طوال اليوم تتخيّل أمّها تشغل البوتاغاز وتنسى ما وضعته ليسخن، أو أن يخطر لها أن تخرج وتتوه.

تعود إلى البيت مساء كلّ يوم في حالة قلق. تركن سيارتها كيفما كان، وتسرع إلى مدخل البناية، إن كان المصعد مشغولًا لا تنتظره تركض فوق السلالم قفزًا. أحيانًا تجدها في المكان الذي كانت فيه صباحًا والتلفزيون لا يزال على المحطة نفسها. الطعام متروك كما هو. رائحة قاتلة تفوح منها.

في أحيان أخرى يكون كلّ شيء كما الماضي. صفاء ذهن يعيدها كما كانت طوال خمسة وسبعين عامًا. تنخدع ميرا وتظنّ أنّ أمّها مجهَدة نفسيًا لا أكثر، وأنّ تشخيص الطبيب خزعبلات لا وجود لها. فرحة لا تدوم بالطبع.

حين تفتح الباب تجدهما غافيتين وصوت التلفزيون يتردّد عاليًا. على الطاولة صحون كان فيها بقايا من الفروج المشوي. رائحة الثوم تفوح في أرجاء غرفة الجلوس.

حين وضعت ميرا يدها فوق كتف أم شفيق، انتفضت مرددة «باسم الصليب» ثم كأنها تذكّرت أين هي راحت تهمس بصوت مسموع كل ما دار بينهما. وكيف أن أمّها ظنّت أن الممثلة على التلفزيون ابنة أختها.

قاطعت ميرا حديثها. لا تجد طرافة في ما تحكيه. لا تشاركها ضحكاتها ولا تنتبه أم شفيق إلى وجه ميرا المتجهّم إلّا بعد أن أفضت بكلّ ما لديها من قصص. لشدّة غضبها قرّرت أن تمتنع نهائيًا عن طلب أي شيء منها مستقبلًا. تزداد توترًا وترجئ للغد التفكير بحلول. منذ وقت تؤجّل كلّ شيء لليوم التالي، حتى ما يتعلّق بحياتها وبمهنتها. لا شيء يسير كما تحبّ. حاولت أن تستنجد بخالتها لكنها عجوز قاربت الثمانين، وتحتاج لمن يساعدها. صحيح أنها محبّة وكانت في الماضي أشبه بأم ثانية لها، لكنها الآن لا تستطيع أن تفعل شيئًا دون مساعدة العاملة لديها. تمسك بيدها حتى للانتقال من غرفة إلى أخرى داخل البيت.

بعد أن ساعدت والدتها مرتا لتلبس قميص نومها، وتأكّدت أنّها غفت، خرجت ميرا إلى الشرفة. جلست في العتمة على الكرسي. مدّت قدميها على حوض الزهور. كم تبدّل المنظر حولها في السنوات الأخيرة.

بنايات قيد الانشاء توجّ في عتمتها جمرة السجائر. تسمع أحاديث العمال حين تهدأ حركة السيارات. الهواء بارد قليلًا. بين الحين والآخر تتعالى صرخات تشجيع وتصفيق. مباراة ما.

حين دخلت ثانية لتأتي بكنزة سمعت رنين هاتفها ألقت نظرة على المتّصل، إنّه ساري لم يسمع منها شيئًا منذ يومين، أهملت الردّ على رسائله.

اعتادت أن تلتقي به على الأقلّ ظهرًا يأكلان معًا غداءهما جالسين في سيارته أو في الحديقة الصغيرة القريبة من عملها. لكنّه لا يكون متفرّغًا دائمًا أو قريبًا من شغلها. يسألها لماذا لا تدعه يزورها في بيتها ويتعرّف على والدتها، أو لماذا يلتقيان متسللين كأنّها متزوجة. هل تخجلين بي يسألها دائمًا. تسارع إلى ضمّه والقول له أن يكفّ عن السخافات.

في بداية علاقتها به لم تكترث إلى أنها تكبره بست سنوات. قالت إنّها حرّة في أن تعشق من تشاء. بعد داني عاشت سنوات وحيدة، ولم تتخطّ علاقتها بأي شاب مرحلة الاعجاب العابر.

لم تشعر أنها أكبر منه إلّا مؤخّرًا. ليست الشعرات البيضاء هي السبب ولا عيد ميلادها الثامن والثلاثين الذي اقترب، شيء آخر لا تملك أن تضع اسمًا عليه. كانت ميرا تلتزم الصمت عندما تسمع ساري يحكي عن حياتهما معًا، عن العائلة التي سيؤسسانها، عن البيت الذي سيسكنانه. لا تستطيع أن تقول له بصراحة ان تلك الحياة التي يتخيّلها لا تشبهها. لا تريد لا زواجًا ولا أولادًا، لا بل فكرة إنجاب طفل ترعبها. تكره رؤية النساء الحوامل وأكثر منها فكرة تربية طفل في عالم مخيف ليس فيه لا رحمة ولا عدالة. كانت تتشارك مع صديقتها ليلى الأفكار نفسها، لذا عجبت من إنجاب ليلى ابنها نادر بعد سنة على زواجها. رأتها تصير أخرى وهي تربّيه. ميرا أيضًا فرحت بنادر، غمرته بالهدايا وهو طفل. كان قلبها يرتجف كلّما حملته وتأمّلت رقة عينيه وحدقتيه المخمليتين. كان أوّل سيره يسارع نحوها في الممر بخطواته المتعثّرة ما إن يسمع صوتها. يمدّ يديه نحوها لتحمله. لم تختلف عن ليلى حين راحت تسرد قصصه للناس، كلماته الأولى وعبقريته في حفظ كل شيء وتعلّمه كل الحروف

قبل دخوله إلى المدرسة. حبّه للقصص وغناؤه بثلاث لغات. كانت ميرا الوحيدة التي يقبل أن تصطحبه دون أن يبكي مطالبًا بأمّه. غمرته بالهدايا. لعبت معه، علّمته السباحة وهو لم يبلغ سنته الأولى. اشترت له دراجته الأولى. لم تشكّ يومًا أن كل هذا سيتبدّل. حين أصابته حمى التيفوئيد أول دخوله إلى المدرسة لازمته ميرا كأنّها أمّه الثانية حقًّا، وكانت مع ليلى تسهر الليل للتأكّد من أن الحرارة بدأت أخيرًا تنخفض. تداوم على وضع لبخات من الخل فوق جبهته وبطنه.

لكنّه الآن وقد بلغ الرابعة عشرة لا يشبه بشيء الطفل الرائع الذي أضحكهم، وأمتعهم بكلماته الأولى وبقبلاته الرطبة. كما إنّه لا يشبه من هم في عمره. ترى فيه ليلى، سواء في هواياته أو في طريقته في التفكير. لم يأخذ من والده إلّا طول قامته ولون عينيه. وورث كل شيء آخر عن ليلى. تحبّه لكنها غالبًا ما تتساءل كلما سمعته يحكي أين رحل ذلك الطفل؟

تركض إلى الصالون عندما تسمع حركة أمّها في الداخل. تجدها على الكنبة مشوّشة تنقّل عينيها بين ميرا والصور الموزّعة على الطاولة وسط غرفة الجلوس. تسارع لتأتيها بمشايتها. تسأل مرتا «متى سنتعشّى؟» لا تخبرها ميرا إنّها سبق وأكلت مع أم شفيق فروجًا مشويًا. تقترح عليها سندويشًا من الجبنة. لا يعجبها الاقتراح تسألها عما تحبّ أكله. تطرق مفكّرة، ثم كأنها نسيت تمامًا تنتقل للكلام عن الكناري تريد أن تعرف إن غطّت قفصه، أكّدت لها أنها فعلت. لا داعي لأن تقول إن الكناري ما عاد موجودًا منذ اكثر من عشر سنوات. أوصاها الطبيب بالتروي لكنه لم يدخل في التفاصيل. حكى بالعموميات. نصحها أن تصبر وأن تتحمّل تقلّب مزاج والدتها. كانت ساذجة حقًا لتظنّ أن المرض ليس أكثر من مزاج متعكر والقليل من الخرف والنسيان. أليس هذا حال كل العجائز؟ فكّرت.

ميشال بعث لها مقالات وأبحاثًا، قراءتها زادتها وساوس وخوفًا من

المستقبل. أما رالف فقد أرسل لها عنوان منتدى يستعرض فيه المشاركون تجاربهم مع المرضى، قال إن ذلك سوف يساعدها لتجد أجوبة أو تتعلّم منهم.

انتظرت أن يضجرا وأن يعتادا الأمر، أرادت للحياة أن تستمرّ كما كانت من قبل. تريدهما بعيدين كما كانا. وافقت على المبالغ التي سيرسلانها كل شهر مساهمة في كلفة علاج أمها مرتا. هكذا يرتاح ضميرهما ويستغرقان في حياتهما مجددًا.

يأخذها العجب عندما تفكّر كم تبدّلوا جميعًا. صحيح أنها كانت صغيرة عندما سافرا لكنها عاشت برفقتهما معظم طفولتها. حين سافرا، مرضت وارتفعت حرارتها قبل أن يجزم الطبيب أن سبب ذلك نفسي وأن القليل من الاحمرار في حنجرتها ليس سببًا لملازمتها السرير. تذكر الصمت الذيّ لفّ حياتها، وجه أمها يظلّلها وهي مستلقية على فراش في إحدى زوايا الملجأ الرطب. والدها الذي يقرّب من شفتيها كوب ليموناضة. تذكر الدمعة الدائمة في عينيه. كأنّ شيئًا انكسر فيه ما أن حملتهما الباخرة بعيدًا. من أمّها، لم تسمع لا شكوى ولا أي كلمة بخصوص تأخّر أخبارهما لأكثر من شهر، كأنّ في داخلها بئرًا مظلمة تطمس وتخفي فيها كلّ شيء.

كانت ميرا تتمنّى لو أنّ أمّها مختلفة. لو أنّها فقط تستطيع أن تحكي معها كما هي الحال بين ليلى ووالدتها. كأنّ هناك قانونًا خفيًا في بيتهم يقضي بإخفاء الدموع والأحزان، وحده والدها كان يعصاه حين يظهر عتبه على تأخّر الرسائل أو الاتصالات. ما كانت أمّها مرتا تعلّق إلّا بعبارة «يا نقولا الغائب عذره معه» لكنّ نظرتها ما كانت رحيمة تجاه هذا الفائض من التصارح.

كان على ميرا أن تواجه شخصًا مختلفًا حين بدأت علائم المرض. هذا السيل من قصص طفولة أمها في مدرسة الراهبات، أسماء الرئيسة

والراهبات اللواتي علّمنَها. رفيقاتها، معرض الأشغال اليدوية واعجاب الجميع بمطرزاتها، وكيف أن أحدهم اقترح مبلغًا ضخمًا لشراء شرشف سفرة طرّزته بخيوط الذهب. كيف لها أن تذكر علاماتها المدرسية وتنسى إن كانت أكلت في غياب ميرا أم لا.

المرض أنسى مرتا رفيقاتها في الحي وخارجه. ما عادت تخرج لزيارتهن وهنّ أيضًا ما عدن يأتين، قالت لها جارتهم أم اسكندر في الطابق الأرضي إنها تحبّ مرتا لكنها تحسّ أن الزيارة تثقل عليها أكثر مما تريحها. ثم قالت عاتبة إن مرتا لم تسألها حتى كيف أصبحت بعد عملية استئصال ورم من ساقها، ولم تسألها لا عن زوجها طريح الفراش ولا عن شيء أبدًا. وعندما بدأت تنقل إليها أخبار المعارف والأصحاب. نهضت من مكانها وتركتها. ظنّت أم اسكندر أن مرتا تعدّ قهوة. لكنها انتظرت وانتظرت دون أن تظهر ثانية. «ماذا فعلت لها لتعاملني هكذا؟» سألت أم اسكندر ميرا. احتارت ماذا تقول واكتفت بترداد «مريضة جدًا». حجة لم تقنع أم اسكندر التي ردّت إنّ صحة مرتا أفضل منها بكثير وهل تراها تعامل الناس باستخفاف؟

تخاف ميرا وتفكّر أن هذا المرض سيصيبها أليس وراثيًا؟ ميشال قال إنّ لا أحد في عائلة أمّها عانى منه. لكن الحديث مع خالتها هند أعاد إليها ذكريات عن آخر أيام جدها الذي لم تعرفه إلّا صغيرة. كان يتوه عن بيته وفي أواخر حياته نسي أنه متزوج ولديه أولاد.

لم تردّ عندما وجّهت لها ملاحظة بخصوص تأخّرها صباحًا. لاحقًا عندما قالت المسؤولة عنها إن التقسيمات الداخلية للشقق الصغيرة سيّئة وإن هناك مساحات ضائعة، لم تردّ أيضًا. لو أن هذا حصل سابقًا لأتتها بالتقسيمات السابقة التي رُفضت وكان فيها استغلال لكل شبر. هي تعلم أنّها مهما تفعل ستجد المسؤولة عن الفريق شيئًا تنتقده.

لماذا لا يشعر الآخرون بالتهديد؟ لماذا تستهدفها هي فقط؟ لو أن

بإمكانها أن تقول لها إنها لا تريد منصبها. كان حالها أفضل عندما كان جوزيف هو المشرف على فريقهم لكنّه رحل ليؤسّس عمله الخاصّ. أحيانًا تكون ميرا في مزاج أفضل فلا تأخذ الكلام على أنه تجريح خفيّ بها. إن سخرت من المشاريع الدراسية في أوروبا قالت ميرا لنفسها إنها غير مقصودة لا هي ولا مشروع دراستها في فرنسا. وليد أيضًا درس في روما. قد يكون هو المقصود كما إنه أعلى منها مرتبة في العمل هو أحد الشركاء. لطف مسؤولتها الزائد معه لا يعني أنها تحبّه. كان فريق العمل متواطئًا ضمنًا مع ميرا. لا يشيرون إلى المسؤولة عنهم باسمها بل يسمونها «هي». يسخرون من لباسها، من طقطقة كعب حذائها، من صوتها الحادّ، من تفاخرها بالتهاني التي تتلقّاها على عملها. يتّهمونها بالجهل وبأنّها نالت منصبها فقط لأنّها قريبة الشريك الثاني في الشركة. عشرات المرّات فقدت فيها ميرا صبرها وبدأت بالبحث عن عمل آخر. لكن ما الذي يضمن أنّ مثيلاتها غير موجودات في كل مكان. تزعل عندما تقول لها ليلى إن الأمر منافسة بين فتيات وأنه لو كان المسؤول شابًا لما كانت هذه المناكفات موجودة.

الساعات القليلة التي علّمتها طوال فصل في جامعتها، أزالت من فكرها كليًا وهم أن تنصرف للتدريس الجامعي ذات يوم. التدريس مهنة ليست للجميع. بعد تجربتها تلك قدّرت حقًّا المجهود الذي تصرفه صديقتها سارة في التعليم الثانوي. لا بدّ انّه أكثر صعوبة حتى من التعليم الجامعي. رؤية أكداس المسابقات وحدها كفيلة بإثارة الضجر. كيف تحتمّل أن تنكبّ على قراءة الأشياء نفسها ورقة تلو الورقة.

في مرّات قليلة، خاصة تلك التي تسبق الأعياد كانت تخرج برفقة زملائها للغداء. رغم الضحك وسرد قصص عن رئيستهم، وعما علموه من رفاق لها في الجامعة كانت ميرا تحسّ بالخواء داخلها. وبعد فترة

صارت تمتنع عن مرافقتهم. كانت تبعة هذه المشاوير ثقيلة عليها. لا تحتمل أن تعذّب نفسها لأنها شاركتهم هكذا أحاديث، حتى لو اقتصرت مشاركتها على الضحك مما يسردون. كما إنهم ليسوا أصدقاءها. منذ تجاوزت السادسة والعشرين لم تكوّن صداقة واحدة. اكتفت بصداقات الطفولة والجامعة.

تحمل غداءها وتخرج إلى الحديقة القريبة. تمسح نقاط المطر عن المقعد. تجلس بعيدًا عن العجوز. لا يفارق الحديقة. في أي وقت وفي أي ساعة تراه هناك.

تفكّر بساري الذي زعل منها. لأوّل مرّة يمضي كلّ هذا الوقت دون أن يتّصل.

يمامة تنطّ قريبًا من قدميها. تفتّت لها بعضًا من الخبز. تقبل ميرا على الأكل دون شهية. حين كانت أمّها هي من يعدّ لها غداءها، كانت تجد مفاجآت تفرح بها. الآن تحضّر لنفسها سندويشين بسرعة من محتويات البراد. كثيرًا ما تجده فارغًا. منذ مرضت أمها تقوم ميرا بشراء الأغراض. لقلة خبرتها تفوّت شراء الكثير من الأشياء الأساسية كالخبز والجبنة والملح والنسكافيه وأشياء أخرى. الآن تكتب لوائح بما ينقص. كانت تفرح كثيرًا عندما تجد أغراضًا دوّنتها أمها بخطها الأنيق. تعلّل نفسها بآمال زائفة عن تحسّن حالتها.

السندويش يبدو كنبتة ذابلة. اللبنة جفّت فيه. تحسّ بغصّة وهي تبتلع لقمة تلو الأخرى. من مقعدها تستطيع أن ترى الشارع المزدحم، تسمع الزمامير وتشمّ رائحة الدواليب فوق الأسفلت الرطب. أكثر ما تذكره من عيشها في فرنسا هو الحدائق، خاصة تلك الصغيرة الموزّعة بين الأحياء السكنية. في حديقة متحف الأرشيف تعرّفت على سارة. وكان مضى على وجودها هناك أكثر من ستة أشهر. سمعتها تحكي على هاتفها مع أحد والديها. كان صوتها عاليًا كأنّ لا أحد حولها. ربّما لإحساسها أن لا

أحد يفهم لغتها. كانت منفعلة ووجهها يتجعّد ألمًا بينما توصي أمها أن تنتبه لصحتها.

مع أنه ليس من عادة ميرا التطفل لم تستطع أن تمنع نفسها من سؤال سارة ما إن مرّت قربها «لبنانية؟». كانت سارة متفاجئة مع أنه أمر شائع الالتقاء بلبنانيين. لاحقًا لن تندهش كلما التقتا بلبناني. لكنها حينها كانت حديثة العهد بباريس، ونزلت ضيفة عند نسيبة لها تسكن قريبًا من متحف الأرشيف. لولا رغبة ميرا بالتقاط صور لبعض المباني في تلك الجهة لما التقتا. معظم الطلاب يسكنون ويتعلّمون ويتنزّهون في الضفة الأخرى.

لم تكن سارة هي اللبنانية الوحيدة التي صادقتها ميرا. تعرّفت على أحمد نابلسي، في الطوارئ. كانت برفقة رشا عيد التي ارتفعت حرارتها وتجاوزت الأربعين. أرغمتها يومها ميرا على التوجه إلى المستشفى. تتذكّر ذلك دون أن تفهم لماذا هي من رافقتها. ما كانت صديقة مقرّبة. تلتقيان في الممر أثناء الخروج أو الدخول. أحيانًا قليلة في الكافيتيريا. صحيح أن الستديو الخاص برشا مجاور لها، لكنها ما كانت تعرف عنها إلّا ذوقها في الاستماع إلى أغاني الهيب هوب بصوت عال. حين رأتها تستند إلى الجدران للوصول إلى الحمام المشترك لتستحمّ، فوجئت ميرا بلونها وباعتكار عينيها كأنهما بركتا دم. تباطأت خطوات ميرا في الخروج. عندما انحنت رشا منطوية على نفسها، أسرعت ميرا تسندها دون تفكير. لسعتها لمسة يدها الحارقة. تذكر رائحة الغرفة، مزيج من الأنفاس الكريهة والعفن، الفوضى فيها، الثياب المكوّمة فوق كرسي. صناديق الأحذية مصفوفة في الزاوية كالبرج العالي. تناولت معطفًا مرميًا فوق أكوام الثياب في الخزانة. ألبستها إياه بصعوبة. جسمها رخو كأنّها على حافة الإغماء.

كان أحمد جالسًا مثبّتًا نظراته إلى كاحل قدمه. ربّما أخافه حجم الورم الذي راح يكبر ويكبر خلال انتظار دوره.

لم يكن صعبًا أن يعلم جنسيتهما. أشياء تُعرف بلا أي سؤال.

ابتسم مستغربًا عندما ردّت ميرا على سؤاله وقالت إنها لا تعلم ماذا أصاب رشا. لم يسألها كيف ترافق فتاة لا تعرفها. إسم رشا كاملًا عرفته للتو من بطاقة التأمين. أكثر من ساعتين وهم ينتظرون. أثناء ذلك علمت كل شيء عن أحمد. لم يكن مثلهما حديث الإقامة في فرنسا كانت سنته السابعة فيها، درس القانون في السوربون وهو يحضّر الآن للدكتورا. موضوعها كان لغزًا بالنسبة لميرا. ما فهمت كلمة من شروحاته. لكنها منذ تلك اللحظة، أحسّت بشيء قويّ بينهما. لا علاقة له بالحبّ. كان يسيرًا عليها أن تحكي معه في أي موضوع دون حرج، ودون تحفّظ. ليس هناك شيء تقوله يصدمه. هكذا بعد ستة أشهر على وجودها في باريس صارت تقضي تقريبًا كلّ فراغها برفقة رشا وأحمد. في نهايات الأسبوع الطويلة، تلك التي يسبقها أو يتبعها يوم عطلة، كانوا يسافرون إلى كولونيا أو أمستردام. تذاكر مخفّضة وإقامة في فنادق رخيصة. نزهات طوال الليل. حانات قديمة وحفلات موسيقية كانت رشا تجبرهما على حضورها. رغم اختلاف ذوقهما الموسيقي عنها، كانا ينقادان لرغبتها. يكفي أن تسبل عينيها الحزينتين حتى يرضخا. كان في عينها اليسرى عرق أحمر يجرح البياض ويعطي إحساسًا بتعب لا يزول. أخبرتهما أن عمّها هو من يدفع نفقات تعليمها. والدها توفيّ حين كانت في الثامنة من عمرها. كانت تقلّل من أهمية كونها في البوليتكنيك، وحين يعلّق أحد على الأمر بالقول: «أنت ذكية لتُقبلي في هذه الجامعة!» تجيب «مجرّد حظ». الكلام عن تفوّقها يعكّر مزاجها ويحرجها. كانت امتحاناتها كثيرة، رغم ذلك لم تتخلّف يومًا عن موعد يجمعهم، للذهاب إلى السينما أو التمشية في الحي اللاتيني وسان ميشال.

لذا عندما تعرّفت إلى سارة صاروا شلة لا تفترق. مع أن سارة مختلفة عنهم في اهتماماتها. تحضّر لدراسات عليا في الأدب وتقضي وقتًا في

المكتبات باحثة عن روايات خاضعة للتخفيضات. كانوا يتركونها في انغماسها ليتّجهوا إلى طابق الموسيقى. تجرّهم سارة أيضًا إلى صالات صغيرة لمشاهدة أفلام قديمة لا تُعرض إلّا بعد منتصف الليل. أصعب شيء هو السير بعدها في البرد. المترو يكون قد توقّف. والتاكسيات غالية. يركضون لتدفأ أجسامهم. يتأبّطون أذرعة بعضهم وينغمسون في نوبة ضحك طفولية. يقولون لسارة أنت مجنونة لن ننقاد لك مرّة أخرى. أفلام لا يحبّونها فعليًا، احيانًا كانت تأخذهم إغفاءة أثناءها. لا يفهمون مقدار تأثّر سارة بها ويسألونها مستغربين حين تحكي عن الفيلم «هل شاهدنا الفيلم نفسه؟ هل أنت متأكدة».

لا ينقضي أسبوع دون أن تكتب اسم أحمد نابلسي وتجد اسمه يتكرّر على عدة صفحات في غوغل. الشركات التي قدم لها مشورة، عناوينه التي تبدّلت على مرّ السنين، تعلم منها عمله في لندن وفي فراكفورت وبرلين. لم يبقوا على اتصال، مع أنهم في قرارتهم أحسّوا أن لا شيء سيفرّق بينهم أو يُضعِف صداقتهم. حين عاد إلى لبنان في واحدة من زياراته، اتصل بها وتواعدا على اللقاء في مقهى في الحمرا. قال إنّه لا يعرف الأشرفيه جيدًا ليأتي عندها. الحمرا أسهل. كانت فكرة لقائه بعد ثلاث سنوات أمرًا مربكًا لها. ليلًا عجزت عن الاغفاء كرّرت أخبارًا وقصصًا ستحدّثه عنها. تمنّت أن يعوقه شيء فلا يأتي غدًا من طرابلس.

حين رأته لم تجد أي تغيير فيه. الجينز وقميص القطن والشال حول رقبته كأنّه لا يزال في فرنسا. لا في لبنان في حرّ حزيران. ابتسامة تظهر كل أسنانه. حين تجاوزت ارتباكها، استمعت إليه بفرح يحكي عن تقدمه في كتابة أطروحته خاصة أنه صرف سنوات وهو يحاول انهاءها. يعتزم أن يناقشها في أواخر السنة. مع أنها لا تزال عاجزة عن فهم كلمة مما يقول استمعت بجهد وتركيز علّها أخيرًا تفهم جدوى هكذا كلام مبهم. حين سألها عن أخبار رشا، استغربت وسألته ألم يبق على اتصال بها. قال إنّه

فعل لكن قليلة هي المرّات التي كانت توافق فيها على قيامهما بمشوار. كانت منغمسة في الانتهاء من أطروحتها. كما يظنّها غادرت فرنسا.

كانت المرّة الأخيرة التي تلتقي فيها ميرا بأحمد. لكنها كلّما تذكرته هو أو رشا تحسّ بحنين إلى صداقتهما. لم يكن أمامها إلّا الأنترنت لتبحث عن أثر لرشا، لكنها لم تجد أي شيء. عشرات الفتيات يحملن الإسم نفسه لكنّهن لا يشبهنها في شيء. كانت فتاة غريبة ومضحكة. ترعبها أشياء كثيرة غير مفهومة بالنسبة لهم. حين يركبون القطار أو المترو أو اي وسيلة نقل لا يمكن أن تجلس بمحاذاة نافذة، تخاف أسراب الطيور والفراشات وتتصبّب عرقًا في الزحمة كأنها على وشك الإغماء. تأقلموا مع مخاوفها، قدر المستطاع. تعاملوا بالضحك وبجعل قصصها طرائف يسردونها في سهراتهم. ما كانت أمورًا بسيطة بالنسبة لها. يصعب أن يفهوا رعبها وهي ترى سرب طيور او فراشات لطيفة. تخبئ رأسها كأنها ستهاجمها لا محالة.

لكن أكثر ما تذكره ميرا حقًا هو ذلك الحزن الدائم في عينيها. حزن يدفعهم جميعًا دون انتباه إلى محاولة إضحاكها. الأشياء التي يعرفونها عنها استنتجوها أو ذكرتها رشا لمامًا. لم يسألوها عن والدتها، ظنّوا أن عمَّها يدفع نفقات تعليمها لأن والدها متوف، لكن حين ذكرت شيئًا عن مكالمة أمها لها من الكويت فهموا أنها لم تعش معها. كأنها حين مات والدها فقدت أمها أيضًا. هل افترقت عنها مباشرة أم بعد زواج أمّها، تفاصيل لم يعلموها أبدًا. مع أنهم كانوا مع توطّد صداقتهم يسألون بعضهم أسئلة خاصة دون تحفّظ لكن رشا أبقت على خطّ لا يجرؤ أيّ منهم على تجاوزه. في حفلة رقص في البيت الأرجنتيني اكتشفوا براعتها في رقص الصالونات. ضحكوا كثيرًا وهم يتأمّلونها كأنها تقوم بفعل فاضح غريب عن شخصيتها. كانت ميرا أول من لاحظت مكالماتها المتكرّرة مع طالب أسباني. اختفاؤها لاحقًا لأيام. حججها كي لا

ترافقهم في مشاويرهم. ارتباكها حين يلتقون بها وهي برفقته. كان ذلك يحيّرهم إذ ما الذي يستدعي منها هذا التخفّي عنهم هم أصدقاؤها.

دون مقدّمات بدأت تتسلّل خارج حياتهم. كان نادرًا أيضًا ما تسمعها ميرا وهي تتحرّك في غرفتها. تعود متأخّرة متى فعلت، أو تلتقي بها راحلة بحقيبة تقرقع دواليبها في الممرات. حين تلتقيان في الممر، تترك رشا الحقيبة غير آبهة بالضجيج الذي يسبّبه ارتطام مسكتها بالبلاط، تضمّها وتسأل بحرارة صادقة عن أخبار الجميع. صحيح أنها تبدو غير منصتة لكن وجهها يشرق أثناء حديثهما العابر. ما يدفع ميرا إلى الاصرار عليها لمشاركتهم جلساتهم المسائية.

لتشجيع أحمد كانوا يذهبون معه إلى الستديو الخاص به. لم يكن بعيدًا عن المدينة الجامعية. شبابيكه تطلّ على فناء جميل مبلّط بما يشبه الرسوم، في المرّات الأولى بقيت ميرا تصوّر الفناء من زوايا مختلفة ثم الدرج ودرابزين الشبابيك وقنطرة المدخل والبوابة الضخمة القديمة. كانوا يضيقون بهوسها ويسبقونها في السير. ويسخرون من عادتها في التقاط صور بكاميرتها القديمة. ما يستغربونه أن كل صورها خالية من وجوههم. غرباء فقط يبينون كالأطياف. هوسها بالمباني يدفعها إلى أن تدلف إلى كل فناء، تصوّر التماثيل، المحطات، شعارات الجدران. حيطان متداعية. بلاطات الأرصفة، تقشّر الطلاء، أسطح يتصاعد منها دخان المدافئ.

ادّعى أحمد أن مكوثهم معه يشجّعه على المضي في كتابة الفصل الثاني. فالفصل الأوّل تطلّب منه سنة، وبهذا المعدّل سيلزمه أثنتي عشرة سنة لينهي أطروحته. لكن عندما يستغرقون في قراءة أو في كتابة أبحاثهم ينهض ليقترح عليهم استراحة لشرب كأس نبيذ أو مشاهدة القليل من البرامج أو الأكل. أو ليريهم ما اشتراه من أجل مجموعة التماثيل الزجاجية الملوّنة. كانت كلها صغيرة منمنمة. لا مكان لعرضها لذا يلفّ

كل قطعة بقماش ويودعها مصفوفة في حقيبة صغيرة. بالنسبة لميرا تتفهّم أكثر هواية سارة الباحثة عن كتب بإصدارات قديمة مصفرّة الأوراق على صفحاتها الأولى أسماء مالكيها أو اهداءات مكتوبة بخط أنيق.

هكذا تمضي أمسياتهم بحصيلة ضئيلة من العمل والكثير من الأكل والشرب. اجتمعوا مرّة واحدة عند ميرا، لكنّ ضيق مسكنها خنقهم.

بين الحين والآخر كان ينضمّ إليهم معارف عابرون، يجرّونهم إلى عادات جديدة كجولات لعب كرة الطاولة في البيت الفرنسي أو النهوض باكرًا للجري في أرجاء المدينة الجامعية، أو الذهاب إلى حانات والبقاء فيها حتى مطلع الفجر.

ترسل ميرا رسالة صوتية لساري، تسأله فيها إن كان غاضبًا من حديثهما الأخير وأنها لم تقصد. لا يردّ. في العادة حتى لو كان زعلان لا يهمل رسائلها.

تذكر كم ضاق العالم حولها مؤخّرًا. تحتار أين تلتقيه. تتجنّب المقاهي المحيطة بالجامعات. الطلاب يشعرونها بالزمن. تنظر إلى يديها تجدهما مختلفتين كأن العمر غزاهما في غفلة. سنوات عمرها تحضر بقوّة أمام عينيها. بين الناس تكبر هي ويصغر ساري. تراه شبيهًا بشبّان صغار حولها تملؤهم الثقة، العالم ملكهم. هذه لحظتهم، يقفون كأنهم على منبر وما حولهم غارق في العتمة. النور يظهرهم وحدهم. ضحكهم عال، تعابيرهم غير مألوفة بالنسبة إليها. منذ متى حصل كل هذا كأنها كانت غائبة وإذ بعالم جديد يطلع من أعماق الأرض.

لذا تفضّل أن يقودا السيارة بعيدًا، يجلسان قبالة البحر أو يقودان دون وجهة محددّة يستمعان إلى الموسيقى، يحكي لها عن عمله، عن شجاراته الدائمة مع والده، يريد أن يستقلا في بيتهما، متى يحصل ذلك يسألها، إن كانت أمها المشكلة فلم لا تعيش معهما؟ أو لماذا لا يعيشان معها؟ أسئلة تحايلت طويلًا لتبقيها بلا جواب.

تحسّ أنّها معلّقة في الهواء رغم ثقل ما يكبّلها.

يقفز قلبها حين ترى رقم البيت على الشاشة. تردّ بصوت مرتعش، لا تستوعب بداية ما تقوله أمها ثم شيئًا فشيئًا تهدأ وتفهم أنّها توصيها على زيت في طريق العودة. قالت إنّها استخدمت آخر قطرة وهي تعدّ «شيخ المحشي». شعرت ميرا براحة كأنّها سمعت أجمل الأخبار. ذكرّها ذلك بالماضي القريب قبل أن يزداد المرض حين كانت أمها تقاطع استغراقها في العمل لتسألها تارة عن الطبخة التي تحبّ أن تحضّرها لها وتارة لتسألها سبب عدم اشتغال التلفزيون أو تعطّل المصعد في البناية. كانت تلك المكالمات تغضبها. عبثًا تقول لأمّها إنها محاطة بزملاء لها أو إنها وسط اجتماع فكيف لها أن تناقش معها الطبخة أو تعلم وهي بعيدة ما مشكلة التلفزيون أو المصعد أو البوّاب الذي لم يأخذ أكياس الزبالة؟

لم يكن اتصال ندى إلّا ليزيدها ضيقًا. لم تستطع أن ترفض حين سألتها إمكانية ترك ابنتها صونيا في عهدتها يوم السبت. كيف ترفض وليس من عادة ندى ان تثقل عليها. قالت إن ابنتها الكبرى تتمرّن من أجل بطولة المدارس في الكرة الطائرة وهي ذاهبة مع الجمعية إلى الشمال. يوم ترفيهي للأطفال النازحين.

قبل الثامنة رنّ جرس الأنترفون علمت ميرا على الفور أنها ندى مع ابنتها. مؤخّرًا الأجراس سواء المنبّه أو التلفون أو الأنترفون تصيب مرتا بالتوتّر. لذا خفّفت ميرا الصوت ليبقى مسموعًا. إلّا الأنترفون لم تعرف كيف تخفض صوته الصاخب.

دخلت صونيا إلى غرفة الجلوس حاملة دميتها تخبّئ جسمها خلف أمها. انحنت ندى تكلّمها همسًا تقول لها هذه تانت ميرا تحبّينها أنت ما بك صونيا حبيبتي؟ تخرج مرتا من شرودها، تتأمّل صونيا مبتسمة، تدعوها لأن تدخل معها لتريها ألعاب ميرا القديمة. احتفظت ببعضها وعندما كانت ميرا تسألها التخلّص من الأشياء القديمة التي تأخذ مساحة

كبيرة في الخزائن كانت تردّ أنها تبقيها ذكرى ليفرح بها لاحقًا أولاد ميرا. لا ينفع أن تؤكّد لها ميرا أن انتظارها عبثي.

في لحظة كانت صونيا قد فتحت كل العلب فاختلطت المونوبولي بأحجار الداما والشطرنج. اختارت حجارة الزهر والملكة والحصان كوّمتها في يدها الصغيرة ثم جلست على السجادة. حين سألتها ندى إن كان بإمكانها الآن أن تنصرف، هزّت رأسها موافقة.

لم تصدّق ميرا عينيها وهي ترى أمها تهتمّ بصونيا وتشاركها اللعب والضحك، تعدّ لها العصير والسندويشات. لكن أكثر ما فاجأها هو سردها لقصص من ألف ليلة وليلة. صونيا المعتادة على سماع القصص كانت تعلّق على القصة وتسأل إن كانت السجادة التي تجلس عليها تطير أيضًا. أو تصحّح سير الأحداث كما يراها عقلها أو خيالها.

ساعات وهما تثرثران وتضحكان. لعبت مرتا مع صونيا «بيت بيوت» وشاهدت معها قناة تي جي. حين عرضت ميرا على صونيا الخروج معها إلى السوبرماركت أجابت إنها تريد أن تبقى مع مرتا. ستبحثان معًا في الخزانة عن أُثواب لدميتها.

نظرت ميرا إلى فوضى الأشياء التي أخرجتها أمها من الخزانة، فكّرت أن الخزانة أشبه بمغارة علي بابا بالنسبة لطفلة لم تتجاوز الخامسة من عمرها. لكن فرحة والدتها بدت أكبر. كل غرض تجده له حكاية عندها. الكثير منها لا تذكره ميرا.

ندى صديقتها منذ كانتا في الصف الأول الثانوي. قبل ذلك كانت تتعلّم في مدرسة فرنسية في السعودية، هناك عمل والدها لسنوات طويلة. كانت معرفتها باللغة العربية لا تتجاوز مستوى الرابع الابتدائي. في ما عدا ذلك كانت تتفوّق عليهم جميعًا. كانت أطول فتاة في الصف. تنحني وهي ماشية، ترمي قدمها اليمنى في السير كأن فيها طرف شلل، وحين تخجل ترفع حاجبًا واحدًا خافضة عينيها. لا تنظر في عيني من

يحادثها تهرب بنظراتها إلى أطراف أصابعها، أو تفتّت محرمة في يدها إلى نتف متناهية الصغر. كانت تلفت الأنظار بجمالها، شعر أسود، وعينان زرقتهما عميقة، لكنّها بدت دائمًا غير واعية للمسألة. تجد دائمًا في نفسها وفي شكلها ما تسخر منه بطريقة مضخّمة.

حين زارتها ميرا في بيتها، استغربت أن أخويها الصبيين قصيران لا يتشاركان معها في ملامحها، كأنها غريبة عنهما. لن تعلم ميرا إلّا بعد سنوات أن ندى ليست شقيقتهما. والدها تزوّج من أمها البلجيكية حين كان في الجامعة. بعد الطلاق، وكانت حينها قد جاوزت الثالثة، عادت مع والدها إلى لبنان، هذه روايته لابنته على الأقلّ.

لم تحاول ندى أبدًا التعرّف على والدتها. كانت تعتبر زوجة أبيها أمها الفعلية. حين تسأل أليس لديها الفضول أن تبحث عن أمها عبر مواقع التواصل، تجيب إنها تعرف أمها قاصدة زوجة أبيها. لا يجرؤون على القول لها إن كان لا يهمّها الأمر فلماذا تغضبها هذه السيرة وتدفعها إلى تبديل مجرى الحديث؟

بدأت ندى حياتها العملية معلمة علوم. لكنها ما لبثت بعد ولادة ابنتها الكبرى أن تحوّلت إلى عمل تحبّه أكثر. بين الكتب الحياة أحلى، تقول. توظّفت أمينة مكتبة في الليسيه. لكنّ شغفها الحقيقي هو الجمعية.

تخبر إنها عرفت الكثير من مآسي أولئك الأطفال من مجرد نشاط بسيط. بدلًا من أن تقرأ لهم القصص، كانت تطلب أن يبادر أحدهم ليختار بداية قصة ويتشاركون بعدها في ابتداع تتمة أحداثها. كانت كلها قصصهم الفعلية، أودعوها كل ما لا يبوحون به. فيها كان موتاهم يعودون إلى الحياة وبيوتهم المهدمة ترتفع أسوارها كالقصور في القصص الخيالية، وحين يعدّدون أصناف الأطعمة في الولائم تغشى الدموع عينَي ندى رغمًا عنها.

لا تملّ من قصص أولاد الجمعية. ولا تلاحظ كم أن هذه الحكايات

تضجر صديقاتها كلما اجتمعن. أكانت تنسى أنها حكتها لهن أم لديها لذة في تكرار الحكايات نفسها. أمر غير مفهوم بالنسبة لهنّ. مؤخّرًا باتت تشرك ابنتها الكبرى لينا بنشاطات الجمعية. ترسم برفقة الأولاد وتوزّع عليهم الأقلام والدفاتر وتلاعبهم.

«لا أريد أن تظنّي أنني تمساح بلا قلب لا أردّ على رسائلك. تعلمين كم يوجع ذلك قلبي، لكنني تعبت ولست زعلان منك. أنا غضبان من العالم بأسره.

لا أدري لماذا لا تحسّين كم أحبّك. وكم أخاف من الأوقات التي أعيشها بعيدًا عنك. دائمًا تهربين. تضعين حيطانًا بيننا. تبدلّين الحديث كلما حكيت عن المستقبل. هل أنا أبله ولا أنتبه؟ أسألك إن كنت سأراك في اليوم التالي. جوابك دائمًا سوف نحكي لاحقًا. هل أنت الوحيدة التي تواجه مشاكل؟ هل صرتِ عمياء حقًا إلى هذا الحدّ؟ أم هي طريقتك لإبعادي؟ ما عدت أعلم بما أفكّر. لماذا غضبت هكذا وأنا أدعوك لسهرة مع أصدقائي؟ هل كفرت؟ هل أهنتك إن أردت أن أعرّفهم بالفتاة التي أحبّها؟ حين يكون لديك أجوبة فعلية ربّما نحكي. المهمّ أن تقولي شيئًا. حتى لو كان مؤلمًا. أتمنّى من كل قلبي أن تفكّري بما قلته. قبلات لك».

قرأت ميرا الرسالة عدة مرّات، تردّدت قبل أن تعزم على الصمت التامّ. لاحقًا قد تبعث برسالة صوتية تخفّف فيها من حدّة زعله. كلّ ما في الأمر أنّ رأسها مشغول بأمور أخرى. تريد أن توقف أوهامًا لديها لأنها تعذّبها دون طائل. عليها أن تعترف بقرارتها أن أمها لن تتحسّن وليس عليها أن تنخدع بصَحو عقلها من حين لآخر.

ليتها استمرّت بجهلها. أية فائدة تجنيها من الاطلاع على تفاصيل تطوّر المرض. مشاعر متناقضة تمنعها من النوم. تتخيّل حياتها بعد وفاة أمها. يخجلها الاحساس بالتحرّر. شعور لا يدوم لأنّ الذنب يحلّ بدلًا

منه. تتخيّل بيتهم فارغًا إلّا منها. تفزعها الصورة. لا تريد أن تصير الكبيرة في البيت. طالما أمها على قيد الحياة ستبقى الابنة الصغرى.

الممرضة التي وظّفتها جافّة ترى خشونتها وهي تمسك بأمها لمساعدتها بدخول الحمام. تدخلها كل ساعتين دون أن تطلب تجنبًا لوضع الحفاضات. ميرا تضع الحفاض لأمها ليلًا. تفعل ذلك منذ رأتها واقفة في الحمام باكية في عزّ الليل. المهدئات التي وصفها الطبيب تبقيها شبه غائبة. عصبيتها لا تظهر إلّا حين تنسى ما أرادت قوله. تكمل ميرا الحديث بدلًا منها لكنّها لا تحزره دائمًا.

الممرضة كتبت أوراقًا ألصقتها لتسهّل على مرتا تذكّر أسماء الأشياء. كانت تزيد بعض التحذيرات أو التعليمات. كثيرة هي المرّات التي تترك فيها الحنفية مفتوحة والبراد مشرّعًا. تخفي عنها الكبريت والقداحات. تغلق الأبواب المفضية إلى الشرفات. خاصة أن الممرضة غادة كانت تغادر قبل عودة ميرا من العمل، عندما مزّقت مرتا تلك الأوراق أعادت الممرضة كتابتها ولصقها. لم تكن ميرا راضية عن افتراضات الممرضة، أحسّت كأنها بحرصها تعجّل من تدهور حالة أمها. حين بدأت بإطعامها اعترضت ميرا وقالت بعدائية إنها قبل أسبوع كانت تأكل دون أي مساعدة، ليست عاجزة. عندما تحكي مرتا أشياء غير مفهومة عن أناس عرفتهم قبل ولادة ميرا، تبتسم الممرضة لها كأن الحديث ممتع ومفهوم فمن هو سجعان هذا الذي تريد أن تنبّه زوجها نقولا من خبث نواياه ومن بضاعته السيئة. وهل نسيت حقًا أن أبنيها رالف وميشال هاجرا منذ ثلاثين عامًا. تكرّر على مدى النهار إن عليها أن تنهض لتحضّر لهما غداءهما قبل أن يعودا من المدرسة، لا تنتبه إلى أن الوقت هو مساء حتى. في أيام أخرى تنسى أسم أحدهما فتغضب حتى تسعفها الممرضة قائلة «قلت لي إنك منعت رالف وميشال...» تسكت مرتا كأنها ما كانت تحكي، أو تحزن محدّقة بمسلسلات لا تفهم منها كلمة. أكثر ما يؤلم ميرا أنها تنادي

الممثلين بأسماء أناس أو أقارب عرفتهم قديمًا وتنساها هي ابنتها. ألا تذكر حقًا كم دلّلتها ورعتها طوال ثمانية وثلاثين عامًا. تنادي الممرضة باسم «ميرا» تصححّ لها غادة دون ملل، لكنّها في لحظة تنسى.

كانت تتكفّل العناية بأمّها وحدها في العطل، لكن مع مرور الأسابيع تجاوزت الأمور قدرتها. أيعقل أن تتغيّر من أسبوع لآخر، أم أنها في عملها لا تعي حقًا حالة أمّها وسرعة تدهور صحتها.

عندما قرّرت أخيرًا أن تحكي ساري التقته ظهرًا في استراحة الغداء. جلسا في مقهى صغير يبيع سندويشات قبالة وزارة الخارجية. كانت تحسّ أن ردة فعله ستكون مختلفة. قالت إنها غير قادرة حاليًا أن تفكّر بحياتها. يصعب عليها أن تعيش كأنّ لا شيء يحصل. دموعها منعتها من مواصلة الكلام. أجاب إنه يتفهّم. وعدها ألا يلحّ عليها. أخبرها إنه يفهمها وحكى عن معاناة العائلة حين مرضت جدته. لا تعلم ميرا لماذا أغضبتها المقارنة. أرادت أن تقول: لا أنت لا تفهم ليس الأمران متشابهين البتة، وجدت نفسها تردّ في قرارتها على كل ما يقول بغضب يكبر في قلبها. حتى صارت لاحقًا تردّ على أشياء بسيطة يخبرها إياها. تتساءل كيف لا يحدس ما يغلي في داخلها. هل وجهها مخادع إلى هذا الحدّ ام أنه ببساطة أعمته عاطفته.

حين فتحت عينيها صباحًا، تذكّرت أنّه عيد مولدها. هي بالطبع لم تنسه. منذ وقت تعمل له ألف حساب دون أن تجد طريقة لتفاديه. حفظت تمامًا ما سيحدث فيه. تمنّت أن ينساها أصدقاؤها ولا يأتون مساء بحجة مفاجأتها حاملين قالب كاتو وهدايا، وقناني مشروب. قلبها متعب وعقلها مشغول بغير الاحتفال.

تنهض بثقل. الزكام سدّ مجرى الهواء في أنفها. تشهق لتأخذ نفسًا قويًا. وجدت أمّها جالسة عند طرف السرير، شابكة يديها. لا تعلم ميرا إن كانت تصلي أم إنها جالسة هكذا لا تدري أين هي. تجرّها بيدها كأنها

طفلة تائهة. لا تسألها ما تحبّ أن تأكل لأنّها لن تختار شيئًا، اعتادت ميرا على انكفاء أمها إلى نقطة في داخلها لا يصلها أحد.

أعدّت لها سندويشًا من جبنة الحلوم وقشرّت خيارة وقطعتها. لم تمسّ مرتا لا فنجان الشاي ولا الطعام. فكّرت ميرا أن الممرضة ستطعمها بعد قليل بطرقها الخاصة.

تحاول استدراجها للكلام لكن لا شيء. أرادت من أمها أن تذكر وحدها دون سائر الناس عيد ميلادها. لا يهمّ لو نسيها العالم كلّه. ثمانية وثلاثون عامًا كان فيها 23 تشرين الثاني يومًا تستيقظ فيه على وقع غناء أمها لها. كانت تتظاهر بعدم الانتباه إلى رائحة الكاتو ولا إلى همسات والديها ولا للهدايا التي أخفقا بتخبئتها عنها. تنتظر اليوم ببراءة عالمة أنها ستُفاجأ حقًا بهديتهما. على مدار السنوات كانا يهديانها أكثر ما تاقت الحصول عليه. حتى أنها تستطيع أن تعدّد هداياهما واحدة واحدة، فمنهما حصلت على دمية باربي، على أول دراجة، أوّل ساعة سواتش، أول كاميرا، أول سيارة. أشياء كثيرة أفرحتها. كانا يضحكان بسعادة عندما تسألهما مبهورة بهديتها «كيف علمتما أنني أريد ذلك؟»

سعال يؤلم صدرها، جاف كأنّه يشقّ أثلامًا في قفصها الصدري.

لم تحسب أبدًا أن هذا العدد من أصدقائها سيفاجئها مساء. كانت تتوقّع ندى وليلى وسارة وربّما راغدة إن كانت غير مشغولة كعادتها. قدوم ايلي وعادل فاجأها حقًا لا تستطيع أن تذكر حتى آخر مرة اجتمعوا فيها. كان ايلي برفقة زوجته وعادل وحده. هو لا يصطحب زوجته أبدًا بحجة رعايتها لأولادهما الثلاثة. لا أحد منهم يرغب في حضورها. صحيح أنهم التقوها بمناسبتين أو ثلاث، لكنهم لا يجيدون محادثتها ولا التقرّب منها. يسمونها لوح الثلج. يعلمون أن في سلوكهم قسوة، لكن هذه هي الحال كلما تزوّج أحدهم.

تذكر ميرا كم كرهت زوج ليلى وكم لزمها وقت لقبوله ولو على مضض.

جاؤوا قرابة الثامنة يحملون قالب كاتو بالكريما البيضاء كما تفضّله. اشتركوا بهدية لها عبارة عن سلسلة ذهبية تتوسّطها زهرة أحجارها فيروزية. كانت كالمنوَّمة مغناطسيًا، تتمنّى أن ينقضي الوقت لتنتهي السهرة. زعلت من ليلى لأنها في حديثهما الطويل قبل يومين أسرّت لها برغبتها في ألّا يتذكّر أحد عيدها. بالها ليس مرتاحًا ورفقتها غير ممتعة في هذه الأيام. صونيا تُضحِك الجميع بأسئلتها المباشرة الصريحة. كانت ميرا تتفقّد أمها باستمرار.

تخشى عليها من الارتباك وسط الضجيج. رؤية صونيا رسمت ابتسامة على وجهها، أما الآخرون فكان واضحًا أنها مرتبكة بشأنهم. اقترب ايلي منها وسألها بصوت عال عن صحتها، كأنها صمّاء. زوجته انشغلت بملاحقة صونيا وبمناداتها لتقترب منها. عدم الانجاب بعد مضي أكثر من ست سنوات على زواجهما أتعبهما. لا يخفي إيلي الأمر كلما التقاهم. يدّعي أنه سعيد هكذا وأنه لولا الأهل لما كان للموضوع أية أهمية. يقول إنه وضع حدًّا لتدخّلاتهم خاصّة أنّ كلّ واحد أراد أن ينصحه بطبيب يجترح المعجزات في مشاكل العقم. ناس لا يعرفهم إلّا معرفة سطحية يسألونه بصراحة ماذا ينتظر لينجب. ما يزيد الضغط عليهما أنه الصبي الوحيد بين أربع أخوات. تعرّفت ميرا على ايلي في الجامعة كانا في الصف نفسه، عادل كان يسبقهما بسنة. كانوا يجتمعون في شقة عادل ويدرسون حتى ساعة متأخرة، رغم ضيقها كانت مكانًا مناسبًا لا يقاطعهم فيه أحد. المرات القليلة التي درسوا فيها عند ميرا استمرّ أهلها يتفقّدانهم ويعرضان عليهم الأكل والشرب دون كلل. أو يسألانهم إن لم يكن الأفضل لهم أن يناموا قليلًا.

راغدة التي توكّلت بتقطيع القالب وتوزيع الكاتو، ناولت مرتا صحنًا. نظرت إليه مرتا بعينين سعيدتين. في العادة تمتنع من تلقاء نفسها عن كلّ ما يرفع مستوى السكري لديها. الآن تقطع الغاتو وتلتهم قطعه بلحظة.

تسارع ميرا إلى انتزاع الصحن من يديها قائلة بعتب «ماما! والسكري؟» الدموع تغشى عيني ميرا لا تعرف كيف تهرب بوجهها بعيدًا عنهم. تغضب من راغدة ومن غبائها. يبدو أن أمّها نسيت أمر مرض تداريه منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا. امتنعت بإرادة فولاذية، لطالما أدهشتهم، عن كل ما ما يرفع مستوى السكري. حتى في المناسبات ما كانت ترضخ لإصرارهم بأن تتذّوق القليل. في البيت كانت تعدّ النمورة والسفوف وقوالب الحلوى دون أن تأكل منها أبدًا. تقول إنها لا تحسّ بالحرمان. هذه طريقتها الرافضة للشكوى أو التذمر. حين تمرض وتلازم الفراش، لا تعترف بأوجاعها ولا بمرضها، كأنّها بذلك تقهر الأمراض.

الآن ما عادت هي نفسها. كثيرًا ما تبكي أو تغضب أو تثور بصوت يسمعه الجيران. ما يؤلم ميرا حقًا هو ابتعاد صديقات أمها عنها وعن زيارتها، كأنها مصابة بمرض معدٍ، أو كأنها فعلت شيئًا ضدهنّ بإرادة واعية منها. لذا تقول أم شفيق لميرا حين تلتقيها ألّا تزعل إن لم تزرهما فتصرفات مرتا جارحة وكأنها ليست الجارة التي صادقتها منذ أربعة وثلاثين عامًا.

وحدها خالة ميرا رغم سنّها تتصل وتحاول ان تقيم حوارًا مع أختها مرتا متجاهلة ضياعها وصمتها. لا تعلم ميرا بالضبط أي نوع من الكلام يجري بينهما، لكنها خلال المكالمة ترى قسمات وجه أمها قد استكانت كأنها تسمع أنشودة من الطفولة.

تزعل ميرا من نفسها وتفكّر أيّ سكري هذا الذي تحمل همّ ارتفاعه، فلتدعها تفرح كما تشاء. أرادت أن تقطع لها قطعة أخرى من الكاتو لكن اضطرابها ومغالبتها دموعها منعاها من النهوض. كانت تغضي متأمّلة ما في صحنها دون أن تمسّه. كالعادة حزرت ندى، وقامت هي لتسأل مرتا إن كانت تريد قطعة أخرى.

شيء واحد استحوذ على تفكير ميرا هو متى يغادرون. لكن شرب

البيرة والنبيذ ألهاهم عن الانتباه. حكى عادل للمرّة الألف ربّما كيف تعرّف على ميرا، وكيف تلاسنا وتشاجرا أول مرة التقيا فيها. لكنه لم يذكر تفاصيل هذه الخلافات. ليس معنى ذلك أنه نسي. لكنه ما عاد بالطبع مؤمنًا بالأفكار السياسية القديمة نفسها. لا تنسى ميرا اتهامه لها بأنها مرفّهة وأنها لولا الذين تهاجمهم لكانت بلا بيت وبلا حياة.

جلس عادل شبه سكران قرب راغدة. حاول إضحاكها بقصص عن زبائنه. لسانه الثقيل جعل كلامه كالغمغمة. هي تبعد وجهها متحاشية أنفاسه. تكشيرتها لا تخفى على أحد. يضعف كلما التقاها. ينسى أنه متزوج بحضورها. يجد حجة دائمًا للكلام معها. لا ينجح في استدراجها للكلام. تردّ بإيماءات غامضة متى ألحّ بالسؤال. في جلساتهم تقلّد طريقته في الوقوف مباعدًا ما بين ساقيه، ونافخًا صدره لإخفاء نتوء كرشه. يضحكون شاعرين بذنب، لذا يدافعون عنه واصفين إياه بالطيّب والخدوم. تسأل راغدة وما شأنها هي بطيبته، تردف أنه صديقهم لا صديقها. هي محقّة. راغدة لم تكن رفيقة لهم لا في المدرسة ولا في الجامعة هي ابنة عمة ندى، هكذا تعرّفوا عليها وصارت لاحقًا مقرّبة منهم. في فترة سابقة كانت أشدّ قربًا من ميرا، عزباء مثلها وحرة دون ارتباطات أو التزامات. في الصيف تترافقان إلى البحر. تقومان بالتسوّق وبسفرات إلى تركيا واليونان وبلغاريا. دون سبب تباعدتا بلا أيّ جفاء. انشغلت كل منهما بعالمها. لا زالت راغدة لا تكفّ عن الحركة. في عطلها الأسبوعية لا يمكن إيجادها. لديها مشاريع دائمًا لتقوم بها. لم تستطع ميرا أن تجاريها. لا تحتمل أن تكون مثلها محاطة بالناس باستمرار.

زخّات من المطر تطرطق عند درابزين الشرفة تنصت ميرا إلى صوتها. وتتمنّى مرّة أخرى لو ينصرفون.

تتململ مرتا، كأنّ ضوضاء الأصوات والضحكات تفزعها. انتبهت لها فجأة. تلتفت حولها محدِّقةً بالوجوه لا تعلم أين هي. ولا من هم أولئك.

تنهض ميرا لطمأنتها خشية نوبة غضب. تربّت على يدها «ماما تريدين أن تنامي؟» تنهض بوداعة تاركة ابنتها تتولّى كل شيء. عندما تطلب منها أن ترفع ذراعيها لتنزع عنها ثيابها لا تستجيب. على ميرا أن ترفع لها ذراعًا تلو الأخرى، كل يوم يمضي يحمل معه أمرًا جديدًا. صحيح أن الطبيب نصح بتمرينها على التذكر لا القيام عنها بكل شيء. لكن الكلام النظري شيء والواقع شيء آخر. على ميرا أن تحزر متى تعطش، متى تجوع أو تنعس أو تتألم. الأنين الذي يطلع منها لا تفهمه دائمًا. بإمكانه أن يعني الألم أو الجوع أو الفزع أو لا شيء نهائيًا. تترك دموعها تنساب مبلّلة عنقها وقميصها. تحسّ أنها أكبر من مرتا أمها. تسخر من ضيق عقل أصحابها. كيف يخطر لهم أنها بمزاج احتفالي. هل هم عميان وهل هي وحيدة إلى هذا الحدّ. تكرّ دموعها المحبوسة، تكبت شهقات تطلع رغمًا عنها. لو أنهم فقط يرحلون.

وجدتهم واقفين وقد تهيّأوا للرحيل. اعتذرت عن اضطرارها لتركهم والاهتمام بأمها. كانت صونيا قد غفت فتبرّع ايلي بحملها دون ايقاظها. لكنها أحسّت أنهما ذراعان غريبان فتحت عينيها صارخة «ماما».

حين أقفلت الباب خلفهم. جلست في الصالون. أطفأت النور كي لا ترى فوضى الصحون والأكواب والمنافض حولها. تريد هدنة في داخلها.

تذكّرت مشوارها مع ساري بعد الظهر. هو أيضًا عايدها. اشترى لها كاميرا قديمة. قال إن البائع أخبره عن جمال ما تلتقطه عدستها. كان ينظر إليها تفتح التغليف بعينين مضطربتين، علمت أنه أجهد نفسه ليجد هدية تناسبها. لم تقل كم يزعجها أن يدفع غاليًا ثمنها. تعلم أنه خطّط لها منذ زمن كي يتمكّن من توفير ثمنها. أو قد يكون استدان من أحد. تزعجها الفكرة وتحاول التركيز على أوّل صورة تأخذها بالكاميرا الجديدة. وجهه يبتسم، خلفه يبين التمثال الأثري المقطوع الرأس والبرج العالي الذي

ينطح السماء. الصورة الثانية هي للغيوم القطنية في سماء تشرين. لم تقل له إنها ما عادت تهوى التقاط الصور. في بيروت لا ترى عيناها سوى القبح. الصور الوحيدة التي تحبّ التقاطها هي لهرة غافية عند نافورة بركة ماء قديمة، لدجاجات تركض في حديقة وأشياء نادرة في المدينة. لا فرق عندها بين ما تفكّر في تصويره أو ما تصوّره بحق. تحبّ عجائز الأحد بثياب تعود موضتها إلى أكثر من ثلاثين عامًا، بدلات ملونة ومحارم مطرزة تتدلّى من الجيب العلوي. فساتين تفوح منها رائحة النفتالين، وجزادين سوداء لمّاعة تمسكها أيد معروقة متجعدة. أجراس الكنائس الضخمة. شرفات تزدحم فوقها النباتات والأشجار. أنتينات لتلفزيونات ما عادت موجودة.

في جلوسها الساكن كانت تصلها أنفاس أمها القوية. تساءلت ماذا ترى في مناماتها. هل تذكر فيها أنها مرتا الأم وأنّ زوجها نقولا مات وليس في محله وسط البلد؟ هل تذكر أن ميرا ابنتها وليست غادة الممرضة. كم يؤلمها أن تحفظ أسم غادة ولا تجد في قلبها اسمها هي ابنتها ميرا. كانت ميرا دون انتباه منها تردّ بعدائية على الممرضة، كأنّها المسؤولة عمّا يجري في عقل أمّها.

البرق يلتمع فوق الستارة البيضاء ويضيء جانبًا من الصالون، الفوضى الكبيرة فيه تبين. تعلم أنها مهما حاولت تجاهلها، لن تقوى على الإغفاء إن لم تعد الأشياء إلى مواضعها. هكذا هي. حتى مكتبها في العمل مختلف عن كل ما يحيط بها. رغم عجلتها في الانصراف مساء، لا تستطيع أن تغادر دون أن ترتّب عجقة الأدوات والأوراق. لا تهتمّ لتندّرهم حول هوسها هذا. حين صارت صديقة لرشا، كانت ما إن تدخل إلى الستديو حتى تبدأ بطوي كوَم الثياب المرمية كيفما كان، تعيد السيديات المبعثرة بالعشرات قرب قارئة الموسيقى إلى أغلفتها. الكتب مكدسّة وهي مفتوحة ومجعوكة الصفحات. كثيرًا ما استغربت ميرا كيف

لفتاة عقلها بغاية النباهة والدقة أن تحتمل هذه الفوضى حولها. لم تكن الفوضى فقط بل الروائح التي تقوى بسبب حرارة الشوفاج القوية، دخان السجائر مخلوط برائحة بقايا الطعام وعفن الرطوبة. كانت تتجنّب قدر الإمكان زيارتها ولا تفعل إلّا بإلحاح من رشا. ما يحيّرها هو قدرة رشا على تجاهل كل ذلك كأنّ لا حواس لها.

عندما تخطر رشا ببالها أكثر ما تتذكره هو نظرتها. وذلك العرق الأحمر الذي يشقّ بياض عينها اليسرى. لا تعلم لماذا تخطر ببالها هذا المساء. لم تسمع أو تعرف عنها شيئًا منذ أكثر من عشر سنوات. مجرّد تخمينات أو إشاعات بأنها تعلّم في واحدة من جامعات أمريكا.

لا قرقعة الأكواب والصحون ولا الأنوار توقظ أمها. الكثير من المهدئات تغيّبها في نوم عميق. الساعة جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، ولا تحسّ برغبة في النوم. على تلفونها تجد رسالتين من ساري. تكتب له عن معايدة أصدقائها وعن الهدية. عندما لا تحصل على ردّ تعلم أنه نام. على التلفزيون فيلم لتوم هانكس حين تسقط به الطائرة ويحاول أن يعيش متدبرًا أموره وحده على جزيرة نائية. سبق وشاهدت الفيلم مرات عديدة. يبكيها قسمه الأخير وتعجز عن إكماله.

سكتت الأمطار والبروق. العالم نائم حولها. البناية هادئة تمامًا. معظم سكانها من عمر والدتها. بعض المالكين ماتوا. شقق قليلة أُجرّت مؤخرًا لأزواج في مقتبل العمر. أحيانًا تلتقي بهم ميرا في المصعد. هناك زوجان متزوّجان حديثًا وينتظران ولدهما الأوّل. يلقيان عليها التحية بخجل كما لو كانت معلمتهما التي رأياها صدفة في مكان غير مألوف. أما الزوجان الآخران فلديهما ولدان. تكره ميرا الالتقاء بهما. لا لأنهما يتصرّفان كأنها غير مرئية، ولا يقولان حتى مرحبًا، بل لصخبهما. دائمًا إما يؤنّبان ولديهما أو يتشاجران مع أحدهما بخصوص أمر ما. حين تلمحهم ينتظرون المصعد تتلكّأ كي لا تركبه معهم.

تمسح الطاولات في الصالون وتعيد ترتيب الأشياء فوقها. أشياء لا تعلم حتى لماذا تحتفظان بها. بإمكانها أن ترميها، لن تلقى المعارضة المعتادة من أمها. مزهرية لا تذكر في أي صف كانت حين ألصقت عليها الرمال ولوّنت الزهور، هل طبعتها أم رسمتها بنفسها لا تذكر. الألوان بهتت على مرّ السنين، والرمل تساقط شيئًا فشيئًا بعد أن فسد مفعول الصمغ. إطارات مصنوعة من أصداف المعكرونة الملونة ومن حصى لامعة مصقولة، فيها صورة لكل من شقيقيها في بدلة التخرّج. أخرى لها في مناولتها الأولى وثانية وهي تتخرّج من البكالوريا. أمّا والداها فتجمعهما صورة في عيد الشعانين، فيها يقفان وأمامهما رالف وميشال في حوالي العاشرة وجنب كل منهما شمعة تصل إلى محاذاة الكتف عليها زينة من أغصان وطابات. الصورة بالأسود والأبيض. شعر أمها معقوص على شكل كعكة، عيناها مزمومتان كأنها تواجه نورًا ساطعًا في حين يقف والدها مستقيم القامة، على وجهه ابتسامة حقيقية.

هناك أغراض جمعها والدها ولا تدري لماذا تبقيان عليها. خاصة أنها تضيّق مساحة الصالون. مقعد جرار قديم عليه ثلاث جرّات فخار، اقترحت على والدتها وضعه على الشرفة فلم ترض. جرن رخامي للكبة مع المدقة الخشب الضخمة. مجرشة حبوب ليس سهلًا زحزحتها. صورة مكبّرة لجد والدها بالأسود والأبيض موضوعة في إطار من الخشب المحفور. شاربان معقوفان ونظرة ثاقبة كالصقر. الآن فقط تستغرب أن تكون صورة لجد والدها لا جدها هي. تذكرها منذ صغرها لم تنزع إلّا مرة حين أعادوا طلاء الجدران. صورة تبتسم كلما انتبهت لها، مربوطة بذكرى تتعلّق بنادر ابن ليلى. كان في شهوره الأولى يتغرغر بالضحك كلما رأى هذه الصورة. يهتف رافعًا يديه باتجاهها. ربما ظنّه شخصًا حقيقيًا.

الرعود وقرصة برد أيقظتها. كانت مكوّمة على نفسها فوق الكنبة. عضلاتها توجعها. غدًا يوم ثقيل بالنسبة إليها.

في فراشها جافاها النوم. أخذتها أفكارها إلى ساري. تذكّرت أنه ينتظر منها ردًّا. تلقّى دعوة من رفاقه لقضاء السبت في بيت صيفي في الكفور. لو قالت له إذهب وحدك سيزعل حتمًا. هي حتى الآن لم تتعرّف إلّا على جوني ابن عمه وصديقه منذ الطفولة. يوم التقته، بقيت شبه ساكتة تتأمّل ساري وقد صار شخصًا مختلفًا بحضوره. كم كبرت وهي تسمعهما يضحكان على مقلب دبراه لصديق ما أو يتندّران على تصريحات زعيم قبل أن يغرقا في حديث عن الكمبيوترات لن تفهم منه شيئًا. تخصّصا في البرمجة وتعلّما في الجامعة نفسها. مكثت صامتة تتظاهر بالاستماع. لم يغب عن ساري تبرّمها. تجنّبا لاحقًا الحديث عن هذا اللقاء. علما أنه سيفجّر خلافًا بينهما، لا قدرة لهما على تحمّل تبعاته. منذ مرضت أمها لا تفعل سوى دفع الأمور بعيدًا عنها. تريد أن ترتاح. أما كيف فلا تعلم.

تقول إنّها لن تلبي دعوة لقضاء يوم مع ناس لا تعرفهم وليست في مزاج لبذل أي مجهود. في نفسها خاضت شجارًا عنيفًا مع ساري. اتهمته بعدم النضوج، كيف يقول إنه يتفهّم ما تمرّ به. ما بها لتستمرّ في شجارات داخلية، أين اختفى الشوق والتوق لصباح يحمل لها لقاءات به، أين اختفت نبضات قلبها كلما سمعت صوته أو تأمّلته من بعيد قادمًا نحوها. أين ارتعاشها وهو يضمّها وهي تشمّ رائحة تعرّقه الخفيفة مختلطة بعطره.

أرادت أن تنام فقط، ألّا تفكّر في شيء وألّا تنهض لتذهب إلى عملها. أرادت حين تفتح عينيها أن تسمع أمها تناديها باسمها «ميرا، هل أعدّ لك النسكافيه؟». أرادت أن تنام وتحلم بأمها كما كانت قبل شهور. لا تريد أن تنظر إليها بعينين كأنهما ثقبان أسودان لا قرارة لهما. لا ينفع أن تهزّها كما تفعل في مناماتها وتكرّر لها «ماما أنا ميرا أنا ابنتك».

تسمع رنين رسالة. تتساءل من يكتب لها في وقت متأخّر. رسالة من ميشال أخيها، عبارة معايدة متبوعة بقلوب وبالونات وصورة قالب حلوى. رسالة ثانية يسأل فيها عن الممرضة وكيف تجدها؟ أرادت ألا

تردّ لكنه علم أنها قرأت رسالتيه. بينما تكتب كلامًا عامًا مضجرًا فيه شكر على المعايدة وتطمين كاذب حول صحة أمهما، أحسّت بتعب شديد وبخفقان قلب سريع. كأنها تعرّضت فجأة لحرارة عالية. وضعت رأسها على المخدة وأخفت رأسها بالغطاء. بحثت عن أحلام يقظتها لتستدرج النعاس. لكنها لم تجد. فقدت القدرة على ذلك أيضًا.

تقلّبت طويلًا. قد تكون سهت وغفت لدقائق. نهضت من سريرها وأعدّت كوب نسكافيه. أحسّت بالاختناق في الداخل. كأنّها لم تمطر في المساء. تفكّر أنّ هذا الصيف سوف يستمرّ إلى الأبد.

على الشرفة، سمعت وقع أقدام فوق رأسها. هناك من لا ينام مثلها. إنه جارهم الأرمل. ينشغل خلال يومه بأحواض، زرع فيها خسًا وبصلًا وكزبرة وشتول بندورة. تذكر أنه أهداهم مرة بعضًا من البقدونس والبندورة الكرزية. فعل ذلك ليعتذر عن ضجيج الورشة التي كانت تحفر وتكسر البلاط لتقوم بإصلاحات في شقته. منذ سنوات قلّما تراه يغادر البيت وحين يفعل يقصد الدكان القريب وهو في البيجامة.

حين بدأت العتمة تنحسر فكّرت أن تخرج للسير. رياضة عكفت عليها خلال شهور قبل أن تقنعها راغدة بأن تتسجّلا في ناد لليوغا. لكنّها ضجرت بسرعة، وادّعت أنها تفضّل السباحة وانتهى بها الأمر بعدم القيام بأي رياضة، قبلت الكتل الدهنية عند محيط خصرها. تابعت حمية تلو الأخرى دون أن تنجح. الأخصّائية التي استشارتها قالت إنه العمر. كأنها لا تعرف هذه الحقيقة. الوجبات والكميات التي حدّدتها لها، لم تجد صعوبة في التقيّد بها. انخفض وزنها وبقيت الكتل الدهنية عند خصرها. حين تنظر في المرآة لا تتعرّف إلى نفسها. تتساءل ما الذي يحصل. كيف تألَف مروحة التجاعيد الرفيعة حول فمها وعينيها. كيف تعتاد هذه الصورة المرتسمة أمامها في المرآة. ندى تضحك من هذه الخواطر

وتقول إنها أمور موجودة في رأسها فقط ولا يراها غيرها. بالنسبة لها لا تزال على حالها كما كانت في الصف الأول الثانوي.

تسمع وقع خطواتها على الأسفلت الرطب، تلتفت حولها ظنًا ان هناك من يمشي خلفها. لا أحد. شوارع فارغة إلّا من بعض العمال ومنزّهي الكلاب. الهواء لطيف يخفّف من اللهيب في عينيها. أوراق ونفايات تطير وتلتصق بجوانب السيارات المركونة. على الشرفات عجائز في قمصان نوم طويلة، وبيجامات شتوية. أصوات تراتيل ونشرات أخبار تنبعث من راديوات قربهم، عيونهم ترقب الشارع دون أن ترى حقًا. الهواء يحمل رائحة الهال مختلطة برائحة مجارير. تذكّرت أن الروائح والنفايات المكدسّة كانت سبب توقّفها عن هذه الرياضة. كيف غاب ذلك عنها.

منذ مرضت أمها يفزعها نسيان الأمور أو غياب كلمات بديهية عن بالها. هكذا بدأت حالة والدتها. كانت كل يوم تنشغل في البحث برفقتها عن شيء أضاعته. تؤكّد أن مفاتيح البيت كانت في حقيبة يدها. وبعد البحث في كل حقائب اليد، حتى في تلك الموضّبة في قعر الخزانة والتي لم تحملها منذ سنين، يجدانها إما في البراد أو في أحد أكياس البقالة التي اشترتها. تضيّع نظاراتها وتكون في أغرب الأماكن. توضّبها مع الغسيل الذي تطويه دون أن تتذكّر. ميرا المهووسة بالترتيب تعيّن لها أمكنة لوضع المفاتيح والنظارات وآلة التحكّم. ثم تطوّر الأمر حين راحت تعدّ أطعمة لا تؤكل. كميات من ملح ومن بهارات، أرز شبه محروق. حلويات بلا طعم. هكذا بدأت الأوراق تملأ البيت. وصفات، ومفكرة كتبت فيها ميرا أسماء الأدوية. كان المطلوب أن تضع علامة قرب الدواء الذي تتناوله. لكن حتى ذلك كانت تنساه. تتصل بها في العمل لتسألها أي أزرار تكبس لغسل الثياب الملونة، أو أين تضع المساحيق. وكانت ميرا تطلب منها أن ترجئ هذه الأشغال حتى عودتها، وأن تتوقّف عن الاتصال بها ومقاطعتها عن عملها. لكنّها كانت تعاود الاتصال على مدار

النهار، تقول إن التلفزيون تعطّل أو تريد رقم اللحّام. ثم باتت تنسى أنها اتصلت لطلب خضار أو أغراض وحين يقرع الباب. لا تفتح. هكذا يكون في انتظار ميرا جمهرة من الناس. من يطالب بأثمان أغراض ومن يهدّد بعدم أرسال أي غرض لهم بعد الآن.

تحوّلت حياتها إلى مناكفات ومشاحنات تنتهي عادة ببكاء أمها. أن تراها ضعيفة هكذا أمر شقّ عليها. كما أرهقها أن تعيش مشاعر متضاربة طوال أيامها تندرج من الازعاج إلى الغضب إلى الخجل من الآخرين إلى الشعور بالاضطهاد إلى الذنب في الاساءة لأمها.

نوبات الغضب تنفجر في داخلها وتدوم لترافقها في احلامها. حين تفتح عينيها تستغرب مصدر هذا العنف.

كتبت رسالة مختصرة لساري تنبئه فيها أنها لن ترافقه في مشوار السبت لأن الممرضة غير متوفرة في هذا اليوم. ويستحيل ترك أمها دون رعاية من أحد. انتظرت إلى المساء ليصل ردّه مقتضبًا جافًا. في العادة يقترح عليها حلولًا ويدخل في أخذ وردّ، لكن ليس هذه المرّة. تظاهرت أنها لم تنتبه لجوابه الرسمي، وشكرته مجددًا على الهدية وحكت عن صور التقطتها لسرب سنونو في الصباح الباكر. كأن حملًا انزاح عن كاهلها، وفكرت أنها لن تعذّب نفسها بمداراة الناس بعد الآن فليزعل من يشاء.

في طريق العودة انهمر المطر وبلّل شعرها وثيابها. استفاقت الشوارع، وتصاعدت رائحة المناقيش مختلطة بكاوتشوك الدواليب.

لم تتوقّع أن ترى أمها مستيقظة. في العادة تتأخّر في النهوض. الأدوية تثقل نومها وتطيله. كان باب البراد مشرعًا وقد أفرغت رفوفه من معظم محتوياته. لم تفكّر ميرا سوى بالوقت القليل الذي عليها خلاله أن تتهيّأ للعمل. سألتها بنبرة قاسية عما تريده ولماذا لم تنتظرها حتى تعود بدلًا من أن تحدث هذه الفوضى. كانت تعيد الأشياء بسرعة، وحين اندلقت علبة اللبن لتلطّخ الأرض ودرف الخزائن وقوائم الطاولة والفرن. جلست

ميرا على أرض المطبخ، لعنت حياتها وبؤس عيشها لكن هذه اللعنات الحانقة لم تهدّئها فبكت بحرقة دون أن تتمكّن من تمالك نفسها. لم تنتبه إلى وقوف أمها قربها حافية منبوشة الشعر إلّا حين وضعت راحتها فوق رأسها. كأنها صغيرة مجددًا وأمها تراضيها. حين وقفت رأت في عيني أمها هذه النظرة مجددًا. انكبت على التنظيف. أعدّت كالعادة فطورًا مؤلفًا من كوب حليب بلا سكر وسندويش من الجبنة المنزوعة الدسم. حين لاحظت دوران أمها بين الغرف فكّرت أنها ربما تبحث عن مشايتها. ما إن تنزلق فردتاها قليلًا تحت الكنبة أو السرير تعجز عن تقدير موضعها. أحسّت براحة حين سمعت رنين جرس الباب، إنها غادة الممرضة. أخيرًا سيتاح لها أن تنصرف لنفسها.

كانت يداها ترتجفان فوق المقود. ما إن قررت السير مجددًا في الصباح حتى انتبهت إلى أن قرارها غبي، ثلاثة أيام عانت خلالها من ركض للقيام بمهامها الصباحية دون أن تتمكّن من فعلها كلها. منذ متى تخرج بشعر مبلل دون تجفيفه، صحيح أنها لا تكثر من التبرج لكنّها تضع على الأقل حمرة شفاه. الآن حين تنظر إلى وجهها في مرآة المصعد ترى شعرها مبعثرًا في كل الاتجاهات ولا لون في وجهها كأن الدماء انسحبت منه وغارت عيناها واحمرتا بسبب قلة النوم والأرق. لا تفطن إلى ما لبسته. أي شيء يفي بالغرض.

تغييرات لا تنتهي وعلى الخرائط أن تكون جاهزة منذ أكثر من أسبوع. الأمر شبيه أحيانًا بلعبة بازِل معقّدة. ليست الشقق الضيّقة المساحة وحدها هي التي تعتبر تحدّيًا لهم جميعًا. بل أيضًا تلك الواسعة التي تكون مخيلة شراتها خصبة لملاحقة أدنى تفصيل.

كانت ميرا مستغرقة تمامًا في إنهاء التعديلات المقترحة، حين تلقّت مكالمة من غادة. أخبرتها إنها تريد منها أن تكلّم والدتها علّها تهدأ. المهدئات لم تنفع. تخشى أن تزداد عصبيتها، ربما إن سمعت صوتًا

أليفًا تروق قليلًا. قالت أن مرتا ما إن سمعت عمال البلدية يحفرون حتى أصابها هلع وبدأت تقول إن عليها أن تأتي برالف وميشال من المدرسة قبل أن تحتدم المعارك. لم تخفِ ميرا استياءها. وظّفتها لا لتقوم هي بمهامها.

كلّمت أمها بصوت منخفض متجهة إلى الحمام. لكنّ مرتا راحت تكرّر جملة واحدة. دون أن تسمع ما تقول ميرا أو تعي من يحدّثها. حتى خطر لها أخيرًا أن تسايرها وتخبرها إن رالف وميشال في طريقهما الآن إلى البيت بعد أن جاء والدهما لاصطحابهما. سألتها أمها «من أنت؟» أنا السكرتيرة في المدرسة أجابت فيما يداها ترتعشان.

لم تخرج للغداء ولم تطلب خدمة توصيل، حولها معظم المكاتب فرغت. وقفت قبالة الشباك، تدخّن سيجارة سحبتها من علبة منسية فوق مغسلة الحمام. شعرت بغثيان قوي. ما عادت معتادة على التبغ ولا على رائحته. لم تر أحدًا في شقق البناية قبالتها. كأنها مهجورة. نظرت إلى أرتال السيارات دون أن يصلها لا ضجيجها ولا زماميرها.

كم تخشى أن تمعن التفكير في حياتها. كأنّها فقدت حريتها. هناك أشياء ما كانت تقدّر قيمتها سابقًا. كانت حرة في ألّا تعود إلى البيت بعد العمل. حرة في أن تنام خارج البيت في أن تسافر في ألّا تقلق على أحد. في أن تكون خالية البال. كأنّها تغرق في مستنقع وقد حمّلت بالحديد والباطون. عبثًا ترفع رأسها لتلتقط أنفاسها. رأسها يهوي تحت الماء الآسن. تنتبه فجأة إلى أمور غفلت عنها وهي تكبر. حين تعرّفت على سارة وصارت صديقة لها في فرنسا ثم في لبنان، كانت تضيق بقيودها العائلية. تحرّضها على الانفلات من هذه الواجبات. ظنّت أن طبيعة سارة الرقيقة هي السبب في هذا الالتزام.

عادت إلى خرائطها تحدّق فيها كأنها طلاسم. لا تدري كيف تحوّل شغفها إلى وظيفة روتينية تؤدّيها بثقل. ما عاد فيها لا فن ولا أفكار مبدعة.

أبراج من الباطون مكررة في كل مكان. ما يفعلونه هو جعل أصحابها أكثر ثراء. حتى حين انضمت إلى جمعية تعنى بالحفاظ على المباني التراثية وجدت أن كل الجهود تذهب سدى. الوعود تُنسى سريعًا. من يضحي بالملايين من أجل مبنى قديم حتى لو كان تحفة عمرانية.

كان الطقس باردًا عندما قرّرت ميرا أن تصحب أمها وخالتها وشانتي العاملة المنزلية. بعد مطر استمرّ لأيام، صفت السماء إلّا من بعض غيوم قطنية بيضاء. هواء بارد هبّ بعد أن سقطت الثلوج على أعالي الجبال. تراها في البعيد بينما عيناها ترصدان الطريق شبه الخالي. إنه الأحد ولا أحد يخرج قبل الثامنة صباحًا. في الواقع ما كانت عازمة على الخروج باكرًا، لكن خالتها بدءًا من السادسة والنصف راحت تتصل كل ربع ساعة لتسألهما إن جهزتا. أرادت ميرا أن تنزه أمها بناء على نصيحة الطبيب ولم تجد أفضل من خالتها هند. وجودها يطمئن مرتا ويهدّئها.

كانت تقود دون عجلة وكلما صعّدت السيارة في الطرق الجبلية كثرت أكشاك الباعة عند جوانب الطرق يبيعون الخرمة والخس والمربيات والكشك. أرادت خالتها أن تشتري دبس رمان. بقيت ميرا برفقة أمّها في السيارة تستمعان إلى حديث خالتها مع البائع. تساومه في سعر الدبس وماء الزهر. وهو يقسم بحياة أولاده أنه لم يربح منها شيئًا وأنه سيبيعها بخسارة كي يستفتح ويسترزق. عادتا إلى السيارة دون أن تشتريا. وبقيت الخالة تكرّر امتعاضها، من باعة انتهازيين. لم تلبث أن طلبت منها التوقّف ثانية. هذه المرّة كان البائع صبيًا لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. حين تأخّرت نادتها ميرا وقالت مشيرة بعينيها جهة والدتها إنّهن تأخرن. تعلم ميرا أن أمها ستحتاج الدخول إلى الحمام بعد قليل. عليها إيجاد مقهى ما ليرتحن فيه. هذه المرّة اشترت خالتها إضافة إلى دبس الرمان القليل من الصابون البلدي. حين ركبت السيارة راحت تخبر ميرا كيف كانت في صغرها تحب اللعب على التتخيتة خاصة أن الوصول إليها كان بدرج

عادي. وفيما تنبش الصناديق أوقعت جرة زيت فخارية واندلق الزيت وكرج ليملأ أرضية المطبخ. تضحك وتصبح كلماتها مشوَّشة لكن ميرا سمعت الحكاية عشرات المرات. دائمًا تعيد خالتها سرد القصص نفسها. في صغرها كانت ميرا تفرح حين يُسمح لها بالمبيت عند خالتها. لم يكن أولادها بعمر ميرا بل كانوا أكبر من أخويها رالف وميشال. كانت خالتها تسمح لها بكل ما تُمنع عنه عند أهلها. تسهر بقدر ما تشاء وتأكل ما يحلو لها. تُعطيها كل ما يُعجبها من حلى وأدوات زينة تجمّعت لديها في الأدراج منذ كانت شابة. هذا عدا القصص المضحكة التي كانت ترويها خالتها. الآن حين تسمعها تتساءل هل تبدّلت خالتها أم هي، ولماذا تملّ من سماعها. هل تنسى حقًّا أنها أخبرتها كل هذه الحكايات عن أول فيلم شاهدته مع مرتا في سينما في البلد. تدلّها عليها وأين كانت قائمة والمحلات المحيطة بها. تحكي لها قصة الفيلم، ممثلون ما سمعت ميرا بأسمائهم. ما أهميّة ان تعرف موقع سينما ومحلات زالت من الوجود قبل ولادتها حتى. لكنّها تنسى تبرّمها وضجرها ما إن تلاحظ أن أمها تنصت باهتمام أو تبتسم. شيء نادر في الآونة الأخيرة. حتى حين تضع ميرا يدها فوق ذراعها وتنظر إليها وتؤشّر بيديها فيما تحكي، تهرب عينا أمها بعيدًا ولا تفهم لا كلمات ولا إشارات ابنتها. لا تحكي خالتها شيئًا دون أن تسأل «تعرفينه أنت مرتا؟ «.

وهي من سيهتمّ بها إن أصابها شيء. كانت أمها موجودة دائمًا في خيالها. ما اعتقدت أنها قد تموت أو تمرض قريبًا. لم تشعر أنها وحيدة هكذا أبدًا. كأنها عود يابس في صحراء شاسعة لا شيء فيها إلّا القيظ والفراغ. أعباء يومية تتحمّلها رغمًا عنها. عليها أن تحمل هم الأغراض للبيت. رغم تقدم والدتها في السن كانت تشتري كل ما يلزمهما. تذهب وتعود مشيًا محمّلة بالأكياس. مع المرض استعانت بخدمة التوصيل. الآن تعجز حتى عن الاتصال. طارت هذه المسؤوليات من رأسها تمامًا.

توقّفت عند مقهى تطلّ واجهاته الزجاجية على واد أخضر مليء بأشجار البلوط والشربين. قبل أن يأتي النادل أمسكت ميرا يد أمّها متوجهة بها إلى الحمام. كأنها تقود طفلة.

كان صوت خالتها يصلها وهي تبدي فرحها بالمنظر لنادل وقف بقميص أبيض مجعوك وبعينين نعستين. شانتي لحقت بهما لتعرض على ميرا معاونتها.

طلبن فولًا مدمسًا وفتة حمص وصحنًا من اللبنة والكثير من الخضار. الكل باستثناء والدتها طلب شيئًا يحبّه. كانت تعدّ لقمة صغيرة تلو الأخرى، تضعها في فم أمّها. وحين يقترب النادل لسؤالهن إن يرغبن بشيء إضافي، كانت تتظاهر ميرا ان اللقمة لها، تضعها في فمها وتلوكها دون أي لذّة. ثم انتبهت إلى بلاهة ما تفعله. ماذا لو علم أنها تطعم أمّها.

منظر العصافير التي تنقد من التراب والريح تلاعب الأشجار هدّأها. من مكان ما في أعماق المطعم تسلل صوت فيروز «وِلِع الصيف وخلص الصيف وحبيبي ما لفي» ما عادت تسمع خالتها وهي تجري حديثًا مع أمها من طرف واحد. كان كافيًا بالنسبة إليها أن تسرح بخيالها دون أن تثقلها الأفكار. طوال وجودهن في المطعم لم يدخله إلّا موزِّع مشروبات غازية، بقي المكان بقاعته الواسعة فارغًا.

أرادت مكانًا للسير وسط الطبيعة لذا توقّفت حين رأت حرش صنوبر صغيرًا. عند حافته بيت حجر قديم تداعى قرميده، أمام مدخله أرجوحة صدئة يؤرجحها الهواء، فلا يسمع إلّا صوت جلجلة سلاسلها الحديدية. وسط حديقة مهملة بركة صغيرة تسبح فيها أغصان ذابلة وضفادع تقفز وتستريح عند حوافها. الخزّ لوّن ماء البركة بالأخضر.

كان سيرًا بطيئًا. شانتي تمسك بيد خالة ميرا، فيما ميرا تقبض بقوة على ذراع والدتها خوفًا من تعثّرها. وُحول علقت، لطّخت أحذيتهن. جلسن عند سور جل، سألت الخالة أختها مرتا إن كانت تذكر بيت جدَّيهما

لأمهما. طلع صوت مرتا عميقًا كأن صدأ علاه بعد صمت أبديّ. التفتن ناحيتها كأن أعجوبة حصلت للتو. لكنها لم تقل إلّا كلمة الخروبة. تهلّل وجهها. شريط ذكريات كرّ في رأسها وأفرحها.

حكت الخالة عن أن قضاءهم جزءًا من الصيف عند جدّيهم ما كان متعة. إذ ينخرطون كلهم هي ومرتا وشقيقها الكبير في أعمال حصاد القمح وقطف العنب وإطعام البقرات. كان أمرًا شاقًا عليهم هم الذين تربّوا في المدينة. والدهم كان يعمل سائقًا عند عائلة تمرز. وهو بيروتي الأصل ولا يعرف في أمور الفلاحة. المتعة الوحيدة هي اجتماعهم في الأمسيات تحت شجرة خروب كبيرة، مع شبان وشابات في مثل سنهم. يشوون الحمص أو القمح الأخضر يروون قصص الجن، وعجائب القديسة شفيعة قريتهم. كانوا يمكثون عند جديهم حتى تنتهي أمهم من إعداد المونة. المربيات ورب الرمان ودبس البندورة والبرغل والصنوبر والكشك والصابون والزيتون، وكل ما تنتجه حقول جديهم.

في الطريق رأت بساتين من الخرمة تُركت ثمارها تذبل أو تتساقط دون أن تُقطف. تململت أمها كثيرًا وفهمت ميرا إن عليها ايجاد حمّام قبل أن تفلت زمام الأمور.

مع أنه لم يمض وقت على تناولهن الفطور توقّفت ليدخلن المطعم والساعة لم تتجاوز الثانية عشرة. لكن أي حل تملك وأمها تدخل الحمام كل ساعتين.

حين تخرج برفقتها تحضر لها ثيابًا إضافية. اعتادت ميرا على ذلك لكن ما لم تعتده هو نوبات الغضب أو الفزع الفجائية التي تنتابها كلما خرجتا. الطبيب نصحها بأن تصحبها إلى أماكن تعرفها أو إلى الطبيعة. كأنه نسي أنه ما عاد هناك شيء مألوف لديها.

خافت حتى من الكنيسة التي داومت على الصلاة فيها أيام الآحاد والأعياد. فزعها جعل ميرا تغضّ النظر نهائيًا عن مرافقتها للصلاة. في

الأصل ما كانت تقصد الكنيسة إلّا في الأعياد وبعد إلحاح من أمها وحين تُدعى لحضور أعراسًا أو جنازات. أما والأمر بات يخيف أمها فلماذا تفعله.

أزعجها أن ترى روّادًا في المطعم. تكره نظرات الناس الفضولية نحوهنّ. لا تفهم كيف يستطيع الناس ألّا يتحرّجوا من إطالة التحديق على هذا النحو. وجّهت عينيها باتجاه الناحية الفارغة. اخترن الطاولة البعيدة عن منظر الماء المتدفّق من الصخرة. على الأقل لن يرغب أحد بالجلوس ناحيتهن.

رائحة العرق السكرية اختلطت بشواء الدجاج فوق الفحم. تنهّدت ميرا عميقًا بعد أن أدخلت أمها إلى الحمام كأنها أنجزت مهمة شاقة. تحوّلت حياتها إلى مجموعة من المهمات المعقّدة. كلما ظنّت أنها تعيش أصعب تجارب عمرها تتفاجأ لاحقًا بما يفوقها مرارة.

تبدّلت ميرا وأحسّت بالخفة نسبيًا، عندما لاحظت هدوء أمها في الأيام التي تلت نزهتهن في البرية. أخبرتها الممرضة إن أمها كانت تطلب الدخول إلى الحمام دون أن تعرض عليها.

صحيح أنها تساعدها لكنها بدت أكثر وعيًا، أو بالأحرى فترات الوعي عندها بدت أطول.

كانت تسأل عدة مرات عن موعد عودة ميرا من الجامعة. وعندما تلفنت الخالة بادلتها الحديث ببضع كلمات عامة. صحيح أنها تخال ميرا مرّة تلميذة وأخرى مسافرة. ولا تحزر أبدًا أنها في العمل. هذه الفترة الزمنية ممحوّة من عقلها تمامًا. لكنها لم تسهُ عن اسمها كما كان يحصل لها سابقًا.

في فورة فرحها اتصلت ميرا وكتبت لكل من تعرف، كأن العالم عاد يدور بعد توقّف طويل. الزحمة قبل الأعياد ما عادت تزعجها. تغلق شبابيك السيارة وتضع موسيقى تحبّها تتفرّج على الزينة التي تلفّ

المباني والمطاعم. تعجب أنها لم تنتبه لها أو تراها قبل ذلك. توزّع نقودًا على أولاد يهجمون لمسح زجاج السيارة أو يبيعون ماء وعلكة.

لكن ذلك لم يستمرّ. مساء الأربعاء قبل أن تنصرف من العمل، وتلاقي ساري كما تواعدا. اتصلت غادة وجاهدت ليبدو صوتها طبيعيًا. قالت إن أمها في طوارئ مستشفى الروم بعد أن انزلقت في أرض الحمام وهي تساعدها على الاستحمام. لا تعلم بالضبط مقدار الإصابات تنتظر ليرى الطبيب صور الأشعة. تهيّأت لها أسوأ الاحتمالات وهي تقود صارخة بالسيارات وبالناس. دموع تسيل من عينيها تلقائيًا وهي تمسك المقود بقوة وتضغط كأن ذلك سيدفع السيارة إلى التحرّك بسرعة أكبر. كأن الكون بأسره يتآمر ضدها، الممرضة المهملة وأمها التي تركت نفسها تنزلق وحتى ساري بإصراره الدائم على ملاقاتها، والآن السير والزمامير وعجقة الأعياد.

قال الطبيب وهو يطمئنها إلى أنها مجرّد رضوض، ستوجعها صحيح لكن العظام لم تصَب. ثم مازحها قائلًا إن حالتها هي التي تشغل البال. نظرت إليه كأنها تراه لأول مرة. تردّد قبل أن يردف أن أقارب وعائلة المريض غالبًا ما يحتاجون إلى أدوية تساعدهم، ثم ذكر اسم طبيب. قاطعته وسألت إن كانت المسكنات التي وصفها لأمها ستتعارض مع أدويتها الأخرى.

لا تحتاج إلى طبيب لتعلم سوء حالتها النفسية. تنتقل من فرح مباغت إلى حزن أو تدخل في حالة من اللامبالاة بالعالم حولها، فتعجب للجهد الذي تبذله هي وغيرها في أمور لا قيمة لها. ماذا تعني الصداقات والشهادات والعمل والترقّي والحب والمال. ماذا يبقى من ذلك. لا شيء. تهمل الردّ على مكالمات أقرب أصدقائها، ما عادت تكترث لانفعال ساري ولمعاتبته لها كل يوم وفي كل مرة تلتقيه. حتى سألها إن كانت تغيظه قصدًا. لكن أن يسألها إن كان هناك شخص جديد في

حياتها فبالنسبة إليها منتهى السذاجة. نظرت إليه محدّقة بوجهه، كأنها تكتشفه للمرّة الأولى. لم تشعر سابقًا أنها وحيدة وغريبة كما لحظتها. لم تبك أو تغضب. سكتت. أردف إنه تحمّل منها أن تهمله وتجرحه دون أن تنتبه أو حتى يخطر لها أن تعتذر. قال إنه متأكّد من أنها ما عادت تحبّه. كانت تعلم الكلمات التي ستأتي ولم تجد أي قوة لإبعادها. تركته يحكي ويحمر وجهه وتغرورق عيناه بدموع لم تؤثّر بها. لم تجب، ما الفائدة. ما تودّه بحق هو أن يتركها الكون بسلام. ليرحل من يريد، هي ما عادت ترغب في شيء.

حين زارتها ليلى كان قد مضى على غيابها عن العمل ثلاثة أيام. بقيت خلالها في السرير. لا تنهض إلّا عندما ينتهي دوام غادة ويكون عليها هي أن تهتم بأمّها. قالت الممرضة إن أمها قلقة لذا تداوم على السير في الممر وتنظر إليها ممدّدة في السرير ومتظاهرة بالإغفاء. أجابتها ميرا كيف لها أن تقلق على شخص لا تعرفه. لا تسمع شيئًا من احتجاجات غادة ومن تفسيراتها لما يجري في عقل أمها مرتا.

هل ستتحسّن حالتها؟ هل طمأنتها ستشفيها من المرض؟ لا. إذًا فما فائدة أن تنهض من السرير.

عندما جاءت ليلى، أجبرتها على النهوض. جلستا كما في صغرهما. ميرا على كرسي مكتبها. وليلى على الكنبة ذات القماش الكحلي المنقّط بلون زهري فاتح. خلفها المكتبة نفسها برفوفها الأربعة. الآن تزدحم بكتب كثيرة ولا أثر للكاسيتات القديمة، ولا لمجموعة المجلات المصورة وكتب الألغاز. تنظر ليلى ساهمة كأنها تقرأ عناوين الكتب دون أن تفعل حقًا. ثم أغمضت سارحة برسوم السجادة الهندسية. الأشياء في الغرفة لم تتبدّل منذ زمن طفولتهما. الحرق في واحد من مربعاتها الكحلية أحدثته سيجارة كانتا تدخنانها خلسة، كم كان عمرهما، ربما أربعة عشر عامًا. ظنّتا يومها أنهما أطفأتاها لكن عقبها بقي مشتعلًا.

لم تدرِ ميرا هل ليلى حزينة أم أنها هي التي ترى الكون كتلة أحزان.

كان الكَلام كعادته معها. قالت بلهجتها القوية أن تتوقّف عن الرثاء لحالها، وألا تكون ملكة التراجيديا. ثم دعتها إلى حفلة رأس السنة. ردّت ميرا على الفور إنها لن تترك أمها وحدها. حتى لو كانت نائمة لن يرتاح بالها. لن تهنأ لها الجلسة. إصرار ليلى قابله عناد ميرا. نظرت ليلى إلى ميرا تدخن سيجارة، لم تسألها متى عادت للتدخين. ليلى امتنعت عن السيجارة منذ حملها بنادر ولم تسترجع عادتها أبدًا خاصة أن نادر مصاب بالربو منذ صغره. حكت ليلى عن ترقيتها في عملها. وما ترتّب عليها من مسؤوليات. كانت تفضّل أن تبقى في منصبها القديم. حكت عن امتحانات ستخضع لها هي وكل الموظفين معها. قالت من يملك في سنها الرغبة أو الصبر ليخضع لامتحانات وتقييم دوري. أخبرتها عن صعوبة التركيز في الدرس. وكيف حاولت أن تدرس برفقة موظفَيْن آخرين، لكنهما مثلها غير قادرَيْن على التركبز إلّا لوقت محدود. لعنت المصارف وقوانينها الجديدة.

ثم تذكرتا معًا تحايل ليلى أيام المدرسة كي لا تخضع لامتحانات. أماتت أجدادها وأخضعت أهلها لعمليات جراحية، عدا تمارضها الذي لم يقنع حتى رفاقها المقربين.

ضحكت ميرا من قلبها، وتذكّرت فشلها الذريع عندما تمارضت مرة وكان نصيبها عقابًا قاسيًا من المديرة، وتهديدًا بعلامة صفر على الامتحان.

كانت ليلى تحيّرهم بقدرتها على خداع ممرضة المدرسة في حين ينكشف أمرهم بسهولة. يلجأون إلى ليلى لتعلّمهم طرائق في الغش أو في نسخ الفروض عن رفاقهم المجتهدين دون أن ينكشف أمرهم للمعلمين.

دون أن تحسّ جرّتها ليلى إلى عالم آخر وضحكتا معًا وهما تستذكران

معلمين ونُظّارًا. عادتا إلى ذلك الزمن، إلى ذلك العمر وإلى خفة ضحك فقدتاها.

خلال غيابها جاء متمرّنان جامعيان واحد منهما سيقاسمها المكتب. يزعجها أن يكون بقربها شخص غريب يلازمها كظلّها. كأنها موضوعة تحت مجهر طوال النهار. كما أنه يعوقها في العمل. لو كانت تحبّ التدريس لفعلت. لا تستطيع أن تنطلق من قاعدة أن لا شيء بديهي بالنسبة لطالب متمرّن. عليها أن تشرح أساسيات العمل، وحين توكله بالعمل تكون النتيجة سيئة. مجرّد إضاعة للجهد والوقت. حين عرّفها بنفسه احمرت أذناه.

لم تسمع اسمه. تمتمت تشرفنا وجلست صامتة خلف مكتبها. راجعت الخرائط التي ستقدّم من أجل الرخص وانتبهت إلى أنه ينقصها توقيعان. فكّرت بإرسال المتمرّن ليقوم بالمهمّة. أعادت سؤاله عن أسمه قال «نور» لكنّه بقي واقفًا ممسكًا بالخرائط. قال بما يشبه الهمس إنّه لا يعلم من هما وليد وجيسيكا. فانتشلت الخرائط بقوة منه وراحت بخطوات عصبية تضرب الأرض كأنها تحفرها. بضعة مكاتب متقاربة يضيع بينها كأنه في مجاهل الأمازون. فكّرت وهي تتذمّر وحدها، وتشدّ على الخرائط وتجعك طرفها.

بدا لها مرتعبًا من طريقة جلوسه عند طرف الكرسي دون أن يتجرّأ على إسناد ظهره أو النظر إلى هاتفه. لا بدّ أنّه يلعن حظه الذي أوصله إليها. كيف سيتحمّل الأشهر المقبلة.

لم يخرج في استراحة الغداء كي لا يضطرّ إلى استئذانها، وبما أنها بقيت منهمكة في ما تعمل عليه نسيت أمره تمامًا. عصرًا أشفقت عليه، نظرت نحوه وقالت إنها عائدة من فترة مرضية ووجدت الكثير من العمل بانتظارها لكن في الغد سيكون كل شيء أسهل. تجاهلت واقع أنه لم يساهم في أي من الأعباء التي حكت عنها. المشكلة بالنسبة إليها أنها

لا تستطيع أن تعامل المتمرّنين كما يفعل زملاؤها. يرسلونهم لشراء أغراض أو لايصال أشياء. فهم من يشترون لوازم المكاتب أو يبدلون مواقف سيارات الموظفين أو يأخذونها إلى المحطة لغسلها وتعبئتها بالبنزين أو لتغيير زيتها. استعباد حقيقي. وبعدها يكتبون تقارير عن نباهتهم وقوّة تركيزهم وشغفهم في العمل. المفارقة أن المتمرنين يسعدون بهذه المهام ويأنسون لهذه العلاقات. أما هي فلا تحظى رغم اهتمامها بتدريبهم المهني إلّا بمعاملة حذرة وباردة. لذا لن تكرّر خطأها ولن تتعب نفسها لتعليم نور وأمثاله.

تتجاهل رسالة من ساري. بعد أسبوع من القطيعة يكتب لها عن رغبته في رؤيتها والكلام بهدوء. قبل أن تنصرف وصلتها رسالة ثانية فيها لوم على أنها تتجاهله دون أن تراعي عشرة سنتين كاملتين بينهما. تغضبها النبرة لكنها لن تنجرّ مجددًا إلى هذا الأخذ والردّ. ماذا ستجني من ذلك غير الألم؟!

ليلى تتصل يوميًا بها منذ آخر زيارة. تحكيان عن أمور عامة، عن درسها، عن نتائج نادر في المدرسة، عن أقساط مدرسته، عن قلقها على معاناة زوجها من ضغط دم مرتفع. تفهم ميرا جيدًا سبب هذه الأحاديث. لا يخطر ببال ليلى أن لا رغبة لديها أن تبادلها البوح.

كل عمل يثقل عليها. حتى اختيار هدية رمزية لواحدة من زميلاتها تؤجّله، ولم يتبق إلّا يوم واحد قبل أن يقيموا في المكتب احتفالًا صغيرًا قبل الميلاد. فكّرت ان ترسل نور المتدرّب لشرائها. لماذا لا تكون مثلهم. هو سيرتاح لخروجه بعض الوقت وهي ستتحرّر من وجوده لفترة.

سألتها جيسيكا وهما تركبان المصعد سويًا كيف وجدت الشجرة هذه السنة. لم تقل إنّها لم تنتبه إلى تغيير الزينة ولا إلى أن الشجرة حقيقية لا اصطناعية كما كانت في السنوات الماضية. ولا إلى شرائط الإضاءة في المداخل. استفاضت جيسيكا في الحديث وفكّرت ميرا أن الناس في

فترة الأعياد يصبحون دون سبب أكثر ميلًا للطف والثرثرة الفارغة. ما الذي يهمّها لو سافرت إلى فرنسا أو إلى الصين في عيد رأس السنة. سواء أقضته برفقة متشردّ أم قضته برفقة أختها المتزوجة هناك؟

هي أيضًا كانت مثلهم ربّما، ما أدراها. الآن ترى العالم معزولًا عنها بضباب كثيف، يتحرّكون خلفه كالأشباح. لا تريد أن يحدّثها أحد لا عن حفلات ولا عن أعياد.

يرنّ هاتفها. تنظر إلى الرقم لا تردّ. يعلم أنها في طريقها إلى البيت. يعرف أين تركن سيارتها وأي طريق تسلك للوصول إليه. لذا بدلًا من السير في الزاروب الضيق خلف البناية، سلكت طريقًا آخر. من بعيد لم تلمح أحدًا يحوم حول سيارتها. تذكّرت الرسائل والرسوم التي كان يتركها تحت المسّاحات لإضحاكها. أحسّت بشيء من الخيبة حين لم تجده قرب السيارة.

ما إن تستكين لروتين ما حتى تستجدّ أمور جديدة تزيد من إرباكها.

كانت غادة تنتظر عودتها لتخبرها إن أمها بدأت لا تردّ ولا تلتفت حين تنادى باسمها. ثم قالت لها ألّا تجزع لربما الموضوع له علاقة بسمعها. تعلم ميرا أن لا علاقة لقوّة السمع بما يحصل، لكنها رغم ذلك ستأخذ موعدًا للفحص. وأثناء ذلك ستتمنّى الطرش الجزئي كحقيقة. أردفت غادة بتمهل كأنها تخشى من وقع كلامها إنها لن تكون متوفّرة خلال فترة الأعياد إلّا لساعات قليلة في اليوم. لديها أقارب قدِموا من السفر. ليس بإمكانها العمل كما العادة. أعطتها أرقام تلفونات ممرضين جيدين لتتّفق معهم. انتبهت ميرا إلى انها لا تعرف شيئًا عن غادة سوى أنها متزوجة. هل لديها أولاد أم لا، أين تسكن. الشيء الوحيد الذي تعلمه أنها تعلق أحيانًا في الزحمة وتعتذر عن تأخير ميرا عن عملها. منذ بعض الوقت صار مستحيلًا أن تترك أمها دون مرافق حتى لدقائق.

شهر كامل؟ سألت ميرا بضيق. هل عليها الآن أن تعتاد شخصًا غريبًا

آخر. لكنها تحجّجت بوالدتها وسألت ألن يؤثر ذلك على أمها؟ نظرت الممرضة إلى ميرا دون أن تردّ لكنها فهمت. أمها لا تعرف أحدًا حاليًا. وحدها خالتها هند ترفض هذه الحقيقة وتستمرّ بمهاتفة مرتا وإخبارها ما لا تفهم منه كلمة واحدة. وحين تأتي بزيارة برفقة مساعدتها شانتي، تبقى لغداء حملته معها من بيتها. لا تبالي بنظرة أختها التائهة ولا بنهوضها وتركهم وحدهم. تستمرّ في حديث لا ينتهي عن طفولتهم، عن والدها السائق وأمها الفلاحة التي بقيت تخشى ألّا تجد طريق بيتها كلما خرجت في أول سنوات زواجها. تحكي دون توقف منتقلة من أحفادها إلى زوجها المريض، إلى آلامها. تبكي لأن الزمن غيّر كل شيء. تخرج من حقيبتها صورة شمسية قديمة لها تريها لغادة وتسألها أتتعرّفين إلى صاحبة الصورة، غادة التي تنفي في كل مرة، تبدي تعجّبًا زائفًا من أنّ هذه صورة هند.

استغلّت ميرا شعور الممرضة بالخجل لتطلب منها الاتفاق مع من تراه مناسبًا للاهتمام بأمها من الظهيرة حتى المساء.

تمنّت لو أنها لم يسبق أن أخذت إجازتها السنوية. أيام العمل تزداد طولًا وكآبة. احتفالات لا تنتهي، تمثيل الفرح والشكر على هدايا لا تعنيها في شيء، ماذا تفعل ببيت جلدي لهاتفها، حتى البونس الذي ارتفع عن السنوات الماضية، لم يعنِ لها شيئًا. لكن إن طلبت إجازة أين تقضي أيامها في البيت؟ تضيق مسبقًا بأيام الأعياد القريبة.

حين تعود الآن تجد الممرضة الجديدة بانتظارها وبدل أن تنصرف للتو كما كانت تفعل غادة، تبدأ بجردة لساعاتها دون أن تسألها ميرا أي سؤال. من اتصل في غيابها ومتى. ماذا أكلت أمها وكيف لبست ثيابها فوق قميص النوم، وكيف خافت من جرس التلفون. كما لا تنسى أن تعدّد مرات إدخالها إلى الحمام. الأدوية ومواقيتها المقبلة. حين تنتهي من كل ذلك تحكي عن مرضى آخرين تهتمّ بهم مفصّلة أمراضهم. تنتقد

أولادهم الذين لا يبالون بهم يظنّون أنهم يريحون ضميرهم إن دفعوا لها لترعى أهلهم. تقول إن أمها محظوظة لأن ابنتها معها. تتساءل ميرا إن كانت تسخر منها. هل تملك خيارًا لتكون بعيدة عن كل هذا الجنون؟

خالتها دعتهما لقضاء ليلة الميلاد برفقتها مع العائلة والأحفاد. شكرتها ميرا وادّعت أن العجقة ستشوّش أمها.

اشترت عشاء لكلتيهما، لا شيء يحتاج للتحضير، أجبان ولحوم باردة وقنينة نبيذ أبيض. في خيالها بدا لها أن بإمكانهما الجلوس ومشاهدة التلفاز معًا والضحك من سخافة البرامج أو التعليق على الهدايا التي تقدم للمشتركين الرابحين. أو الجلوس هكذا بوداعة قرب المدفأة.

اشترت هدية لأمّها عبارة عن إطار خشب فيه صورة عائلية قديمة يعود تاريخها إلى عام 1985،يقفون أربعتهم متحاذين أما هي فواقفة أمامهم تحمل دمية من قماش. شعرها في جديلتين شقراوين. والدها وأخواها في بدلات وأمها في تايور زيتي اللون مع قميص أبيض مخطّط. فستانها هي أصفر فاتح على صدره أزرار نحاسية لامعة.

أنزلت الشجرة الاصطناعية عن التتخيتة وكذلك الزينة المتجمّعة منذ صغرها. اختارت الطابات الأقدم لتزيّن بها الشجرة، تذكر انبهارها بألوانها البرّاقة وهي صغيرة وفرحها حين كان يُسمح لها بالمساعدة في تعليقها.

كانت أمها من يهتمّ بتزيين الشجرة والمغارة كل سنة. لاحقًا صغر حجم الشجرة واستغنت عن المغارة.

لم تبدِ أمها أي رد فعل حين رأت الشجرة توجّ بأنوارها، نظرت إليها لحظة ثم أشاحت بعينيها إلى شاشة التلفزيون. لا تعلم ميرا إن كان استغراقها في التحديق يعني فهمها للبرامج أو المسلسلات. تحبّ أن يكون الأمر كذلك. لذا لا تسألها عما تشاهده. تترك لنفسها سعادة التوهم.

ليلة الميلاد بدأ جرس بابا نويل يُسمع بدءًا من بعد الظهر وانتظرت ميرا أن يعيد الصوت إلى أمّها بعضًا من الماضي. ومن ذكريات كانت حتى وقت غير بعيد حيّة في رأسها.

حين ناولتها الهدية لم تفضّ غلافها ولما سألتها ميرا «ألا تريدين رؤية الهدية؟» لم تردّ. أخذتها ميرا منها وفضّت الغلاف. سألتها إن كانت تذكر مناسبة الصورة. قالت: «في زواج يوسف ابن أختي». «أتعلمين من في الصورة؟». سألت ميرا خائفة مسبقًا من الجواب. لم تردّ استمرّت تحدّق في الوجوه فيما يدها تمسح زجاج الاطار كأنها تزيل شيئًا لا يراه أحد غيرها. لم تكن المناسبة زواج يوسف، لكن أن تذكر أسمه شيء ايجابي بالنسبة لميرا.

مع حلول العتمة ارتفع صوت أجراس بابا نويل. علا أيضًا صراخ أولاد الجيران الفرحين وهم يرونه في الباب.

ضجيج الاحتفالات يزداد مع مرور الوقت. رسائل معايدة تصلها بالعشرات من أصدقاء لها ومن زملائها ومن ساري. تكتب ردًا واحدًا وترسله للجميع. الأمطار تقوى وتيرتها وشيئًا فشيئًا تطغى حتى على أصوات المفرقعات. تطعم أمها مارتديلا طليانية مع كبيس. لكنها ما إن تلوك أول لقمة حتى تبصقها بقوّة، جفلت ميرا. مسحت فمها بمحرمة وقالت بعتب: «لكنك تحبينها.» ثم نظّفت السجادة، وبقيت تكرر الجملة بعناد: «لكنك تحبينها.» حتى البزورات لم ترض أن تأكلها. الشيء الوحيد الذي رضيت به هو الخيار. أكلت الخيارات الأربع. وفاحت رائحة الخيار وذكّرت ميرا بسندويشات الجبنة والخيار التي كانت تحملها زوادة إلى المدرسة.

رغم توقّعها لاتصال أخيها ميشال أحبّت ألّا يفعل الليلة بالذات. لكنها لا تستطيع أن ترفض. كانت صورته تظهر وتختفي وينقطع الاتصال قبل أن يكمل جملته. قرّبت شاشة الهاتف من أمها، أعطتها الهاتف لتمسك به

لكنها وضعته جنبها كأنّ لا أحد يحكي معها ويعايدها سائلًا عن حالها. أعادت ميرا حمله ليواجه أمها، تململت ولكنها في الأخير ردّت على سؤاله عن صحتها بالقول «أين أنت؟». وبالطبع قام هو بتذكيرها بأنه ابنها ميشال وهو في كندا. لكن بينما يحكي قاطعته لتخبره عن أن يوسف تزوّج. نظر إلى ميرا مستفهمًا. لكنها لم تكلّف نفسها عناء الشرح. ماذا تخبره؟ فكّرت أن القصة ذاتها ستتكرّر مع اتصال رالف. سأل ماذا أكلتا؟ أجابت ميرا «الخيار». هو أيضًا ارتأى أن يختصر. سأل ميرا عمّا ستفعله في ليلة رأس السنة. لم تردّ بل أعادت طرح سؤاله عليه. قال إنه سيسهر في واحد من مطاعمه مع أصدقاء له. ارتاحت وهي ترى الصورة تتوقّف ثم يظهر أخوها لثوان قبل أن ينقطع الاتصال نهائيًا.

اكتفى رالف باتصال هاتفي سريع فأراح ميرا من تكرار كلام قالته لميشال قبل قليل.

تجشأت والدتها مرارًا بصوت عال. ثمّ راحت تنطوي على نفسها كأنّ مغصًا أصابها. لم تجب حين سألتها ميرا إن كان يؤلمها شيء. تأوّهت عاليًا. حضّرت لها نعناعًا مغليًا. حاولت أن تقنعها بارتشافه فلم تفلح. حاولت أن تشرّبها إياه ملعقة تلو الأخرى. كانت تبعد وجهها، وتضغط على بطنها كأنها تطحنه بيديها. لكن ميرا رجتها قائلة: «ماما اشربي القليل سيريحك». مع تزايد مغصها قويت حدّة رفضها. أبعدت يد ميرا بقوة عنها فانسكب الفنجان فوق السجادة.

كان قلبها ينبض بقوة وهي تمسح ما اندلق، لم تعلم ماذا تفعل. لو كانت أمها برفقة الممرضة لعلمت ماذا تفعل وأي دواء ينفعها. فكرت أن تتّصل بغادة، لكن كيف تزعجها في ليلة الميلاد؟

كانت لا تزال راكعة فوق السجادة حين سمعت صوتًا قويًا ينطلق من حنجرة والدتها. بلحظة انفجر شلال من القيء ملطخًا الكنبة ورأس ميرا وثيابها والصحون فوق الطاولة.

«ماذا أطعمتها؟» أول سؤال طرحه ممرض في الطوارئ وهو يملأ استمارة ما. كانت تجيب عن الأسئلة محدّقة بوجه أمها الشاحب فوق طاولة الفحص. هي في الواقع لم تأكل إلّا سندويشين أجابت. جبنة ولبنة والقليل من الخيار. كانت تبتلع ريقها بعد كل كلمة كأنّ كتلة ضخمة تسدّ زلعومها وتخنقها. بمحرمة كانت تحاول إزالة ما التصق بها من قيء والدتها ولم تنتبه له في غمرة هلعها.

حاول الممرض أن يُهدئ أمها ويعاود طرح الأسئلة نفسها مرارًا وتكرارًا عن موضع الألم. حين يئس في الحصول على جواب شافٍ قال إن الفحوصات ستظهر بعد قليل.

جلست ميرا محنية الرأس. النيون يلوّن العالم حولها بالأصفر. صراخ وخطى متسارعة ونقّالات تطرطق دواليبها. كل هذه الزحمة والساعة قاربت منتصف الليل. فكّرت أن المرض والموت لا يأخذان استراحة لا في الأعياد ولا في الليل.

لم تجد من يساعدها إلّا ناطور موقف السيارات. مع أن لا معرفة سابقة تربطها به لكنها التجأت إليه. كان شبه غاف في غرفته. اللمبة مضاءة وكذلك التلفزيون طرقت زجاج الشباك فاستيقظ.

لولاه لعجزت عن ايصال والدتها إلى السيارة. سألها لماذا لم تطلب سيارة اسعاف. في الواقع لم يخطر ذلك ببالها مطلقًا، كل شيء حصل بسرعة فائقة، حتى إنها لا تذكر كيف مسحت القيء عن ثياب أمها.

تخيّلت الفوضى العارمة السائدة في البيت الآن. اقشعرّ بدنها. في عقلها كانت ترتبّه وتفرك كل شيء بالمطهرات، السجادة، والبلاط والأبواب والطاولات والصحون. رأت نفسها واقفة تحت دش من الماء الساخن لوقت طويل، تفرك جسمها بالصابون مرارًا حتى يزول كل أثر.

لم تجرؤ على سؤال الممرض أين الأطباء؟ لم تر إلّا ممرضين حولها. يأخذون عينات الدم والبول إلى المختبر، يقيسون الضغط، يصرخون بالأهل اللجوجين.

عندما دعاها للكلام مع الطبيب كانت الساعة قاربت الثانية والنصف بعد منتصف الليل. أخبرها الممرّض إنّ أمها نقلت إلى غرفة بعد إعطائها حقنة من المسكنات القوية.

بينما تسمعه يشرح عن الحصى في الكلية وما سبّبته من أعراض مؤلمة، كانت تحسّ أن كل حزن العالم يتجمّع الآن في نقطة واحدة هي زلعومها. تأخذ نفسًا عميقًا كي تمنع نفسها من البكاء أمام هذا الغريب. سماعه يحكي بحياد وسأم عن حالة أمها زاد من وحدتها ومن بردها. شدّت المعطف على جسمها وتكوّمت متمنّية أن تختفي.

لن يسمحوا لها بالمبيت مع والدتها. عليها أن تعود صباحًا. قال الممرض المناوب وهو يتثاءب.

حين عادت إلى المستشفى في اليوم التالي لم تكن قد نامت لا لانشغالها بالتنظيف بل لأن جسدها كان متوثبًا. حاولت أن تنام قليلًا دون جدوى.

جلست في البرد خارجًا. من الشرفة رأت ناطور الموقف يكنس ما طيّرته الريح، شجرة الزيتون تخفيه عنها وحين يظهر ثانية تبتعد عن الدرابزين كي لا يراها. أجراس الكنائس بدأت تقرع باكرًا. لكن المدينة حولها غارقة في نوم عميق. عاملات آسيويات برفقة كلاب يقطعن الصمت بوقع خطواتهن.

الريح كانت تطرق درفة باب الصالون الذي تركته مفتوحًا للتهوئة. الستارة تتطاير حتى تعلق بشعرها. تبعدها ثم تربطها كي لا تتسخ أطرافها. صوت التلفون يجرح السكون حولها. حزرت أنها خالتها قبل أن تنظر إلى الرقم. ما عاد أحد يتصل بالهاتف الثابت غيرها. خاصّة في هذا الوقت المبكّر. حين تأكّدت من أنها هي تردّدت في رفع السماعة. لكنها تعرف خالتها جيدًا لن تكفّ عن الاتصال حتى يردّ أحد عليها. تركتها تسترسل في وصف السهرة وكيف أن أولاد خالتها زعلوا لعدم حضورهما، ثم

وصفت المأكولات والحلويات التي تركت لهما حصة منها. ستأتي بها حين تزورهما بعد الظهر. اضطرّت حينها إلى إخبارها بما حصل.

عندما قادت سيارتها باتجاه المستشفى كان العجائز قد خرجوا في ثياب العيد، بعضهم برفقة أحفادهم الصغار فوق رؤوسهم مظلات يتسارعون تحتها بأحذية تطرطق فوق الأرصفة المبتلة. تذكّرت والدها، كان دائمًا يشتري لها بعد القداس قطعة من الأكلير مغمسة بالشوكولا. كانت المفضلة عندها. قبل أن يغلق المحل ظلّت كلما مرّت قربه ترى والدها ببدلته الرصاصية وقميصه الأبيض، وانحناءته الدائمة وابتسامته الصفراء وهو يرى عينيها تتّسعان لمرأى الأكلير.

كانت مرتا تحاول أن تفتح عينيها بصعوبة كأنّ جفنيها من معدن ثقيل. يتغضّن وجهها وهي تنظر إلى ميرا. لا تردّ على أي من أسئلتها. الممرضة التي دخلت لتستبدل كيس الأمصال، لم تجب عن استفسارات ميرا، قالت إن الطبيب سيمرّ بعد الظهر.

ملء الأوراق استهلك طاقتها. ظنّت البارحة أنها انتهت منها.

تلتقي بعشرات من الناس في الممرات بعضهم بدا معتادًا الأروقة يتجوّل فيها منتعلًا المشاية كأنّه في بيته. وبعضهم مثلها حائر النظرات يمشي بحذر في مكان يجهله تمامًا ولا يفهم في قوانينه. تتردّد قبل أن تقرع الجرس لاحقًا. لكن الحشرجة التي أحدثتها حنجرة أمها أخافتها. لم تستطع تهدئتها وهي تمسك بالأنابيب محاولة نزعها. لزم ممرّضتان للامساك بها. رئيسة الممرضات جاءت بدورها تستفسر عمّا يحصل. ربّما ظنّت أن رتبتها ستخوّلها أن تتصرّف بطريقة أنجح. لكن والدتها لم تهدأ، لا عندما نادتها باسمها مرارًا ولا حين شرعت تشرح لها أهمية الأنابيب والأدوية. لم تقل ميرا شيئًا عن مرض أمها، وقفت في الباب منتظرة أن يقمن بما عليهن.

جلست قربها أمسكت يدها. يد نحيلة عروقها الزرقاء بارزة، البقع

البنية تغطّيها، أظافر مشقّقة. رائحة القيء لا تزال عالقة بأمها رغم أنها تلبس الآن مبذلًا من المستشفى. عنقها المترهل يرتجّ كأنها تغصّ بشيء ما. تضغط ميرا الزر لتجعل الرأس مرفوعًا.

تأمّلت وجهها النائم وفمها الفاغر. أبخرة المرض والعجز تفوح في الغرفة وتتسلّل إلى ميرا وتملأها. هل تعرف نفسها في أحلامها؟ هل تتذكّر أولادها وهل تعود إليها نفسها التائهة؟ أم تبقى وحيدة تطوي الوجوه الغريبة والأمكنة المجهولة.

تقف إلى النافذة الموصدة. تنظر إلى المدخل الخلفي للمستشفى، ممرضون وممرضات متجمعون لا ترى منهم إلّا دخان سجائرهم يبدّده الهواء البارد. تسمع صدى ضحكاتهم المكتومة، وتحسّ أنها وحدها في هذا العالم.

جاءت خالتها برفقة ابنتها الصغرى نايلة التي تجاوزت الخمسين الآن. كانت ميرا تعتبرها في صغرها أجمل فتاة. كانت رفيقة لميشال ورالف ما جعل وجودها عندهم شبه دائم. الآن لا تشبه ما كانت عليه، لم يبق شيء من جمالها القديم، رغم اهتمامها الفائق بمظهرها. كان الحديث مع خالتها أيسر عليها، وعندما حاولت أن تجري حديثًا مع نايلة لتسألها عن أولادها أو عن عملها، أحسّت بإرهاق يخرسها. لماذا تكبّد نفسها هذا العناء. وبم يهمّها أمر أولادها. لا تذكر لا أسماءهم ولا أعمارهم. هل هم في الجامعة أو يعملون، أو مسافرون.

مرور الطبيب برفقة جمهرة من الطلاب المتمرّنين والممرّضات أخرجهن من الغرفة إلى الممر. سمعنه يشرح لطلابه عن تكوّن حصى الكلى، يختبرهم أثناء فحص أمها ويسأل عن أسباب تكوّن تلك الحصى وعن أنواعها وطرق علاجها. لا تصلهن الإجابات بضع كلمات طبية مبعثرة. يفسحن الطريق أمام عربة مدولبة تقلّ عجوزًا إلى المختبر،

الممرضة تجرّ عمود المصل فيما تمضع علكة وتقلّب أظافرها متأمّلة لمعان الطلاء الأحمر.

لم تنتبه إلى مقدار ما تحبّ بيتها إلّا بعد ثلاثة أيام طوال في المستشفى. لائحة جديدة من الأطعمة المحظورة على أمها. في الأصل هناك حمية للسكري والآن تمنع عن كل ذلك. ماذا تطعمها؟

غادة سخرت من تعليمات الطبيب وقامت بإشارة من يدها كأنها تكشح كل ما قاله وطلبه. قالت إنها لم تصب بحصى الكلى بسبب الأطعمة بل لكثرة الأدوية. صارت ميرا تعدّ ليلًا أنواعًا من الحساء. تطبخ ليلًا كما صديقاتها العاملات. الفرق أنها تفعل ذلك من أجل أمها لا أولادها.

في ليلة عاصفة، قرابة الواحدة بعد منتصف الليل، أفاقت ميرا على أصوات أفزعتها. بقيت ساكنة في سريرها، لا تجرؤ على الحركة، الضوء المتسلل من بابها الموصد شجّعها على النهوض. الحرامي لا يضيء اللمبة. وجدت أمها، لا في غرفتها بل في غرفة كانت لأخويها. كانت جالسة في قميص نومها، وقد أخرجت من الخزانة كل ما فيها تقريبًا. تفتح العلب بنشاط غير منتبهة لوقوف ميرا قربها. «ماما ماذا تفعلين في عزّ البرد والليل؟» أجابت إنها اشترت علبة شوكولا ولا تجدها. وعدتها أن تبحث عنها وحين تجدها ستأتيها بها في سريرها. أمسكت يدها وانتبهت إلى خطواتها البطيئة. تتعثّر بأي شيء، كأنها تعلّمت السير للتو. كان شعرها الأبيض يغطّي جبهتها فتحرّك رأسها لإبعاد خصلاته دون أن تستخدم يديها. أشياء كثيرة تحيّر ميرا ولا تعلم إن كان سببها المرض. هل نسيت هذه الحركة البسيطة؟

تساعدها حتى في تنظيف أسنانها بالفرشاة وحين تطلب منها بصق المعجون وأن تتغرغر بالماء، تعيد الطلب أو تقوم بالأمر أمامها لتفهم ما عليها فعله وقد لا تفهم. تحاول أن تجد بدائل للأمور التي يستعصي عليها القيام بها. هناك انواع من العلكة تستخدم لتنظيف الأسنان حين

أعطتها حبة علكة ابتلعتها وكذلك الثانية ظنتها كالدواء. حبة الدواء تبقيها في فمها دون ابتلاعها وتبصقها حين تحسّ بمرارتها.

كل صباح تفتح فيه عينيها تتمنّى ألّا يحمل أيّ جديد. اشتاقت لحياة رتيبة ليس فيها أي تغيير. تستعيد حياتها قبل مرض أمها، لا تفهم كيف كانت أمور تافهة تنغّص عليها.

أهذه كل حياتها الآن. لم تعترض عندما طلبت غادة زيادة على أجرها. تستطيع على الأقل أن تجد طُرُقًا مع أمها لجعلها تأكل أو تشرب الدواء أو تقبل أن تغتسل وتستحمّ أو تنظف نفسها بعد دخول الحمام. لا تيأس من إعادة تعليمها في كل مرّة حتى لو اضطرت للامساك بيدها.

عندما استغرب ميشال مقدار ما تدفع لها أجابته بجفاء، إنه لا يعرف شيئًا عن صعوبة التعايش مع هكذا مرض. كما أردفت إنه ليس مضطرًا لإرسال أي مبلغ. تراجع محاولًا مراضاتها.

في زيارتهما للطبيب خرجت ميرا من عيادته ثائرة مجروحة. تلك الطريقة اللامبالية التي يحكي فيها عن أمها. يرمي الكلمات كأنها لا تعني شيئًا. يصف عوارض المرحلة القادمة كأنه يحكي عن الطقس. إذا كانت الأدوية لا تبدّل شيئًا فلم هذا العدد منها. يشقّ عليها أن ترى إذعان أمها وذلك الرعب الدائم في عينيها. أمها التي ربّتها على التحمّل بصمت وبتحفّظ، تترك غرباء يتحكّمون الآن بحياتها، ويحكون عنها كأنها غرض نافل. ربما لذلك تحبّ غادة ولا ترفض أن تدفع لها أي زيادة تطلبها. لم تعد أمّها بالنسبة لغادة مجرد مريضة بل هي شخص تعرفه وتخاف عليه وتعامله برقة. تحكي معها أحاديث عادية كأنها تفهم كل أمور الدنيا.

في يومها الأول بعد رأس السنة اتصلت بها سارة وقالت إنها في المقهى المقابل لمركز عملها وسألتها أن تلاقيها في استراحة الغداء.

لم يسبق لميرا أن دخلت هذا المقهى، لأنها تتجنّب ارتياد أماكن تمرّ بقربها كل يوم. كما لا تشتري أغراض البيت من متاجر محاذية لسكنها. تحبّ أن تبقى مجهولة وحرّة دون أن تضطرّ لالقاء التحية على أحد.

على جانبَي الدرج شتول وزهور مختلفة عن الشجيرات الصغيرة في القاعة الخارجية للمقهى، رغم البرد كانت سارة جالسة إلى واحدة من الطاولات الخارجية. وقفت لتعانق ميرا وبدت مرتبكة خجولة كأنها تعرّفت حديثًا على ميرا.

قبل أن تسأل عن حالة أمّ ميرا، أخبرتها عن عطلتها برفقة زوجها وابنيها في ضيعة زوجها. وكيف استمتع إبناها لأول مرة لأنهما كانا برفقة أولاد عمتهم القادمين من استراليا. قالت إنها تتمنّى لو أن عطلتها المدرسية أطول. تحسّ بحزن لقرب انتهاء العطلة. ولما سألت عن أم ميرا، سحبت من حقيبة يدها كتابًا قالت إنه هدية لميرا. رواية فيها شخصية تعاني مرض أمها. فكّرت فيها وهي تقرأه. ابتسمت ميرا متسائلة أي فكرة مجنونة أن تهدى كتابًا كهذا؟ ألا يكفيها ما تتعايش معه؟ عليها أيضًا أن تقرأ عمّا تسعى للخلاص من قبضته؟ لكن هكذا هي سارة العالم بالنسبة إليها موجود بين صفحات الكتب. تقول دائمًا تعليقًا على خبر أو حكاية إنها تعرف شخصًا مثل الذي يحكون عنه. ثم تذكر اسم الكتاب وبعضًا مما فيه.

تنظر إلى كره ابنيها لمطالعة الكتب بوصفه أزمة. وتتساءل دائمًا أي معلمة فاشلة هي لتعجز عن ترغيب أولادها بالمطالعة. حاولت معهما كل الطرق. تتذكّر بحسرة كم كانا يحبّان في صغرهما أن تسرد عليهما القصص، وكيف كانا يطالبانها بها سواء كانت معهما في السيارة أو في البيت أو قبل النوم. لا يملّان من أن تعيدها على مسامعهما مرارًا وتكرارًا.

الآن شغلهما الشاغل ألعاب تافهة ينصرفان إليها على هاتفهما. شبههما بكل أبناء جيلهما ليس عزاء بالنسبة إليها، تظلّ تتذكّر مقدار ما كانت لها الكتب عونًا في طفولتها. وكم تعلّمت منها. بفضلها كانت الوحيدة التي أنهت تعليمها بين أخوتها. أخوتها تركوا المدرسة بعد البريفيه وأكملوا تعليمًا مهنيًا. وأختها بريجيت تزوّجت وهي لم تتمّ الثامنة عشرة وامتنعت

عن العمل بحجة تربية أولادها. لم تتعلّم في مدارس خاصة غالية الأقساط كصديقاتها. درست في راهبات المحبة حتى الصف الخامس الابتدائي وبعدها تعلّمت في مدارس رسمية.

تحزر سارة الدوامة التي تغرق فيها ميرا، ولا تجد طريقة مناسبة لمساندتها. فلا وقتها يسمح لها بالالتقاء بها ولا عملها المتعِب. هذا عدا أنها منذ كبر ابناها صارت تقضي فراغها وهي تقود بهما من مكان إلى آخر. كل يوم هناك تمارين لكرة القدم أو درس سباحة أو حفلة عيد مولد أحد رفاقهما. زوجها مارون لا يمكن أن يسعفها في هذه الأمور. لا يعود إلى البيت إلّا بعد التاسعة مساء، يكون منهوك القوى ويعجز حتى عن الأكل أو الكلام. عدا أنه يعلم الرياضيات في مدرستين، عليه أن يجول بين بيوت تلاميذ الدروس الخصوصية، وحين نصحته أن يخفّف قليلًا نظر إليها دون أن يتكلّم. كلاهما يعرفان تكاليف الحياة الغالية. يعتبران نفسيهما محظوظين لتوفيرهما معظم أقساط التعليم.

تسأل ميرا عما فعلته ليلة رأس السنة، تردّ بضحكة وبإيماءة من يدها. تتحرّج سارة، كأنها ما عادت تجد أشياء مشتركة تجمعها بصديقتها. تلك النظرة في عيني ميرا ترميها في مكان قصيٍّ عنها. هي تعرف هذا الشعور. كانت في العاشرة حين أصيب والدها العسكري في حرب الإلغاء. شلل نصفي أقعده في كرسي مدولب طوال حياته. هي ابنة الأحد عشر عامًا تذكر كم شعرت باختلافها حينها، هجرت طفولتها وألعابها ورفيقاتها. كان القلق بشأن القصف وانقطاع الماء والغاز والخبز شغل الكبار، لكن حين أصيب والدها، وتُركوا بعهدة جدتهم لأمهم، صاروا كلهم كالكبار. إضافة لخوفها من ألّا يعود والدها، كان عليها أن تتساعد وأخوتها لتدبير أمور كانت تتولاها أمها عادة.

كم أحسّت حينها أنها كبرت. لم تجد الأمر جميلًا كما تخيلته. بقيت لها من تلك التجربة ذكريات تبعدها قدر المستطاع عن قلبها. انتظرت

هي وأخوتها عودة والديهم طويلًا. وحين عاد والدها لم تتعرّف عليه لا لخسارته الكثير من الوزن ولا بسبب الشلل بل لقسوة وحِدّة طباعه.

كانت تفكّر أنهم في المستشفى استبدلوه بواحد آخر. صار عليهم أن يحذروا في تنقلهم بين الغرف، وفي طريقة أكلهم. صوت أحذيتهم وطرطقة الملاعق أو اللعب بصخب أو الضحك العالي كلها أمور ممنوعة، تدفعه إلى الصراخ عليهم بأعلى صوت. إذا علم بأن أحدهم عوقب في المدرسة أو نال علامة متدنية أو أفسد غرضًا في البيت فعقابه حرمان من الطعام ومن التلفزيون أو اللعب. عقاب يتحمّلونه ساكتين. حين تتدخّل أمهم للدفاع عنهم كانت الشتائم تنصبّ عليها طوال النهار. يلزمه وقت طويل ليهدأ ولينسى. أرادت أن تقول لميرا إنها على الأقل تستطيع أن تشفق على امها وأن تستمرّ في حبّها. والدها هي ترك لها حسرة دائمة، فأي ابنة هي لتكنّ له في أعماقها هذا الكره؟ حتى بعد أن صار الآن عجوزًا لم يتغيّر احساسها.

رغم صدّ ميرا لها، لم تتراجع سألتها بحذر إن كان لديها وقت لتفعلا شيئًا مشتركًا، مشاهدة فيلم قرأت عنه نقدًا جيدًا. أو أن تقوما معًا في صباح الأحد برياضة المشي. وصفت لها الطريق الذي تسلكه كل سبت وأحد قبل الخامسة بقليل. استمعت ميرا إليها وتخيلّت كل الأشياء التي كانت تفعلها دون اكتراث. لم تعلم أنه سيجيء يوم تفتقد فيه حتى مجرد السير دون تعجّل.

قالت ميرا إن الممرضة تنتظر عودتها كل يوم لأنه يستحيل ترك والدتها وحدها. خفضت سارة رأسها مرددة «أعرف أعرف» ناظرة إلى الرواية الموضوعة على الطاولة. نظرة أسى ارتسمت في عينيها حين عادت بها الذكريات إلى عهد صداقتهما الأول في باريس. كانت ميرا ملجأها، فالمبيت عند ابنة خالة أمها ما كان بالأمر السهل. قريبة أمّها تعلمت في السبعينات بمنحة من الجامعة اللبنانية ونالت الدكتورا في

العلوم الاجتماعية. وحين اندلعت الحرب الأهلية في لبنان مكثت في فرنسا، تزوّجت من فرنسي لكن زواجهما انتهى بعد أقل من خمس سنوات. بقيت هي في البيت المؤلف من غرفتين. واحدة للنوم وأخرى للجلوس. كانت سارة تنام على فراش في غرفة الجلوس توضّبه ملفوفًا ما إن تستيقظ في الصباح. أما ثيابها فبقيت مطوية في حقيبة سفرها. كلما أرادت شيئًا عليها فتح الحقيبة. شعور دائم بعدم الاستقرار. لم تكن تملك حلًا فما تملكه لا يكفيها لتنهي الماجيستير. ظنّت أن الحصول على عمل قد يتيح لها أن تستأجر ستديو صغيرًا. حصلت على عمل جزئي في رعاية أولاد لساعات. لكن المردود لم يسمح لها بمكان تستقلّ فيه. ميرا كانت الملجأ والمتنفس الوحيد. حين تضيق بالقواعد المفروضة عليها عند قريبتها، كانت تنام تسللًا في ستديو ميرا. تذكر كيف كانتا تطيلان السهر، حتى بعد أن تأويا للنوم، كان حديثهما لا يتوقّف، كأنهما التقتا بعد فراق طويل. لم تخبر ميرا حينها شيئًا عن قريبتها والضوابط التي فرضتها عليها. تقنع نفسها أنه رغم خصالها الغريبة وبخلها، سمحت لها بالمبيت مجّانًا. كلما ضاقت بها الدنيا تقوي نفسها بالقول إنها فترة زمنية محدودة. تتخيّل فرص العمل التي ستنفتح بوجهها حين تعود إلى لبنان وتصبر متذكرة أن العيش تحت سلطة والدها أصعب بكثير.

طلبتا سلطة دجاج مع نودلز. حكت ميرا عن رغبتها في ترك عملها، كانت سارة تنصت إليها دون أن تقاطعها بالأسئلة. أرادت أن تنصحها بعدم التسرّع، لكنها امتنعت، فكّرت أنه مجرد كلام سببه الضغط. كم مرة عادت هي إلى البيت لتقول إنها انتهت من هذه المهنة. ليست عبدة أحد. تلعن المال والحاجة. تشتم التلاميذ المفسودين العاقّين. كم بكت من التعب ومن البقاء طوال الليل منكبة على تصحيح امتحانات.

ثم تنسى وتعود إليها طاقتها.

تخبرها ميرا إنها تلقّت عرضًا للعمل في أبو ظبي وأنه لولا وضع

أمها الصحي لما تردّدت. كثيرًا ما خطر لها مؤخرًا أن تكتب استقالتها وترتاح من كل شيء. إن احتاجت مالًا من أجل والدتها تبيع المحلّ. نظرت سارة إلى ميرا وهي تنكش السلطة بطرف الشوكة دون أن تأكل. كأنها تنقّب عن أشياء مخفية. خسارة الوزن بدّلت من هيئتها. خداها المرتفعان ذابا ووجهها المستدير استطال. أما عيناها فاتسعتا وغارتا في محجرَيهما، انطفأ البريق فيهما. كأنها كانت تعيش في زنزانة بعيدة عن الضوء والشمس. كل شيء فيها تبدّل.

أصرّت سارة بينما تفترقان أن تحدّد ميرا موعدًا صباحيًا لتسيرا معًا. تخيّلت ميرا هواء الصباح البارد والشوارع الصامتة والمدينة النائمة واتفقتا على أن تأتي سارة بسيارتها ومن ثم تسيران معًا يوم الأحد عند الخامسة صباحًا، أكّدت سارة على الموعد قائلة «حتى لو أمطرت سنمشي معًا، سأدلك على أزقة ربّما لم تعرفيها».

ابتسمت ميرا وفكّرت أن لا أحد مثلها يعرف تلك الأزقة الضيقة. لديها ألبومات بالعشرات لبيروت ومبانيها. منذ كم من السنين لم تلقِ حتى نظرة عليها. لا تفهم أية أوهام تدفع الواحد إلى تكديس أشياء على مرّ السنين. حين تنظر إلى ما تجمّع في الخزائن تتملّكها رغبة في رمي كل شيء. حتى ألبومات العائلة من ينظر إليها. وهذه الشراشف التي انتقتها أمها بعناية، مترددة بينها متأملة تطريزاتها وتخاريمها ونوع أقمشتها. منذ متى لم تُستخدَم. صحون البورسلين وصواني الفضة وأكواب الكريستال قابعة في البوفيه. تخرجها في السنة مرة لغسلها وإعادتها إلى مكانها. لم تُستعمَل أبدًا. كانت أمها تزعم أنها تبقيها للمناسبات، ترى أي مناسبات تقصد. وما هي المناسبة الجديرة بكل ما جُمع وكُدِّس على مرّ العمر.

منذ مرضت أمّها صارت ميرا تستعمل المناشف المطرّزة الأطراف. مناشف وأغطية سرير بقيت في تغليفها سنوات دون أن تستخدم. لم تفعل ذلك لأنّ أمها ما عادت تنتبه لهذه التفاصيل، بل أرادت لها أن تستمتع بها

قبل أن تنسى نهائيًا. قبل أن يغيّب المرض ذكرى يوم تلمّستها واختارتها بفرح. كم أخذت منها وقتًا. وكم حكت عنها ووصفتها. تذكر ميرا والدها وهو ينصت لوصف أمهّا الدقيق لدانتيلا الفضة حول أكواب المغلي. تظاهره بالاعجاب

فيما عقله سارح في أمور أخرى.

لكنها حين بدأت تفعل ذلك بدا الأمر سيّان عند مرتا. كأن عينيها لا ذاكرة لهما.

لذا أعادتها ميرا إلى الرفوف، هكذا لن تحسّ أنها خرقت قانونًا مقدسًا، ولتنتظر هي أيضًا قدوم تلك المناسبات كما فعلت أمها طوال عمرها.

حين سافر أقارب غادة ارتاحت ميرا. لم تستطع أن تألف الممرضة الثانية أبدًا. صحيح أن غادة تبقيها على اطلاع بالأمور الصحية التي قد تحصل وهي في العمل، لكنها لا تعدّد كم مرة غيّرت لها ثيابها الداخلية وبماذا أخطأت أمها وما نسيت وما قالت من أمور غير مفهومة، حتى طعام والدتها الذي صار في معظمه ليّنًا ليسهل مضغه تعدّه غادة دون أن تطلب منها ميرا. تتمنّى ميرا لو أن بمقدور غادة أن تطعم أمها مساء. ليس لأنها تصرف أكثر من ساعة لإطعامها القليل، بل لأن أمها تتشردق إن ملأت لها الملعقة وتغصّ إن كان الطعام جامدًا بعض الشيء. إطعام أمها مهمة تدخل الذعر إلى قلبها. تخشى أن تختنق بملعقة حساء عدس.

امتلأ دفترها الصغير الآن بعشرات الأسئلة. في كل مرة تقصد الطبيب تنسى ميرا معظم ما أرادت الاستفهام بشأنه. هي تخاف من الأسئلة. ضمنًا لا تريد جوابًا عليها.

في آخر مرة حكى معها أخوها ميشال، قال شيئًا عن إدخال أمه إلى مستشفى متخصّص. أقفلت الموضوع بالردّ إن هكذا أمكنة متخصّصة موجودة عندهم في كندا فقط. إجابة جعلته يفترض أنها استعلمت عن الأمر. في حين أنها لم ولن تفعل، تريد فقط أن يدعها بسلام وأن يفعل

كأخيهما رالف. يعلم إنه بعيد وغير قادر على المشاركة في تحمّل أعباء المرض لذا يسكت ولا يوزّع النصائح والتعليمات يمينًا وشمالًا. الحنق يتملّكها بعد كل مكالمة منه. تدخل في شجارات داخلية معه، تنتهي بقولها إن كنت مهتمًا ومشغول البال فلماذا لا تأتي لرعاية أمك.

صارت غادة تأتي من الصباح حتى المساء طوال أيام الأسبوع. بدل أن تستفيد ميرا من وجودها فتخرج كما كانت سابقًا في العطل الأسبوعية، وجدت أن لا رغبة تدفعها لفعل أي شيء. رفضت دعوة راغده لقضاء يوم في فاريا ودعوات من أصدقائها للعشاء أو للسهرات. لم تجتمع مع صديقاتها منذ شهور. ترى بعضهن من حين لآخر، بشكل خاطف. وتشعر خلال لقائها بهن أنها في عجلة للرحيل كأن أمرًا خطيرًا لا يحتمل غيابها عنه. داومن على سؤالها إن كانت زعلانة من شيء أو من تصرّف قمن به. إنكارها يزيد من الحاحهن عليها للانضمام إليهن في مناسبات ما كانت تفوّتها سابقًا.

عندما جاء ساري يزورها في بيتها دون سابق إنذار، لم تستغرب وهي تراه واقفًا بتردّد في الباب. استقبلته بفتور كأنه لم يمض أكثر من شهر على عدم لقائها به. هو يعرف أين تسكن وكثيرًا ما رافقها إلى البناية، لكنها المرة الأولى التي يدخل فيها إلى البيت. كانت أمها في المطبخ جالسة إلى الطاولة وقد وضعت غادة حول عنقها فوطة لتمنع اتساخ ثيابها حين تأكل. أدخلته ميرا إلى الصالون لكنهما استمرا يسمعان غادة تكرّر «ماما كلي ملعقة واحدة فقط»، «بلى افتحي فمك، ابلعي الحساء على مهل، لا لا تبقيه في فمك، لا مرتا لا تبصقيه. يا الله يا ماما».

كان يتأمّل ميرا بعينين مكسورتين، شقّ عليها أن تبادله النظر. كانت تتأمّل يديها وتسأله عن عمله وتحكي دون أن تعير اهتمامًا لكلامها، كأنه غريب وتتبادل معه مجاملات عابرة. سألها كيف بإمكانها أن تقسو عليه وتتجاهله كأنّ ما كان بينهما بلا أي قيمة عندها. أخبرها كم آلمته ببرودتها

حين انتظرها قرب سيارتها منذ أسبوع. لم يدار صوته الذي ارتفع مليئًا بالغضب والعتاب. قالت إنها أحبّته حقًا، لكنها في الوقت الحالي لا تجد قوّة في نفسها ولا تصلح لأحد، حتى عملها لا تدري إلى متى تذهب إليه. قال إنه يفهم تعبها وقلقها على أمها، لكن ما لا يفهمه هو لماذا تدفعه بعيدًا عنها. يحبّ أن يساندها ويساعدها. لماذا لا تدعه يكون قربها. ألا تحبّه؟ أردف إن المرض والموت حقيقتان لا بدّ من حصولهما لكل الناس. غضبت كأنه بقوله يسرّع موت أمها.

كانت متعبة. عشرات المرّات تكرر بينهما الحديث نفسه. لا تجد حتى القوّة على الحسم. نهضت من مكانها حين سمعت طرطقة على درابزين الشرفة، فتحت باب الصالون ونظرت عبره إلى حبّات البرد تتكوّم بيضاء لثوان قبل أن تذوب. برد تسلل إليهما، صوت غاده وهي تحاول انهاض أمها وتكرّر بإلحاح، أعطني يدك اليمين لا ليست هذه. سألها إن كان بإمكانه أن يتعرّف على أمها.

نادت غادة من بعيد لتعلمها بقدومهما. كانتا واقفتين وسط المطبخ لم تغادراه بعد. يلزم أمها وقت لفعل أبسط الحركات. ما كان تلقائيًا، لم يعد. على غادة أن تدرّبها على الأكل والسير وعلى الجلوس والبلع والمضغ.

كانت أمها ترتدي روبًا شتويًا مخمليًا بأزار، عند صدره بقع ماء، خلّفها الشرب. شعرها الأبيض مفروق في الوسط رفعته غادة عن جبهتها بدبابيس، حين حياها قائلًا «مرحبًا تانت» لم يبدر منها أي حركة. ارتبك، لم يعلم أنها لا تفهم أنها المقصودة بالتحية. اقتربت ميرا منها وأمسكت يدها برفق وقرّبتها من يد ساري قائلة: «ماما هذا ساري صديق لي يحبّ أن يتعرّف عليك». لامست يده أصابعها المرخية. احمرّت وجنتاه. غمغمت أمها اسم رالف وقد برقت عيناها لوهلة ثم انطفأتا مجدّدًا.

لم يحدس ساري إنه سيتأثّر على هذا النحو. وخجل من الدموع التي غشيت عينيه. خجل من نفسه، من جهله. بقي صامتًا حين دعته لمجالستها في المطبخ.

كانت تعدّ فنجانين من النسكافيه. فيما هو ينظر إلى الستائر ذات الكشاكش عند شباك المطبخ إلى نبتة معربشة على الحديد أوراقها خضراء وسميكة كأنها اصطناعية.

أحسّ كأنه يعرف بيتها بكل ما فيه. تخيّله طويلًا والآن يجلس قبالتها وهي تحرّك النسكافيه، كأنه يعيش مشهدًا رآه طويلًا في أحلامه. تخيّل مرض أمها على نحو مغاير. رآها شبيهة بجدته لأمه مع فارق وحيد أنها تنسى أشياء. لكن ما رآه صدمه. لا تجيد حتى التنفّس. أجفانها مرتخية فوق عينيها كستارة سميكة تحجب عنها العالم كله.

كان يرتشف النسكافيه، ناظرًا إلى خزانات الماء في البناية قبالته. على أحدى الشرفات عاملة تغسل الدرابزين وتكلّم عاملة أخرى في الطابق تحتها.

كأن المسافة بينه وبين ميرا ليست بضعة أشبار. كل شيء فيها بعيد. نظرتها الغائمة، جسدها الذي كوّمته ضئيلًا فوق الكرسي. أصابعها الرفيعة وهي تبعد خصلة من شعرها. لم تنتبه إلى يده تحاول أن تمسك يدها وحين فعل جفلت كأنّ تيارًا كهربائيًا صعقها. أراد أن تدعه في جلوسه معها ولا يهمّ أن تبقى في عزلتها وصمتها. اشتاق أن يشمّ رائحة التفاح في شعرها وأن ينظر إليها تضحك ويسمعها تحكي عن أي شيء، بصوتها المبحوح دائمًا.

حين عُيّنت مسؤولة عن مشروع سكني في منطقة بصاليم، لم تسرّ ولم تعتبر الأمر نوعًا من الترقية. رأته عبئًا إضافيًا آخر. ليست أمها من تبدّل، هي أيضًا لم تعد لديها لا التطلعات ولا الطموح نفسه. صارت بلا حماسها المعهود كالسائرة في نومها.

تنسى أن تأكل وحين تعود إلى البيت لا تقوى على تحضير وجبة لها. تأكل من حساء الخضار أو العدس المحضّر خصيصًا لأمها.

في الليل هجرت غرفتها، صارت تنام في السرير الذي كان لوالدها.

حتى الآن تحسّ بالدهشة ولا تجد تفسيرًا لوصول أمها وحدها إلى الطابق الثاني. لغز بالنسبة إليها، يستحيل أن تكون استخدمت المصعد. حتى النزول على السلالم أمر يتطلب منها وقتًا طويلًا. كانت عاجزة أن تصعد أو تنزل درجات مدخل البناية وحدها. كيف علمت أين بيت أم اسكندر وكيف أهتدت إليه. أن تصل إليه دون مساعدة أفرح ميرا كثيرًا، ولم تبال أنّ والدتها أيقظت أم اسكندر بعد منتصف الليل، بماذا تهمّها أم اسكندر؟ ضمنًا شعرت أنها تستحق الهلع الذي سبّبه لها ضرب أمها القوي على باب المدخل. كيف نسيت صداقة ربطتها بأمها عشرات السنين، كأن أمها ماتت بالنسبة لصديقاتها. في البداية جئن في زيارات متباعدة وبعدها نسين وجودها. كل ليلة تقفل الباب وتضع المفتاح تحت وسادتها خوفًا من تكرار خروج والدتها أثناء نومها. المرّة الأولى انقضت على خير لكن قد تقع فوق السلالم أو تنحبس في المصعد دون أن تدري كيف تكبس أزراره أو كيف تخرج منه.

رغم تبرّمها من ثرثرة خالتها هند تتأثّر بإصرارها الدائم على الزيارة، وعلى الحديث مع أمها مرتا غير مهتمة بما يقوله الطبيب أو تقوله هي. كل ايماءة من مرتا تفسّرها موافقة على رأي، أو تذكّرًا للقصة التي ترويها. تجلس قربها تمسح فمها وهي تطعمها أشياء كانتا تحبانها في صغرهما. لا تبالي بتعليمات غادة ولا بتنبيهاتها المتعلقة بالطعام. مع مرتا عادت هند إلى زمن طفولتهما وإلى مطلع شبابهما. كل حكاياتها عن تلك الفترة الزمنية. أحيانًا تأتي معها ببعض الصور القديمة. كلها بالأسود والأبيض. ملامح الأشخاص فيها غير واضحة، الوقت محا العيون والابتسامات. صور تشبه ذكرياتها المشوشة. تأتي بها لتري أختها شيئًا حكت عنه في يوم سابق، البيت القديم أو سيارة عائلة تمرز التي كان يقودها والدها، ويقف قربها فخورًا مبتسمًا بحاجبيه الكثيفين وقامته الممشوقة. أو صورة

التقطت لهما في مدرستهما الابتدائية وهما ترتديان مريولين. كان دخولها إلى المدرسة ونيلها الشهادة الابتدائية مصدر فخر دائم لها.

غادة كانت رغم اعتراضها على كل الأشياء الممنوعة التي كانت تطعمها هند لمرتا، ترتاح لوجودها. إذ تتمكّن أخيرًا من أن تجلس منفردة في المطبخ تشرب فنجان قهوة وتدخّن سيجارة.

آخر زيارة للطبيب أضطرّت ميرا للقيام بها وحدها لأن إخراج أمها من البيت حتى بمساعدة غادة يتطلّب قوة لا تملكانها. لا تنزل أمها الدرج إلّا شبه محمولة. هذا عدا خوفهما من أن تقع. لولا ناطور الموقف لعجزتا عن ايصالها إلى السيارة في المرة الأخيرة.

قال الطبيب باستخفاف وهو يراها قادمة وحدها «هل أحكم غيابيًا على حالتها؟ أنا طبيب ولست منجّمًا». احمرّت وراحت تصف بدقة الأشياء التي تبدلّت منذ شهر مستعينة بما كتبته على دفتر صغير. لكنه كالعادة كان يقاطعها للردّ على هاتف لا يتوقّف عن الرنين. حتى يئست أخيرًا وسكتت. كتب لها ورقة بالفحوصات التي عليها إجراؤها وأضاف بتحدّ إن بعضها يحتاج إصطحابها إلى المستشفى.

دفعت للسكرتيرة المئة دولار المعتادة. وبينما تتوجّه إلى سيارتها تمنّت أن تعود أدراجها لتلعنه في وجهه وتقول له إنّ كل ما يهمّه هو المئة دولار فلماذا يحكي معها بهذه اللهجة المتعالية. مسحت دموعها وقادت دون أن تنتبه لا للطريق ولا إلى قضائها أكثر من ساعة لتصل إلى البيت.

لم تفكّر بتناول مهدئات أمها إلّا حين باتت تعجز عن النوم ليلًا. كانت تنام بعمق لساعتين، ثم تستيقظ تمامًا. تتقلّب طويلًا قبل أن تقرّر النهوض والجلوس قبالة التلفزيون. تريد شيئًا يوقف عقلها. لكنها بينما تقلّب المحطات لا تجد شيئًا. في المرات الأولى نامت بشكل جيد بعد تناول حبة واحدة. ثم شيئًا فشيئًا عادت للتقلب والأرق. جربت العودة إلى

غرفتها علّ سريرها ينيمها بالطريقة التي اعتادتها. اكتشفت أن المشكلة لا علاقة لها لا بالسرير ولا بالغرفة.

قرّرت أن تتناول حبتين قبل النوم. ما إن مرّت أيام حتى زال مفعولها، جرّبت أن تقرأ لكن الروايات كانت تضاعف من هواجسها. تصفّح الأنترنت زادها بؤسًا. رؤية صور كل من تعرفهم يستمرّون في حياة لا يعكّرها شيء أشعرها أنها أكثر مخلوق وحيد في العالم. حتى أخواها، يبدوان مستمتعين في صورهما على حساباتهما. ميشال في كوبا قرب تلك السيارات القديمة وعلى شاطئ البحر يستعرض سمرته المكتسبة برفقة اثنين من أصحابه. رالف التقط صورة له قرب بحيرة جالسًا قرب امرأة أربعينية يضع ذراعه حول كتفيها.

كانت في ليالي أرقها تدخل إلى المطبخ وتبدأ بتنظيف خزائنه وإفراغ محتوياتها. رمت الكثير من المعجنات والمعلبات المنتهية الصلاحية. قبل مرضها كانت أمها تكدّس المؤن، وحين تسألها ميرا إن كان هناك مجاعة في الأفق، تضحك متحجّجة بأنها عادة منذ أيام الحرب. عشرات من علب التونة والسردين والحمص والفول المدمس. لا تذكر ميرا أنهما كانتا تأكلان منها إلّا في مناسبات قليلة.

الفرك واستخدام المطهرات القوية شقق أظافرها، فأخشوشنت يداها، كأنها عاملة في الحقول.

ما كان النعاس يقوى إلّا نهارًا حين تكون في زحمة انشغالها. أخطاء سهو، بعضها تنتبه له وتصحّحه وأخطاء أخرى لا يرتكبها حتى من كان مبتدئًا.

لكن شيئًا في هيئتها كان يدفع المسؤولين عنها إلى مراعاتها، كأنها مصابة بمرض عضال. لكنها لم تكترث. الحوادث التي تشغل أحاديثهم تحسّ أنها غير معنية بها. هم في بلاد وهي في بلاد أخرى.

ساري عاد لينتظرها قرب سيارتها، أحيانًا يقود بدلًا منها، يخشى

تشتّتها الدائم. لا يستدرجها للكلام عندما تجلس صامتة تمامًا. وحين يأتي لزيارتها، تفتح له الباب كأنه صبي توصيل البقالة. أمها مرتا تشعر بالخوف حين تراه، او تبتسم في مرات أخرى مطلقة عليه أسماء كثيرة. اسم زوجها أو والدها أو أسم أخيها المتوفي منذ الحرب الأهلية.

تدعه أيضًا يشتري الأغراض ويهتمّ بسيارتها وبأعطالها. غادة توصيه بالمرور بالصيدلية أو بالدكان. كأنه أمر درجت على فعله منذ زمن. أو كأنّه واحد من العائلة كان مسافرًا والآن عاد.

تركت ميرا الأمور تجري من تلقائها. المهم عندها ان ساري ما عاد يعاتبها أو يطالبها بالخروج معًا أو بأي نوع من الاهتمام. يرحل ليلًا كأنه أنهى لتوه دوام عمل ثان له. أو هكذا تحسّ ميرا على الأقلّ.

الفصل الثاني

رجل الويسكي

كانت ليلى تفكّر بينما تقود السيارة لماذا عليها هي دائمًا أن تجد الحلول. في العادة لا تعترض. لكن اضطرارها إلى الاستئذان من رئيسها الجديد أحرَجها. الآن سيظنّ أنها تقضي وقتها مطالبة بخدمات شخصية. أو أنها باتت غير مصدّقة نفسها منذ نجاحها في الامتحان. خاصة أن عدد الناجحين لم يتجاوز الثلاثة بين أربعة عشر متقدّمًا لتلك الامتحانات.

يحيّرها ما يحصل لابنها نادر مؤخرًا. لماذا لا يشفع له تفوّقه المدرسي ليُعفى من العقاب. كم مرة استُدعيَ والداه هذه السنة. إنها المرة الرابعة على التوالي. لا يبدو مدير المدرسة مكتفيًا بتفوقه وبسجله النظيف تمامًا من العقوبات طوال فترة دراسته السابقة. يريد أن يعاقبه وأن يعاقب والديه اللذين لم يحسنا تربيته. هذا ما تراه في نظراته الثاقبة التي يوجّهها إليها كلما اجتمع بها. كلماته تعرفها. تقطر سمًّا بالنسبة إليها. لا تدري كيف تتمالك نفسها ولا تردّ عليه. تودّ لو مرّة أن تقول له إنها ليست مسؤولة عن ضعف شخصية معلمته. كلما استاءت من تصرّف أو كلمة تخرجه من الصف غير مبالية بما يدفعه لهذا التصرّف. لماذا لا يزعج غيرها؟ وكيف تسمح لنفسها بأن تتّهمه بقلة الأدب.

هي لا تنحاز لابنها كما يدّعي زوجها راجي. لكنه مراهق عادي. حين سألت المدير إن كان يجوز تربويًا على الأقل أن ينعت أي تلميذ بالمغرور وبقليل التهذيب؟ وألا يعتبر ذلك عنفًا لفظيًا؟ يا للغضب الذي انهال عليها. «العنف هو حين يسمح ولد صغير لنفسه بأن يهين معلمته

القديرة»، قالها وهو يخبط قبضته فوق مكتبه. سكتت عندها لأنها لا تريد أن تزيد الأمور سوءًا. في المرة الأولى طُرد لثلاثة أيام وفي المرات الأخرى حُرم لثلاثة أسابيع من عطلة السبت وقضى يومه مجيبًا على امتحانات وفروض في قاعة صف فارغ. لو أنهما قادران على دفع أقساط أغلى لسجّلته في مدرسة أخرى نظامها غير عسكري. حين تكلّمت مع ابنها بدا متفهّمًا وواعيًا للضغوط التي يُخضعها لها. اعتذر ووعد أن يتجنّب مواجهة معلمة اللغة الفرنسية.

لا تصدّق كل ما يُقال عنه. لا يمكن لمن كان بلطفه وذكائه أن يرفض ارتكابه خطأ وأن يثور حين تكون علامته أقلّ مما توقَّع. او أن يسخر من رأي مخالف لرأيه. يُدان حتى على انعدام صداقاته وعلى أنه انطوائي لا يحبّ أن يشارك رفاقه لا نشاطاتهم الرياضية ولا أي نشاط جماعي. هي تخفي عن راجي كل ما يُقال لها تقريبًا عن نادر. حتى لو وعد راجي بأن يتعامل بهدوء مع المسألة، تراه في لحظات غضبه يرمي على نادر كل التهم ويزيد عليها من عنده.

يحزنها أن يتجنّب نادر والده. لا ينظر إليه حين يكلّمه. ينسحب إلى غرفته معظم وقته يضع سماعات الأذن لاغيًا بذلك ما حوله. فروضه ودروسه ينجزها مستمعًا إلى موسيقاه الصاخبة. حين تنظر إليه تتذكّر أوّل مرة حملته فيها بين ذراعيها. تعلم أن طفولته لن تفارقها أبدًا حتى لو أتيح لها أن تراه رجلًا بالغًا أشيب الشعر. سيظلّ بنظرها ذلك الطفل بغمّازتيه وبابتسامته المواربة وسوف تلتمع عيناه بألف ضوء طوال عيشها. هذا ما تراه كلما نظرت إلى وجهه، إلى شعر ذقنه الذي بدأ يقسو، وإلى البثور عند أنفه وأعلى خديه.

لا تنزعج حين يتهرّب من عناقاتها أو حين يُسكِتها متحرّجًا من ألقاب التدليل التي اعتادت أن تطلقها. تنتبه إلى ابتسامة رضا يحاول إخفاءها.

سارة نصحتها أن تجد له مدرسة أخرى يبدأ فيها مرحلته الثانوية. لكنها

لا تريد أن تبادر هي إلى مثل هذا القرار. رغم إظهاره الكره لمدرسته لا تدري إن كان مستعدًا إلى الانتقال إلى مكان جديد. تعلم أنه يكره التغيير، فكيف تفاتحه بهكذا أمر. إضافة إلى أنها لا تريد أن تجعله يستسهل الأمور. وإن لم يعجبه أمر يغيّره بدلًا من أن يجابهه. لم تربّه هكذا أبدًا.

خرجت من اجتماعها مع المدير مليئة بغضب لا تعرف كيف تطفئه في داخلها. اضطرّت للتوقيع على التزام بإخراج نادر من المدرسة إن تكرّر سلوكه. قال لمعلمته حين سألته أن يتابع الشروح ويتوقّف عن قراءة مجلته المصوّرة، إن ما تقوله موجود حرفيًا في الكتاب، لن يفوته شيء.

كانت تُجري حوارات مع نادر في مخيلتها، تحاول أن تجد أفضل طريقة للوصول إليه. ساره نصحتها سابقًا باستشارة زوج ندى المختصّ بمساعدة الأولاد الذين يواجهون صعوبات مدرسية أو سلوكية أو نفسية. لكنها فكرة لن يتقبّلها نادر. كأنه بذلك يعترف بسوء سلوكه. حتى هي تؤيّده ضمنًا وتجد أن من واجب معلمته استيعابه لا العكس. سيكون عليها أن تخيّره بين أن يترك مدرسته وبين أن يهادن معلمته. لم يكن ينقصها إلّا هذه المسألة التافهة. ألا تكفيها كل الأمور التي تشغل بالها.

طلبت اذنًا بالخروج لساعتين على أبعد تقدير. وها قد مرّت أكثر من ساعتين ونصف وهي لا تزال عالقة في الزحمة، تفعل ككل المعاتيه حولها، تشتمّ بأعلى صوتها وتلعن حياتها. سائق قربها يضحك حين تتناهى إليه كلماتها، تحمرّ خجلًا حين يقول لها أن تطوّل بالها.

لماذا تلوم ابنها. في المدرسة كانت أسوأ منه بدرجات. هو بقي تلميذًا مثاليًا حتى هذه السنة، أما هي فكانت تخالف كل القواعد وكل الأنظمة. مرّات قليلة كُشف أمرها. عندما يحصل ذلك، كانت تجد حججًا كاذبة تمنع عنها عقاب الراهبة.

حين كانت ميرا تستعيد تلك الذكريات بحضور نادر كانت تسكتها بنظرة أو تغيّر موضوع الحديث. لا تريد أن تكون مثالًا يحتذيه ابنها. ولا

أن يعلم عن كسلها وعلاماتها التي لم ترتفع إلّا وهي في المرحلة الثانوية. في الصف الأول الثانوي، شعرت أنها كبيرة وقريبًا ستكون حرة في أن تختار الاختصاص الجامعي الذي تريده. في المرحلة الثانوية انصبَّ اهتمامها الأكبر على المواد العلمية خاصة الرياضيات. ما كانت بالنسبة إليها رموزًا مجرّدة بل عالمًا حيًا يتحرّك بدماغها ويتحدّاها. حين تعصى عليها مسألة ما، كانت تحلّها في عقلها وأحلامها أثناء نومها.

الذكريات التي ترويها لنادر تختارها بعناية. راجي يقول إنّ هذا خبث. تلمّع صورتها وتكذب عليه. لكنها لا توافقه. هي لا تكذب لكنها لا تحكي له كل ما عاشته. أي أمّ تكون إن روت له ما يحفّزه على الخطأ. يكفي أن والده يتفاخر بقصص هروبه من المدرسة وبالأصفار التي كان ينالها على المواد العلمية.

أما هي فتحكي عن استقلالها ماديًا عن أهلها في وقت مبكّر. عن قيامها بأعمال المنزل وهي لم تبلغ العاشرة، تكنس وتمسح الأرض وتطبخ. كان على والدتها البقاء في المستشفى في ساعات إضافية منذ خسر والدها عمله خلال حربَيْ التحرير والالغاء. شركة تركيب المصاعد وصيانتها التي يعمل فيها أقفلت وانتقلت إلى الكويت. انتظر طويلًا أن ترسل له فيزا عمل كما وعده مدير الشركة، لكن الوعد لم يتحقّق. أثناء ذلك كان يعمل لشهور ليمكث بعدها متبطلًا غاضبًا، يصرخ فيهم كلّما تحركوا. خاصة أنهم كانوا في البيت والمدراس تفتح يومًا لتتوقّف شهورًا. كانت رغم صغر سنها تتفهّم سخطه، ولم تعاده أو تتجنّب الجلوس معه كما فعل أخوتها الأصغر. حين يكون على طبيعته، بالأحرى حين يجد عملًا يتحوّل إلى الأب الذي تعرفه، الأب الحنون المضحك.

تذكر دائمًا كيف كان بيت ميرا ملاذًا لها في الأوقات الصعبة. كثيرًا ما نامت عندها. كم

تمنّت أن تكون لها غرفة خاصة بها مثلها مليئة بالألعاب والدمى. بدلًا

من تلك الغرفة الضيقة التي تتقاسمها مع أختها يارا. أخواها لم يكونا بأفضل حال منهما. غرفة نومهما المجاورة للمطبخ كانت في الأصل غرفة خزين. عدا ذلك كانت تفضّل أمها الصغيرة الطريفة على أم ميرا الكبيرة التي قلّما تضحك أو تحكي. الآن لا تستطيع أن تذكر أم ميرا دون حزن لا لأنها ماتت بل لأنها أدركت متأخّرة مقدار ما كان لها من مودة في قلبها. جزء من عمرها مات معها. لا تستغرب ألم ميرا ولا تلحّ عليها كما يفعل أصدقاؤها.

مطحنة الأفكار لا تكفّ عن الدوران في رأسها. لماذا عليها أن تحمل همّ إبلاغ زوجها راجي ما دار بينها وبين إدارة المدرسة. ستقول له إن كان لديه طرق أفضل منها للتعامل مع الوضع فعليه الذهاب بدلًا منها. لا هي لن تقول له ذلك. سيصبّ غضبه على نادر إن فعلت. عليها أن تختار الوقت المناسب، ولو أنها ما عادت تجده مؤخرًا.

لاحظت قوّة الشمس عندما غادرت عملها مساء. النهارات بدأت تطول ومعها تحسّ انها غير مضطرة إلى هذا الركض الدائم. نسمات المساء لا تزال محمّلة ببعض البرد. تقف قليلًا تحت شجرة لا تعلم نوعها. بالنسبة إليها ليست أشجارًا تلك الموزعة عند جانبَي الشارع. الغبار يكسوها وأكياس النيلون تعلق بجذعها وبعض فروعها. يمزّقها الهواء ويبدّل ألوانها وتبقى عالقة منتّفة. لا تعلم لماذا لا أحد يزيلها لا عمال بلدية ولا أحد.

بينما تقود باتجاه السوبرماركت تحسّ بجوع، حرقة متواصلة في معدتها. تبحث عن لوح شوكولا في حقيبتها. لا تجد، لا تذكر ما أكلت ظهرًا. لا لم تأكل. كانت في مدرسة نادر.

في عقلها تعاود تعداد الأغراض التي ستشتريها تعرف سعر كل غرض. غالبًا ما يتطابق الحساب الذهني مع فاتورة السوبرماركت. كثيرة هي الأشياء التي تستغني عنها من أجل شراء قنينة الويسكي اليومية

والبزورات والأجبان. لا تعلم متى يكون هناك زوار من معارف راجي. عليها أن تكون متحضّرة دائمًا لعشاء فجائي.

حذفت من مشترياتها كريمات الترطيب، أدوات الزينة. لا تشتري من الثياب إلّا ما هو ضروري. لا تمانع من أخذ ثياب أختها يارا، تلك التي ما عادت ترغب بها. الشيء الوحيد الذي تخصّ به نفسها هو خروجها مع أصدقائها من حين لآخر. رغم تباعد هذه الاجتماعات، لكنها تنزعج من أن تدفع ثمن قنينة بيرة أكثر من عشرة آلاف في حين أنها تشتريها من السوبرماركت بألف وخمسمئة ليرة. يحزنها أن يتحوّل رأسها إلى آلة حاسبة على الدوام. تشتري أغراض البيت من أكثر من متجر بحثًا عن أرخص الأسعار. مؤخرًا تنتظر العروض لشراء وتخزين ما يلزم البيت.

على مرّ السنوات الخمس عشرة، جرّبت طرقًا كثيرة. كانت تجمع راتبيهما وكل منهما يأخذ ما يحتاجه إلى أن انتبهت أنه بحلول منتصف الشهر لا يكون في البيت قرش واحد. قبل أن تنجب ابنها نادر، ما كانت قلة المال وضآلة الرواتب تقلقها كثيرًا. لكن حين أنجبته، امتلأت بالخوف من اليوم التالي. ماذا لو احتاج طبيبًا وأدوية. كيف ستدفع تكاليف تعليمه وثيابه؟ هواجس كثيرة ما عرفتها سابقًا باتت تؤرقها على مدار يومها. كم حسدت راجي، لأنّ شيئًا فيه لم يتبدل. بقي على حاله كما تعرّفت إليه.

تعرّفت إليه حين التحقت بمؤسسة تجارية تستورد كل أنواع الطلاء ومواد نشّ للبناء. كان عليها الخضوع لدورة تدريبية في سنتها الجامعية الأخيرة. ربّما لو تأخّرت بضعة أيام لما تعرّفت إلى راجي. كثيرًا ما فكّرت بغرابة الصدف التي تجمع بين شخصين كل واحد منهما من عالم لا يمتّ بصلة للآخر. منذ اليوم الأول بادرها بالسؤال عن اسمها وإن كانت الموظفة التي ستحلّ مكانه. حين علم أنها متدربة. هنّأها على حظها واصفًا لها ثقل العمل وفراغ عقل العاملين فيه. وصفهم بالبليدين الفارغي الرؤوس. ثم حكى لها إنه سينتقل إلى العمل في مكان أفضل. اكتفت

بسماعه وبمراقبته يشعل سيجارة تلو الأخرى غير آبه لكل اللافتات التي تحظّر التدخين في المكاتب. كان شكله مختلفًا عن الموظفين حولها. لا لارتدائه الجينز بل كل ما فيه. شعره الطويل المربوط في ذيل حصان، ضحكته التي تكرج حرّة متفلّتة، لم يترك عندها انطباعًا جيدًا في لقائهما الأول. أتعبتها اسئلته الكثيرة وثرثرته التي أبدته متوترًا دائم الحركة.

وفي اليوم التالي تسلّلت أثناء مرورها قرب مكتبه، حانية رأسها ومسرعة باتجاه المكان الذي خُصّص لها. لكنه ناداها باسمها ما إن لمحها، وماتت خجلًا وهي تلحظ الوجوه ترتفع لتراقب من تكون ليلى تلك. هزّت رأسها بالتحية وأسرعت شبه راكضة.

ثم لا تذكر كيف وجدت نفسها في الأيام القليلة المتبقية له في المؤسسة، مشدودة إليه كأنّ مغناطيسًا يبقيها ملتصقة به. كانت تحاول أن تسيطر على اندفاعها. ليس أوّل شخص تغرم به. لكن شيئًا مختلفًا هذه المرة جعلها توقن أنه حبّ لا تقوى على مقاومته. صارت تعشق قصاصات الورق التي يخربش عليها رسوماته، تخبّئها. تستمع إليه يحكي عن عمله الجديد في صالة عرض، عن الأشياء التي يحبّها، كأنه سحرها. تبعته إلى أمكنة غريبة إلى سهرات لم تُدعَ إلى ما يشبهها سابقًا. أحبّت خفّة عالمه، لامبالاته بغدٍ أو بأي تخطيط كان. طوال حياتها عاشت في قلق من اليوم التالي. الخوف من ألّا يجد والدها عملًا، أو أن يعجز أهلها عن دفع الأقساط. أو من أن يُستغنى عن أمها في المستشفى لأنها ليست خريجة جامعية. أو من الفواتير والمستحقات التي لا آخر لها. من أن ينتبه رفاقها في الصف إلى أنها ترتدي ثيابًا مستعملة.

ظنّت أن محاولتها في تدبير مصروفها وهي لا تزال تلميذة، ستلغي إحساسها بالخوف وبالضغط. لكن كيف تعزل نفسها عن وجه أمها المكتئب وهي تقلّب بين يديها انذارات من المدرسة وتهديدًا بالطرد إن لم تسدّد الأقساط. عندما صارت مجتهدة في المرحلة الثانوية، تخيّلت

أنها بعد دراستها الجامعية ستقلب عالم أهلها إلى آخر تزول فيه الهموم وتختفي الدموع المخنوقة وذلّ البطالة. أوهام طفولية، لم يلزمها وقت حتى تعلم إن شهادتها الجامعية ليست العصا السحرية التي تخيّلتها.

في صحبة راجي كانت تطير كفراشة حرّة. حين غادر المؤسسة، وجدت صعوبة في تحمّل الساعات النهارية العشر. أحاديثهما الهاتفية كانت تستجلب نظرات استياء حولها. لكنها وجدت أنها مثل راجي، تسأل نفسها ماذا لو لم يعجبهم فليبلّطوا البحر لست عبدتهم.

انزعاج أهلها من عودتها متأخرة كل ليلة لم تهتمّ به أيضًا. كانت تكذب عليهم بسهولة، وتقنعهم بأغرب الأمور. تستغرب كيف صدّق والدها أنها تدرس مع رفاقها. منذ متى تطول فترة الامتحانات هكذا. ربما ميرا كانت أكثر من غضبت لانشغال ليلى عنها تمامًا. حين عرّفتها براجي ظنّت أن الاهتمامات المشتركة بينهما ستقرّبهما من بعض. فراجي تخرّج من الجامعة في مجال الفنون وميرا مهووسة بالهندسة المعمارية. لكن ما حصل بينهما كان أشبه بعراك كلامي عنيف. قال إن الهندسة المعمارية قد تكون فنًا، لكن الهدف الأول لدراستها هو جني الكثير من المال صحيح؟ سألها بسخرية مبطّنة. ردّت عليه بتهكّم وهل هو يعمل مثلًا دون مال؟ وإن رسم لوحاته هل سيتبرّع بها مجانًا لكل من يحبّها أو يقدّرها؟ تدخّل ليلى ومحاولتها تبديل الموضوع لم يفلح بتبديد سوء التفاهم بينهما. حلّ صمت ثقيل قطعته ميرا بوقوفها فجأة واعتذراها عن مرافقتهما إلى مسبح في جونيه كما اتفقت مع ليلى.

الآن علاقتهما عادية، لكن ليلى تحسّ أن كلمة واحدة تكفي لإشعال خلاف بينهما. الفترة الوحيدة التي نعما فيها بشيء من الهدوء وقبول أحدهما للآخر هي بعد ولادة نادر.

كان كلّ ما يتعلّق براجي مختلفًا عنها، أهله، أخته، رفاقه. هذا الشرخ بين حياتيهما أحسّت به حين تعارف أهلهما. أمّها بدت منهوكة بسيطة

المظهر، وأم راجي في أناقة ثيابها وشعرها المصفّف جلست على طرف الكنبة متأمّلة قماشها الباهت بحذر. تذكر ابتسامتها المفتعلة، وكلامها بفرنسية أربكت والديها. لم يفتها يومها الخجل الذي اعتراهما. زعلت من نفسها فبأي حق ترغمهما على عيش هكذا تجربة.

راجي أزال همّها وهو يعانق أخوتها ويمازحهم. عفويته في الكلام مع والدها خفّفت من ثقل حزنها. تصرّف راجي كأنّه يعرف والدها من سنوات لا من بضعة شهور.

علاقتها بأهله لم تتحسّن بعد الزواج. حياد أهلها قابله تدخّل من أهل راجي في كل ما يتعلّق ببيتهما وأثاثهما، وبات يؤلمها ألّا ينتبه راجي. هل يسمع ما تنتقده أمه أم أنه يدير أذنًا صمّاء. البيت لا يعجبها صغير المساحة. الحي شعبي. لا مصعد في البناية. الأثاث رخيص والأدوات الكهربائية وطنية الصنع. خنقت ردودها في أعماقها وفكّرت أنهما صحيح رفضا أي مساعدة مالية، لكن كان بإمكان أهله اختيار هدية نافعة بدلًا من أواني الفضة التي اختاروها لهما. ماذا يفعلان بهذه الأواني. كانت تقارن بين أمها وأم راجي المرفّهة التي تأتي بمن يقوم بدلًا منها بأعمال البيت وتستيقظ متأخرة، وهي إما عند الحلاق أو في زيارة لواحدة من صديقاتها المتبطلات مثلها.

حين اشتكى راجي من صعوبات مالية يواجهها والده. استغربت حقًا وأجابت إن كان الأمر كذلك فلماذا كل هذا البذخ؟ نظر إليها باستياء جرحها. أيريد منها حقًا أن تتعاطف مع من لم يعرف يومًا ما معنى أن تقف ذليلًا حين تطلب منك الراهبة أمام كل التلاميذ دفع الأقساط. أو عندما لا تجرؤ أن تقول لمعلمة الرياضة إنك بلا حذاء رياضي لأن والدك بلا عمل. إذا كان يمرّ بضائقة مالية فلماذا لا تتوقّف مظاهر البذخ التي يحيطون أنفسهم بها. أفكار تعلّمت ابقاءها دفينة نفسها. راجي المنسلخ عن قوقعة العائلة تحوّل مع السنوات إلى مدافع شرس عنها.

في حين بقيت علاقتها بأهله باردة، اتسمت علاقتها بأخته ميلاني بالعداء. كان راجي يصرّ في أول زواجهما على دعوة أخته إلى سهرات في بيتهما، برفقة أصحابه وكانت بلا أي مواربة تحاول تجاهلها. كأن البيت هو لراجي أخيها وحده. وحين تمرض لا تسمع منها سؤالًا حتى عن حالها. تتذكّر تلك الفترة دون أن تعلم كيف احتملت وجودها شبه الدائم لأكثر من سنتين. أفضل ما في زواج ميلاني أنه أبعدها عن حياتهما. المناسبات القليلة التي يجتمعون فيها لا تذهب ليلى إليها. مع الوقت استعادت قوّتها وباتت ترفض دون أن تتعب نفسها في اختلاق الحجج.

حين أنجبت نادر، تلاشى الغيظ المكبوت في داخلها، نسيت العالم. باتت معلّقة بهذا الصغير وحده. كان راجي مثلها في الشهر الأول يساعدها في تحميمه واطعامه، يستيقظ على بكائه الليلي. يحمله بخوف لدقائق قبل أن يعيده إلى ذراعيها. يفرح بحماس لأول ابتسامة ارتسمت على وجه ابنه.

لكن بعد ذلك استعاد راجي سهراته. قلّما كان يخرج، يفضّل استقبال أصحابه في بيته. كانوا معظمهم حينها غير متزوجين. أما هو فصار أبًا في الثامنة والعشرين من عمره. كان رفاقه الذين يدرسون في الخارج، يعودون صيفًا محمَّلين بقصص عن علاقاتهم الغرامية، عن

رحلات يقومون بها في عطلهم. عن مغامرات يعيشونها. تحسّ ليلى نظرة حزن في عينيه

وتتساءل إن كان يحنّ إلى خفّة حياته السابقة. أما رفاقه الذين تخرّجوا معه في الجامعة فمنهم من بدأ يعدّ لمعرضه الخاص وآخر صار ممثلًا وشارك في مسلسل يُعرض على التلفزيون. منهم من قرّر إكمال تعليمه العالي أو السفر. مع الوقت انشغل معظمهم في الحياة التي يعيشها وابتعد تدريجيًا. واعتادت ليلى أن تسمع راجي يحكي عنهم بشيء من الحسد قائلًا إنهم يجيدون انتهاز الفرص. كانت اللوحات القليلة التي يكرّس

وقته لها من حين لآخر، لا تنال إعجاب مديرة الصالة، رغم ذلك سمحت له أن يعرض بعضها في معرض جماعي لرسّامين شباب ولم يفتها أن تفهمه إنها خدمة له لأنه يتعب كثيرًا في عمله كمساعد لها في الغاليري. اللوحة الوحيدة التي بيعت اشتراها واحد من معارف أهله. قال إن ألوانها والفاكهة فيها تناسب غرفة السفرة. في البدء كانت ليلى تشجّعه وتُعجَب حقًا بلوحاته. اللوحات القليلة التي سبق وشاهدتها كانت تلك التي يريها إياها في الألبومات أو في معارض كان يصحبها إليها قبل زواجهما. تخيّلت أنه سيصيب شهرة في أوساطه وسينال التقدير الذي يستحقه. لذا رغم كلفة تحويل واحدة من الشرفات الملاصقة لغرفة النوم إلى ستديو للرسم، لم تتردّد في الاستدانة من المصرف حيث تعمل. كان الستديو مليئًا بضوء الشمس، الحيطان الزجاجية وأدوات الرسم كانت أغلى مما تصوّرت. مع مرور السنين تحوّل الستديو إلى مستودع للأغراض، كدّست فيه أغراض نادر التي ما عادت تناسب عمره. وتحوّل اهتمام راجي إلى العلاقات التي ينشئها مع الرسامين والنحاتين والزوّار الدائمين للصالة والشراة وجامعي التحف. أحيانًا كان يتحمّس لرسام ناشئ يعكف على زيارتهم والسهر والشرب مع راجي. قد تثمر العلاقة فيقنع مديرة الصالة بتبنّيه وقد لا تفضي إلى شيء. في الحالتين تزول هذه الصداقات وتتحوّل أحيانًا إلى عدواة شرسة، تحاول خلالها ليلى أن تخفّف من غضب راجي فتجاريه في اتهامه صديقه بقلة الوفاء والانتهازية. في الواقع رؤيته هكذا كانت تفطر قلبها. وكانت في أحلام يقظتها تتخيّل طرُقًا لإسعاده.

اهتمامها بنادر في طفولته الأولى لم يعفها من مهامها المعتادة. تستغلّ نومه لتخرج بسرعة وتشتري حوائج البيت واللوازم التي يحتاجها. أو تغسل أواني تجمعت في المجلى أو تكوي الثياب. حساسية نادر الجلدية ألزمتها بغسل كل ثيابه بنفسها متجنّبة كل مساحيق الغسيل. كانت يداها تحمرّان من الماء الساخن ومن الدعك بالصابون. كان يشغل بالها حينها

اضطرارها القريب لتركه في الحضانة. مجرّد الفكرة تستدعي قلقًا لا تجد من يشاركها إياه. كان راجي يقول حين تفاتحه بالأمر إن الحضانات مليئة بأطفال من عمر نادر. فهل أهلهم لا يكترثون بهم. رغم قلة ساعات نومها عجزت عن الإغفاء. كيف تتركه في عهدة غرباء؟ هل سينتبهون له كما تفعل. وماذا يحصل إن التقط جرثومة أو عدوى من الأولاد الآخرين. الأصعب من ذلك كيف ستتحمّل غيابه عنها طوال النهار. تمنّت لو أن أحدًا يرعاه في غيابها. لا تستطيع أن تطلب من أمها التي تعمل ساعات أطول منها. لو أن حماتها تتبرّع من تلقائها بأمر رعايته في غيابها. لم تتخيّل أن أختها يارا ستكون اليد الرحيمة التي ستمتدّ إليها في تلك المرحلة القاسية من حياتها كأم. يارا التي كانت في سنتها الجامعية الثانية، سألت ليلى لماذا لا تبقيه بعهدتها بما أن جامعتها لن تبدأ قبل تشرين الثاني، أربعة أشهر سيتاح له فيها أن يكبر وأن تقوى مناعته. غصّت بالكلمات ولم تعلم كيف تشكر أختها. لم يخطر ببالها لحظة أن تستعين بها. ربّما لأنها بنظرها الأخت الصغرى.

هكذا اعتادت ليلى وجود أختها بجوارها، وتعرّفت إليها وقد أصبحت كبيرة. مختلفة عن الفتاة الصغيرة الخجولة. كانت معلومات يارا الطبية واسعة بسبب دراستها العلوم الطبيعية وبسبب ما اكتسبته من أمها. لا تربكها حرارة نادر حين ترتفع فجأة، ولا تسارع للاتصال بليلى متى أصابه اسهال. كانت أكثر هدوءًا وأقل توترًا من ليلى في معالجة الحالات المستجدّة. وحين تعجز عن ايجاد حلّ تسأل والدتها. كانت يارا فتاة باطنية، لم تستطع ليلى أبدًا أن تحزر مشاعرها تجاه راجي. حين تسمعها تقول له لماذا لا يساعد قليلًا ويجلي الصحون وأكواب السهرة التي استخدمها مع أصحابه؟ ترتبك ليلى وتتمنّى في دخيلتها ألّا تخاطبه يارا بهذه اللهجة. لم يخطر ببالها مرة أن على راجي مشاركتها هذه

المهام. كانت تبرّر الأمر على أنه بخلافها لم يُدرَّب في صغره على القيام بالأعمال المنزلية. لا هو ولا أخته.

بعد انجابها كان ارسال أمها له لشراء أغراض للبيت أو حفاضات لنادر يسرّع في نهوضها من السرير. تحاملت على نفسها متجاهلة ألم العملية التي خضعت لها. أرادت أن تعود أمها إلى بيتها. فكيف تطلب منها ألّا تخاطب راجي على هذا النحو. سمعتها تسأله كيف يختار بندوره شبه مهترئة، وحين أجاب إنه لم يفعل بل البائع من اختارها، سخرت منه متسائلة كيف يترك البائع يختارها. عاتبته على شراء حفاضات لمن بلغ شهره السادس، لا الأسبوع الأول. سألته «ألم تقرأ ما كُتب عليها؟». تأمره بشكل طبيعي ألّا يدخن داخل البيت. أو تناديه لتسأله عن مكان المكنسة الكهربائية أو بعض الأواني التي تحتاجها. تستغرب جهله وتفكّر أن زوجها رغم قلة تدبيره في البيت يساعدها أحيانًا في تنظيف السجاد وتوضيبه، وفي تقشير البطاطا والخضار، كما إنه يشتري أغراض البيت بكاملها.

كان راجي يبقى في حالة من التذمّر والانزعاج. لم تعلم كيف تعجّل قيامها من السرير. لا يخفّ شعوره بأنه محاصَر إلّا حين يأتي صديقه المقرّب آنذاك بطرس. كان صديقه منذ أيام المدرسة. لكنه منذ التخرج لم يجد عملًا ثابتًا. يأتي كل ليلة للسهر عندهم، حين يسكر يصبح حزينًا ومتشائمًا. تتباطأ كلماته، كأنه يلوكها قبل أن ينطق بها مشوَّهة وغير مفهومة. يحكي عن محاولاته الفاشلة في الهجرة. يسبّ البلد والوساطات. ما ضاعف من سوء مزاجه آنذاك هو أن حبيبته تخلّت عنه بعد سنوات من الحب. لكثرة ما حكى عن الأمر أسمته ليلى «بطرس ماريانا». ظلّ شهورًا يبتئس كلما بالغ في الشرب. حديثه الوحيد عن حبيبته الغادرة. حتى سألاه إن كان يراقبها. وإلّا كيف يعلم من هم أصدقاؤها وما هي مشاريعها بدقة، وبرفقة من ذهبت للسباحة أو السهر في نايت كلوب.

كان يطيل السهر فتضطر ّليلى إلى الاستئذان والنوم. لم تسأل راجي كيف يحتمل النوم القليل. صحيح أن عمله لا يبدأ قبل العاشرة لكن رغم ذلك كانت تخاف عليه من وتيرة السهر والشرب. كان نومه شبيهًا بالإغماء، لا يوقظه بكاء نادر ولا صراخه حين تنتابه نوبات المغص أو المرض. لم يكن الخجل هو ما يمنعها من ابداء الانزعاج من السهرات الدائمة في بيتهما، بل حبّها لراجي. تكتم في داخلها أشياء لا حصر لها، كانت تزداد يومًا بعد آخر.

حين حصل بطرس على الهجرة إلى أستراليا ظنّت ليلى أن بعض الأماسي ستخلو لهما أخيرًا، لكن راجي كان موهوبًا في إقامة علاقات تتوطّد بسرعة تدهش ليلى. لا مشكلة لديه في التعرّف إلى الناس ودعوتهم ببساطة للسهر في بيته، متغاضيًا عن التكاليف التي تفوق طاقتهما، هذا عدا تعب ليلى الجسدي ووقوفها في المطبخ لساعات.

حين مكثت يارا عندهم خمسة شهور، وساعدت أختها في كل شيء، لم تحسّ أنها مضطرة لمراعاة راجي. ليس زوجها ولا حبيبها. كما أن طبيعتها الصريحة دفعتها إلى توجيه ملاحظات جارحة أحيانًا. تسأله ألم يلحظ امتلاء المنافض، ألم يسمع بكاء نادر؟ لماذا لا ينهض بنفسه لجلب الأكواب وقطع الثلج. أو تأمره ببساطة أن يقشّر الجزر والبطاطا أو تناديه ليعصر الحامض. تسارع ليلى حينها إلى القيام بهذه المهام، فيعود إلى جلوسه. كان يحمل دائمًا دفترًا صغيرًا يرسم فيه بقلم الرصاص. حتى حين هجر مرسمه بقيت لديه هذه العادة. في تلك الدفاتر، وجوه كثيرة غابت أسماؤها الآن عن بال ليلى، خاصة العابرة منها. رفاق سهرات قليلة. ما يحزنها أنها لم تجد لها رسمًا في أي منها. الرسم الوحيد لا يشبهها تمامًا يعود إلى أول تعارفهما. فلا عيناها مشروحتان ولا عنقها بهذا الطول. حتى النظرة المليئة بغواية فاضحة لا تظنّها نظرتها.

نادر ورث عن أبيه موهبة الرسم، لكن في أول مراهقته، توقّف فجأة

عن الاشتراك بمعارض المدرسة وبمسابقات بين المدارس، وحين تسأله معلمة الفنون وتلحّ عليه كان يقول إنه ما عاد يحبّ الرسم وليس ماهرًا كما تظنّ.

لا تدري أيرفض نادر واعيًا كل شيء يأتيه من والده أم هي مجرّد تخيّلات في نفسها. ربّما تبالغ في التحليل. المشكلة أن راجي لا يفعل شيئًا لاستيعاب نادر. ينفعل لأجوبته التي يصفها بالوقحة. وكلّما تدخّلت بينهما نالها جزء من صراخ راجي وقسوته.

منذ أكثر من أسبوع تصل إلى عملها عند السابعة. هكذا ستنسى هي قول مديرها إنها غابت لأكثر من ثلاث ساعات ونصف في مشوارها إلى مدرسة نادر. من تجربتها تعلم أن الخطأ يلاحظه الجميع. أما أن تعمل إلى ما بعد الدوام أو أن تصل مبكّرة فأشياء لا ينتبهون لها. رغم التعب في عملها تجد أنها أوفر حظًا من كثيرين. فراجي لم يحصل على أية علاوات في السنوات العشر الأخيرة. راتبها أعلى من رواتب أصدقائها الذين يعملون في التدريس، كما أن البونس الذي تنتظره في آخر كل سنة يسدّد قسمًا كبيرًا من ديونهم.

الوصول باكرًا أقل تعقيدًا مما تخيّلت. الطرقات لا تكون مزدحمة. وحده نادر من ينزعج من الاستيقاظ أبكر من العادة. يسألها مغتاظًا عمّا سيفعله في وصوله باكرًا هكذا. ثم يعيد السمّاعات إلى أذنيه دون أن تصله كلماتها. يحرّك أصابعه بسرعة فائقة على المفاتيح. تعتم وتضيء شاشة هاتفه بالسرعة ذاتها. كانت أكثر حزمًا في تربيته عندما كان صغيرًا، كان ينام عند السابعة والنصف، ما كانت تسمح له بمجالسة الضيوف، ولا بمشاهدة التلفزيون. فقط الرسوم المتحركة. لذا أدمن منذ صغره قراءة المجلات المصوّرة والكتب. عوّدته أيضًا منذ كان طفلًا على سماع الموسيقى. ينام على وقع ألحانها. فعلت ذلك لا رغبة في تعويده عليها بل كي لا تصله أصوات الضيوف الذين كلما طال بهم السهر زاد صخبهم.

لكن ما إن تجاوز العاشرة حتى صار يعاند القوانين التي نشأ عليها. وقت نومه بات مرهونًا بحجم الدروس والفروض، أو فقط برغبته في السهر.

شجاره مع راجي كان دائمًا. نظرة غضب يرمق بها والده حتى حين يمازحه. كأنهما عدوّان لدودان. ما عادت تذكّر نادر بألعابه مع والده وكيف كانا يتصارعان ويتحدّيان بعضهما في الركض والسباحة والرسم. وكيف كان يقول إنه حين يكبر يريد أن يكون مثل والده. لا تفعل كي لا تسمع أيًا من أجوبته. رغم التغيّر الذي طرأ على شخصيته وهو يكبر بقي مختلفًا عن الأولاد من عمره. لم يطالب يومًا بثياب جديدة أو بأحذية من ماركات رائجة، حتى هاتفه حصل عليه حين بلغ الثالثة عشرة. لم يهتمّ أن يقتني واحدًا مع أن كل رفاقه يملكون هاتفًا قبله بسنوات. قبل ذلك كان يسمع الموسيقى على جهاز أيبود قديم كان لخالته يارا. لم يبال أيضًا بسخرية رفاقه في المدرسة من الأيبود الذي يحمله. كانوا يضحكون مطالبين بلمسه كأنّه تحفة من عصر بائد.

تجبره على مرافقتها حين يحتاج إلى شراء ثياب. إلى أن اكتشفت أنّ لا مانع لديه من أن تختارها بنفسها. انتظرت أن يطالب بموديل هاتف أحدث بدلًا من القديم الذي يملكه. لكنه لم يفعل. ما تسمعه عمن في مثل عمره لا ينطبق عليه. مقارنتها إياه بالآخرين سببها زملاؤها. يحكون عن طلبات أولادهم التي ترهقهم، تلفونات جديدة مصروف كبير. السهر في نايت كلوب مع رفاقهم.

اختلافه عمن هم في عمره مصدر افتخار لها، لكنه في الوقت نفسه يقلقها. إن سمعت على الراديو أو قرأت عن نزعة الانتحار لدى المراهقين تخيّلت أن كل الاشارات موجودة عند ابنها، تراقبه لأيام مذعورة. كل ما تسمعه أو تقرأه عن المراهقين يصيبها بأرق ولا تجد سبيلًا لتهدئة نفسها. الانطواء، الشيزوفرانيا، المخدّرات أقراص الهلوسة. لا تستطيع أن تسأل

راجي، سيضحك منها ويسخر من قلة عقلها. يارا أولادها صغار. من تسأل. الأحاديث مع زملائها تدور حول الطقس والعطل ومناسبات الزواج والانجاب وغيرها.

ما إن تألفهم حتى يتمّ نقلهم إلى مراكز وفروع أخرى. هي نفسها تنقّلت بين أربعة فروع قبل أن تستقرّ في قسم الإدراة في فرع السوديكو. الانتقال الأوّل كان الأصعب، بعد ذلك اعتادت تبديل نوع عملها ومركزه. ما تجده صعبًا هو التعامل مع زملاء كبروا في السن. خاصة إن كانوا في قسمها. يعاندون التطوّر السريع ويتشبثون بآراء يتضح أنها مغلوطة. حجتهم الخبرة الطويلة. جملة واحدة تتكرّر على ألسنتهم «كنا ننجز هذه المعاملة بطريقة أفضل»، ولسوء حظها كان مثل هؤلاء كثرًا في قسمها. مع الوقت صارت تشبههم. هي أيضًا تضيق ذرعًا بالموظفين الصغار الذين تدرّبهم، وتنكر في داخلها أنها كانت مثلهم.

في سنتها الرابعة دفع المصرف تكاليف إكمالها الماجيستير في اليسوعية. كانت تلك الشهادة بداية لترقيتها. وتغلّبت على إحساسها بالدونية. رغم سرعة بداهتها في العمل كانت تحسّ أنه يُساء تقديرها لأنها خريجة الجامعة اللبنانية. خمسة موظفين من زملائها تابعوا معها تلك الدروس المسائية. كثيرًا ما كان النعاس يستولي عليها، لكنها أجبرت نفسها على المثابرة. أفرحها أن تحلّ في المرتبة الأولى بمعدل تجاوز السبع عشرة علامة من عشرين. حتى راجي تفاخر بشطارتها أمام أهله ورفاقه غير آبه بتحرجّها من هذا الفخر. كانت فترة صعبة خاصة شتاء. تغادر البيت باكرًا لتعود بعد التاسعة. اكثر ما كان يؤلمها هو ذلك الحرمان من رؤية نادر. ما إن تصل حتى تنام قربه تقبّل رأسه ويديه المستديرتين. تستمع إلى انتظام أنفاسه وترقب شبح ابتسامة ترسمها أحلامه الوردية على وجهه البيضاوي.

ساعدها والدها خلال تلك الفترة. بما أنه كان بلا عمل، صار ينتظر

عودة نادر. يطعمه ويحمّمه ويلبسه منامته. يلعب معه ألعابًا نشأ هو عليها. كانت الأناشيد الغريبة التي يردّدها نادر تضحكها. هي نفسها لم تسمع بها «يا ولاد الكوشة عنا جاروشة..» تأثّرت بما فعله والدها، لأنها لا تذكر أنه فعل مع أخوتها الصغار ما يفعله مع نادر، كان أبًا حنونًا كثير المخاوف عكس والدتها التي أكسبتها مهنتها شجاعة ورباطة جأش في المواقف الصعبة. لكنه لم يكن يشارك في اطعامهم أو الاهتمام بهم. يحبّ أن يعلّمهم تفكيك راديو قديم أو إصلاح آلات معطّلة، حتى ليلى علّمها تفكيك المغسلة المسدودة وصنع مكبّر للصوت. وقد أفادها ذلك في بيتها ووفّر عليها دفع أموال لا تملكها أصلًا. هي تصلح ما سدّ من أنابيب المجلى وتبدّل أقفال الأبواب. على خلافها لا يجيد راجي هذه الأعمال. كان يضحك حين يراها منصرفة إلى هذه الاصلاحات.

العمل يلهيها لكنّه لا يلغي ما يقلقها. في أعماقها تعلم أنها ليست بالقوة التي يتصوّرها الآخرون. لم تكن قرب ميرا كما كان يفترض بها، لأنها تحسّ أنها أكثر بؤسًا منها. لن تنفعها في شيء ولن تلغي كلماتها لا وحدة ميرا ولا الحرقة التي تكويها.

ماذا يرى الآخرون حين ينظرون إليها. صحيح أنها لا تجيد البوح، لكن كيف لا يحزر أي من أصدقائها أو أهلها شيئًا. كانها تطلق نداء استغاثة دون أن يسمعه أحد. ربما يارا، رغم غياب أي حديث صريح بينهما.

في العطل الأسبوعية حين تأتي لتصحبها في مشوار بالسيارة، مع ابنتها وابنها تبقى ليلى صامتة تتأمّل الطريق وتفرح حين يخرجون من بيروت وتطلّ برؤوسها تلال خضراء وبيوت متفرقة. تنظر يارا متفحّصة أختها كأنها تنتظر فيها نقصانًا ما بين مشوار وآخر. تتظاهر ليلى بعدم الانتباه. تحسّ بنفسها محبوسة في ظلمة لا تجد منها منفذًا. الكلمات تعلق وتعاند أن تخرج. يارا كالعادة لا تطرح أسئلة. في ما سبق كان نادر

يرافقهم في مشوارهم، يحب ملاعبة ابني خالته وهو قريب من خالته يارا منذ كان طفلًا. مؤخرًا بات يبقى عندها في الحازمية كلما كان لديه عطلة طويلة. يريحها أن يبتعد عن البيت. كانت تشجّعه على دعوة رفاق المدرسة للغداء عنده أو لقضاء يوم برفقته. لكنه منذ المرحلة المتوسطة ما عاد قريبًا من أي رفيق. زادت الهوّة بينه وبين من كان يعتبرهم أصدقاءه.

يلحّ نادر على المطالبة بالعودة وحده إلى البيت بسيارة أجرة بدلًا من البقاء في المدرسة. ينتظر أمه لساعتين أحيانًا. يجلس في البهو الكبير وينجز فروضه منصتًا إلى أصوات التلاميذ الصارخين بحماس لتسجيلهم هدفًا. تتعالى صفّارة المدرّب وتقاطع استغراقه في حلّ المسائل الرياضية. الرياضيات هي المادة الوحيدة التي يدرسها وهو ينتظر، تنسيه الوقت وعصبية الانتظار في مكان يمقته. لا أحد يسأله ما يفعله. حتى الناظر يظنّه أسوة بالتلاميذ مسجّلًا في واحد من الأنشطة الرياضية أو المسرحية. شتاء تحلّ العتمة وهو جالس، وحين ينظر من الواجهة الزجاجية مترقّبًا يحسّ أنه شخصية في تلك الرواية التي أحبّها.

صار راجي يعود إلى البيت قبلها، وحين تسأله أليس لديه عمل؟ يرفع يده في حركة تشير إلى عدم رغبته في الكلام. تعلم أن هناك مشاكل بينه وبين مديرته. لا تستغرب أن يخسر عمله. لا لأنه يصل إليه متأخرًا، بل لأنه ينسى الاتصالات التي عليه اجراؤها، يهمل تجهيز الدعوات، يرجئ القيام بمهامه وينساها. لم ينفع أن تنصحه بأن يبدّل سلوكه. زعل منها كأنها هي مديرته، وقال إنها لا تعلم الذل الذي يتحمّله من أجل هذا المعاش. تحوّل إلى خادم لأناس أقل منه موهبة بكثير، يعامل كالسكرتير. ضجر من الأغبياء. لا تُذكّره أن حياتهما صعبة أصلًا، ما الذي سيحصل لهم إن عاشوا براتب واحد.

ترمق قنينة الويسكي التي فرغ أكثر من نصفها. أبخرة الكحول تفوح من أنفاسه. تخفض عينيها إلى السيجارة التي تواصل احتراقها في

المنفضة. تعلم أن عليها أن تقلّل من وجودها وان تتلاشى في واحدة من الغرف بعيدًا عنه. لكنها لا تستطيع. تنظر بحزن إلى الجيوب السوداء تحت عينيه. لشدة تورّم جفنيه تستطيع أن ترى مسام كل شعرة في رموشه. حدقتا عينيه مخفيتان خلف غشاء ضبابي. تتذكّر الوعود الكثيرة التي قالها على مرّ السنوات. الرسائل القصيرة المليئة باعتذارات على أشياء فعلها أو قالها دون وعي. بدلًا من أن تزعل كان الخوف عليه هو ما يحرمها من الاغفاء أو من الاستمتاع بأي شيء.

الخوف زاد حين تطوّرت شجارات ابنها وزوجها. إن ردّ نادر بكلمة أو ابتسامة ساخرة، يفقد راجي السيطرة على أعصابه. يتطاير الشرر من عينيه كأنّ نادر ليس ابنه بل ألدّ أعدائه. حين ضربه مرّة أصابها نوع من المرض، ألم في معدتها جعلها تتقيّأ حتى الماء. صحيح أنها تلقّت كل الضربات وهي تفصل بينهما لكن الحادثة كانت مرعبة بالنسبة إليها. كلما استعادتها عاودها المرض والوهن. لشدة الندم الذي أبداه والدموع التي ذرفها بحرقة، ظنّت أن يده لن تُرفع ثانية بوجه نادر. فهما لم يربياه هكذا. لكن الحادثة كانت بداية لسلسلة من شجارات عنيفة.

كانت يارا هي الملاذ الذي يهرب إليه نادر. متمنيًا لو يبقى عندها. تدعه لحاله حين تجده جالسًا على الشرفة صامتًا. لكن ابنيها ينتشلانه دون أن يدريا من عتمة أفكاره. يصرّان عليه كي يشاركهما ألعابهما الألكترونية. كان يحبّ أيضًا زوج خالته، تضحكه تعليقاته الدائمة. أحيانًا يرافقه في رياضة المشي في عطل نهاية الأسبوع، ويعجب من قدرته على الهرولة طوال ساعة ونصف دون أن يتعب. في حين يتوقّف هو في منتصف الطريق.

لولا ما تخبره إياه أمه لما استعاد تلك الذكريات الغائمة عن السباحة مع والده. يصدّق حين تصرّ على أن والده من علّمه أن يعوم. تريه الصور كما يفعل الناس لتأكيد حضور غائب عن حياتهم. عندها فقط يذكر

جلوسه على الرمل ورائحة البيرة وطعم البطاطا المقلية التي كان يطالب بأكلها في كل مشوار. يذكر مرافقته لأبيه إلى بيت جدَّيه. جدته التي تظلّ طوال مكوثه عندها تمطره بملاحظات حول طريقة الجلوس والردّ والأكل بشكل صحيح.

يذكر أيضًا وجه والده الضاحك من كلماته أو ردوده. لكنها صور بعيدة. ما يبقى الآن هو أشياء يرغب في محوها. لو أنه تلميذ في مدرسة داخلية كأولئك الذين يقرأ عنهم في الكتب. لن يشكو مثلهم من الوحدة والطعام السيئ ولا من تسلّط الأكبر سنًّا عليهم. يحسّ أن غضبًا يملأه على الدوام، من كل شيء حتى من أمه. ما يقلقه هو اقتراب العطلة الصيفية.

في أسبوع واحد وجدت راجي قد عاد ثلاث مرات قبلها إلى البيت. تقوّي نفسها لتعاود فتح موضوع العمل. لا تدري كيف لا يحمل همّ المال وتكاليف العيش. المشروب والتدخين وحدهما يستهلكان معظم راتبه. صحيح أن العشاءات ودعواته للآخرين للسهر خفّت لكن ذلك لم يدفعه إلى التقليل من الشرب.

صار حديثه مرًّا. شعور دائم بأن الحياة ظلمته. أو أن الآخرين يتآمرون عليه. هكذا رأت على مدار السنوات أقرب الأصدقاء يتحوّل في عينيه إلى عدو.

تعلمّت أن مجاراته في أفكاره لا تنفعه، حاولت سابقًا أن تعقّله أو أن تجد مبررات لمن يلومهم. ردود فعله أخافتها. لا تزال كلماته تحفر عميقًا في نفسها.

صار كأنه لا يراها. لا يلحظ قصّها لشعرها الطويل. لا ينتبه لمرضها أو لثياب جديدة تلبسها. حتى عندما خسرت الكثير من الوزن بسبب التهاب في معدتها، لم يقل كلمة. طوال ثلاثة أيام كانت تتقيأ وتتألّم وحدها. تذكر أن الألم ليس أقسى ما عانته بل الاحساس أنها وحيدة في عالم لا يكترث لها ولا يراها. وحده نادر كان يتفقّدها وهي مستلقية، اتصل بجدته دون

موافقتها. حين جاءت يومها بكت ليلى وتمنّت أن تعود صغيرة، لتجد من يخاف عليها ويحمل بدلًا منها كل هذه الأعباء.

في لحظات صحوه، تتجرّأ على مصارحته بقلقها عليه، تذكّره بما قاله الطبيب عن انسداد واحد من الشرايين. يعدها كأنّه استعاد وجهه القديم الذي تعرفه. تصدّق في كلّ مرة، وتؤمن بعزيمته. لا يلزم إلّا ساعات حتى يتلاشى كل أمل. لا تيأس من المحاولة. حتى حين يرميها بكلمات تُمرِضها. يصفها بالمادية، يقول إنه صبر عليها طويلًا. تشبه كل الناس التافهين. لم تفهمه يومًا. لا يهمّها إلّا المظاهر والمال. وحين تغلبها دموعها وهي تردّ عليه. يقول «البكاء، الشيء الوحيد الذي تبرعين فيه». إن رجته أن يخفض صوته حرصًا على ألّا يسمعهما نادر. يرفعه أكثر. تسكت حينها خوفًا عليه. وجهه يحتقن بالدماء وتنفر العروق في رقبته وترتعش يداه كأنه سيصاب بذبحة صدرية. تنسحب إلى السرير. تنام في أقصى طرفه. حين يأتي متأخرًا للنوم تتظاهر بالاغفاء رغم علمها إنه لن ينتبه لا لدموعها ولا لأرقها. ثم تنهض ما إن يتعالى شخيره. تجلس في عتمة المطبخ قبالة النافذة. تنظر إلى الأنوار توجّ كالنجوم في الأبراج العالية. تتخيّل أنها في أعلى البرج وتسقط وتتحرّر من ثقلها.

في اليوم التالي إن تذكّر ما حصل ليلًا، يتّصل بها في عملها، يعتذر مبديًا أسفًا وندمًا صادقًا. أو يترك لها قصاصة كتب عليها، أو رسم شيئًا. تعجب من السهولة التي تصدّقه فيها.

عندما اتصلت بها ندى لتسألها إن كانت متفرغّة كي يلتقوا في حريصا. لم تتردّد في القبول. آخر مرة خرجوا فيها سويًا كانت منذ أكثر من شهرين. قالت ندى إنها ستمرّ بها لاصطحابها. لم تسألها من سيحضر. في العادة تخصّص السبت لأعمال البيت المهملة ولشراء معظم الأغراض. خطّطت لزيارة أهلها أيضًا لتطمئن على والدها. يارا أخبرتها عن وقعته على الدرج وانكسار واحد من أضلعه. أمها توفّر عليها هذه الأخبار وحين تعاتبها تجيب أن الأمر غير خطير.

ذهاب نادر عند خالته، جعل مكوثها في البيت مثيرًا للكآبة. كالعادة حملت همّ تكلفة المشوار. لا تذكر متى كانت آخر مرة حكت فيها مع أي من أصدقائها. فيما مضى كانت تراهم في السهرات في بيتها. كانوا يحبّون راجي ويجدونه مسليًا. تضحكهم آراؤه في السياسة، ويجذبهم بخروجه عن المألوف المعتاد. لم يكن أي منهم قد تزوج. تذكر سهرات رأس السنة، في الصور تبدو سعيدة ولا تشبه المرأة التي هي عليه الآن. راجي أيضًا تغيّر. شعره الكثيف الطويل صار أشيب بمعظمه، قامته الطويلة انحنت وظهر له كرش، البريق في عينيه انطفأ كأنّ لا نور يتخلّلهما.

كان المقهى الذي التقوا فيه يقع عند طرف حرش صنوبر. رائحة الصمغ ملأت صدرها. صوت الجنادب أعلى من أصوات رواد المقهى القلائل. نساء في مثل أعمارهن لا بل أكبر يقمن بخدمة الزبائن. لم تلحظ وجود رجل واحد باستثناء ايلي الجالس إلى الطاولة ناظرًا إليهما كأنه لم يتعرّف إليهما عن بعد. حين اقتربت انتبهت إلى أنه لا ينظر نحوهما بل نظرته شاردة في شيء لم تحزره. وجوده فاجأها. خاصة أنه أتى وحيدًا دون زوجته. في العادة لا يفترقان. كان هناك سارة وراغدة. لا تشعر ليلى بالراحة في وجود راغدة قريبة ندى. لا لشيء في شخصيتها بل لأن كل ما فيها يذكّرها بعالم لا تنتمي إليه. ضحكها سفرياتها، اهتمامها بثيابها وزينتها. كلامها عن الطعام الصحّي، صحيح أنها أخصائية تغذية لكن هوسها بذكر الوحدات الحرارية في كل شيء يفقد ليلى صبرها. تفكّر أنها من كوكب آخر. تلوذ بالصمت في حضورها، متجنّبة عبارات حادة وعدائية تقولها دون انتباه أو مداراة. غياب ميرا أحزنها. أرادت حقًا لو تأتي، في سرّها كثيرًا ما تحدثها دون تردّد أو كلفة أو أي من المحاذير التي أثقلت عليها مع مرور السنوات. لكن ميرا قلّما تردّ على الاتصالات وحين تفعل تحكي في العموميات. لا تعلم ليلى إن كانت ميرا ستقبل فعلًا عرض العمل في أبو ظبي. أم أن حزنها يدفع بها إلى الابتعاد.

حين تسأل ايلي عن زوجته، تعضّ سارة على شفتها لإفهامها بأن تسكت. لم تكن بحاجة لأن تقدّر سبب خلافهما. كلام الناس والأهل نخرهما كالسوس. لكن عجبها من مجيئه لم يزُل. ميرا أقرب صديقاته ليست هنا. من أخبره عن المشوار؟ ربّما سارة. الكل يستسهل اللجوء إليها. لديها قدرة على الانصات والتعاطف تثير عجب ليلى. كل مشاكل الذين حولها تصير كأنها مشاكلها. ينسونها وهي لا تزال مشغولة بها والتفكير بحلول لها.

سألت راغدة عمن دلّهم على هذا المقهى البدائي وهي تنظر إلى أرضيته الباطون. إلى طاولات البلاستيك. إلى الذباب يحوم حول أكواب الماء. اعترضت سارة قائلة إنه مكان لطيف حوله طبيعة على الأقل، ندى التي لم تنزعج كونها هي من اختاره، حكت عن الجمعية التي تديره. جمعية من النساء تهتمّ بمساعدة عدد من العائلات المعوزة.

- نساء فقط؟ سأل ايلي.

- لا أكيد هناك فتيان لكنّهم يهتمّون بمسائل أخرى، كجمع التبرّعات وشراء الكتب وتوزيعها في بدء العام الدراسي. لكنّك محقّ الاغلبية نساء. تجيب ندى بينما تنادي واحدة من النادلات باسمها.

الهواء بارد هنا. عصافير دوري تقترب غير خائفة. تنظر إلى الجزر والفستق ولا تجد ليلى ما تفتّه لها. يحملها رأسها بعيدًا. تتساءل عمّا يفعله راجي، منذ جاءت مديرة الغاليري بموظف جديد وهو يعتبر وجوده تهديدًا لوظيفته واستخفافًا به. يبدأ بالشكوى فيما تفرغ ليلى الأكياس وترمي حقيبة يدها عند أقرب مقعد. الكأس في يد والسيجارة في الأخرى، يقول إن الموظّف الجديد لا يفهم شيئًا بالفن. عمله فقط حصر النفقات. يضع العراقيل في وجه كل أفكاره، مدَّعيًا أن هذا الرسام لا يبيع وذاك لا يعجب الشراة برسومه الصادمة. والنحّات غير معروف وفجّ. مواده غريبة وغير مألوفة.

درس الاقتصاد، يقولها باحتقار، مكانه في مصرف أو مصنع.

تذكر استخفافه بحياتها المنصرفة إلى الأرقام وتساؤله كيف تحتمل نفسها وهي لا ترى سواها على مدار يومها. لا تقنعه بالطبع حين تؤكّد له إنه ليس عالمًا جامدًا كما يعتقد. مؤخرًا عندما يغضب منها يقول إنه لا يتوقّع منها أن تفهمه فليس في قلبها إلّا دفاتر حسابات.

هي فعلًا تحسب كل شيء، لكنه ينسى أنه يدفعها إلى العيش في هذه الدوامة. لا تهوى هكذا عيش. تريد أن تكون كمن حولها. لا ترتجف يدها عندما يُطلب منها المشاركة في هدايا الزواج والانجاب في العمل، ولا تحرم نفسها من مشاوير البحر كي يتمكّن نادر من ارتياد المسابح. تريد أن تذهب لشراء ثياب جديدة لها لا أن تلبس ثياب يارا القديمة. وأن تهدي أمها ووالدها أشياء حرما نفسيهما منها طوال حياتهما. تحلم أن تضع رأسًا خفيفًا على وسادتها، بلا كوابيس تهبّ منها باكية وخائفة.

تفاجئها راغده بسؤالها عن الريجيم الذي اتبعته لتخسر وزنًا زائدًا. تردّ ليلى بتهكمها المعتاد إنه سرّي لا تستطيع أن تخبر به أحدًا. أتظنّها بلهاء لتجاملها كما تفعل مع الجميع. يضحكون فتنظر راغده إليها بلؤم وتعالٍ وتوجّه اهتمامها إلى ندى قريبتها، وتحكي عن سفرتها الأخيرة إلى المغرب. تقول إنها سافرت رغمًا عنها مع أصحابها فلم يخطر لها أن دولة عربية يمكن أن تكون رائعة هكذا. مدّت يدها لتظهر كل خواتم الفضة المرصّعة بالأحجار. حكت عن أثمانها الرخيصة وعن الشالات الرائعة التي اشترتها.

تبقى راغدة شخصية عصيّة على الفهم بالنسبة إليها. تمثّل فئة من الناس لم تعرفها يومًا، ولا تدري كيف تحتمل وجودها. تتجنّبها قدر الامكان وقد يمرّ عام أو أكثر دون أن تراها، ما كان يحيّرها هو صداقتها لميرا. كأنه يكفي ان تتشاركا العزوبية كي تتقاربا كما فعلتا في الماضي. المعاناة التي عاشتها راغدة لم تحوّلها إلى شخص أفضل بالنسبة إلى ليلى. أول

مرّة علمت بأنها بقيت مُقعدة لوقت طويل بعد تعرّضها لحادث سير مع أهلها، ظنّت أن صفات أخرى ستكتشفها فيها مع الوقت. فكثيرًا ما حكت ندى عن تلك الفترة المظلمة في طفولة راغدة. لم تكن مُقعدة ومُبعَدة عن اللعب ووحيدة دون رفاق فقط، بل كان عليها أن تحتمل سخرية الأولاد من سمنتها ومن تأتأتها. هذه السخرية وهذا الاقصاء كانا أصعب عليها من العمليات المتتالية التي أُخضعت لها.

تشرب جرعة من البيرة المثلجة. في البيت أقلعت عن مشاركة راجي الشرب، كانت نيتها تشجيعه على التخفيف منه كما وعد. لكن في المحصلة امتنعت وحدها وحرمت نفسها مما كان يجعل نومها أسهل.

كانوا يستغرقون بهواتفهم فيسود الصمت، حين ينتبهون يرفعون رؤوسهم كأنهم استيقظوا من سبات. يختلقون الأحاديث ويسترسلون في ضحك مصطنع.

ليلى التي كانت آخر من حصل على هاتف بينهم. بقي بالنسبة إليها الوسيلة الغريبة. لذا كثيرًا ما تنساه في البيت أو تطفئه دون تذكّر تشغيله.

حكت ساره كيف أرادوا أن يبتعدوا عن بيروت في هذا الصيف وحين فتّشت عن بيوت للإيجار صدمتها البدلات المطلوبة. حتى البيوت المتواضعة وفي قرى لم يسمع أحد باسمها غالية. كانت كلما توغّلت في الكلام يبين استياؤها، وينفر شريان ثخين في جبهتها، خاصة حين تحكي عن الضجيج والاحتفالات الدائمة في حيّهم. قالت إنهم لا ينامون بسبب الملاهي التي لا تقفل قبل الفجر. واحتفالات السكارى وصراخهم وسط الأحياء غير مبالين بالنيام، هذا عدا تكسير القناني الزجاجية. كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة كأن المشاهد تحصل الآن أمام عينيها.

مع كل جرعة كانت البيرة تسخن، لكن رأس ليلى بدأ يدور. للحظات نسيت كل شيء وضاعت وسط النسمات المحمَّلة بروائح التراب

والأعشاب البرية. تسمّعت إلى طقطقة الصحون والشوك مختلطة بأحاديث رفاقها وعواء كلب بعيد.

في طريق العودة، لم تجد القوة للحديث مع ندى. كانت ندى تحاول أن تحكي شيئًا عن ابنتها لينا، لكن عندما انتبهت إلى عدم إصغاء ليلى شغّلت الراديو ولزمتا الصمت طوال أكثر من ساعة. النسمات العليلة اختفت في زحمة الساحل، وعاد الضجيج.

كانت ليلى تنظر باستغراب إلى وجهها في المرآة الأمامية. هل تتبدل من يوم لآخر؟ صباحًا تسرّح شعرها جالسة في السيارة، لا تحبّ أن تواجه نفسها. تعلم غيبًا العمر الذي بكّر زاحفًا نحو عينيها الذابلتين وملامحها الحادّة. في العمل تتأمّل زميلات لها من عمرها سواء كنّ متزوجات أم لا، وتعلم أنها تبدو أكبر منهن بكثير. تحسّ بالرهبة كلما اقتربت السيارة من البيت. طلبت من ندى أن توصلها إلى أمام السوبرماركت لا إلى البيت.

السوبرماركت مليء بعائلات جاءت للتسوّق. أولاد يجرّون العربات متراكضين يصطدمون بالزبائن، كأنّهم في حلبة تزلج. خرجت دون أن تشتري قنينة ويسكي.

كثيرًا ما كانت تضطرّ للخروج ليلًا لشراء قنينة. اعتاد راجي أنها هي من يتكفّل بهذه المسائل. لا يخطر له إطلاقًا أن يعرض عليها المساعدة. حتى عندما كان نادر طفلًا.

ساعدها في الشهر الأول، وبعدها لا شيء. لا تذكر أنه ساعدها في إطعامه أو تغيير حفاضه. لم يستيقظ على بكائه الليلي ولم يرافقها إلى عيادة الطبيب. لم يصحبه إلى الحضانة ولا إلى الحفلات التي كان يُدعى إليها صغيرًا. تذكر جلوسها مرغمة برفقة أمهات وآباء لا تعرفهم تتبادل معهم أحاديث عن التهاب اللوزتين واللقاحات والأشياء الذكية التي يقوم بها أولادهم والمدارس التي سيسجّلونهم فيها. وحين كبر لم يذهب إلى أي من اجتماعات الأهل. لم يشتر له لعبة أو كتابًا. هي من يفعل مدّعية

أنها من اختيار راجي. عليها دائمًا أن تذكّره بعيد مولد نادر، وأن تخبره عن علاماته وعن رتبته. كانت هي من تطلب منه أن يترافق معه حين يزور أهله.

عندما خرجت من السوبرماركت كانت العتمة قد حلّت. كل شيء حولها بدا لها مختلفًا. تعرف هذه الأحياء في أوقات تمتدّ من الصباح إلى أول المساء. وبدلًا من السير باتجاه البيت سارت في الاتجاه المعاكس. لم يكن لديها وجهة محدّدة تقصدها. لكنها أرادت أن تبقى خارجًا بعض الوقت.

كان الهواء يبرد تدريجيًا، وتحسّ له لسعة حلوة. مشت دون أن تلتفت إلى المقاهي الممتلئة بالرواد. تنبك الأراكيل يختلط بروائح الشواء وكاوتشوك الدواليب ورائحة تحلل لأشياء مهترئة ترافقها وهي تقطع الشارع إلى جهة المحلات. في ضوء واجهاتها الشحيح ترى ظلّها المنعكس، ظلّ متعَب حائر. لو تتوه وتأخذها الطريق إلى عالم آخر. أمامها عمال بناء ببناطيل مبقَّعة بالباطون وبالدهان يمشون مطأطئي الرؤوس. مشاية البلاستيك توقّع خطواتهم المثقلة. يتركون خلفهم رائحة عرق ممتزجة بغبار كثيف.

تخيّلت راجي في البيت وقد شرب القليل المتبقي في القنينة، على الأرجح سيكون وحده. ينظر إلى شاشة التلفزيون دون أن يرى شيئًا. انعطفت ودخلت في زاروب فرعي، توقّفت عند سياج تعربش عليه شجرة ياسمين. ثم دخلت في زاروب ثان قبل أن تدخل السوبرماركت من جديد وتشتري قنينة ويسكي وتدفع 32 ألفًا وخمسمئة ليرة. لو أنه يحبّ نوعًا أقل تكلفة. على مدار السنين تعلّمت إعداد الكثير من الكوكتيلات وتمييز مختلف أنواع المشروب. كانت تشتري النبيذ والبيرة والفودكا والتكيلا والعرق هذا عدا الويسكي تحسبًا لضيوف يأتون على غفلة. صار الويسكي شراب راجي المفضّل يضيف لكأسه مكعَّبين من

الثلج. ما عادت تشتري الكميات ذاتها لا لأن الزوار باتوا قلائل بل لأنه حين تفرغ قنينة الويسكي يشرب ما يجده خالطًا بينها غير مبال بما يحصل له نتيجة إسرافه.

تخاف من يده التي ترفع الكأس وتشعل سيجارة تلو الأخرى. تحلم بأن تنشغل يده بشيء آخر يلهيها، كالرسم. ذكريات تطردها بعيدًا. صور له غاف بينما يفور سائل أصفر من فمه. أو ممددًا في أرض الحمام غارقًا بالقيء. خوف نادر ما كان أقلّ من الهلع الذي يستولي عليها. أحيانًا تغضب من الطبيب وتحمّله مسؤولية استمرار راجي في ما منعه عنه. تفكّر أنه لم يخوّفه كفاية، وكثيرًا ما حاولت أقناعه باستشارة طبيب آخر. لكنه لا يكترث حقًا.

شيء من الرهبة يستولي عليها وهي تفتح الباب. تسمع أصواتًا تأتيها من غرفة الجلوس. تغلق غرفة النوم خلفها. تبدّل ملابسها على مهل. تجلس عند حافة السرير. تبقى جامدة متأمّلة الفوضى حولها. غدًا سيكون عليها النهوض باكرًا من أجل تنظيف البيت، ودون أن تدري خططت لغدها كأنّ ساعاته غير محدودة.

يبتسم ما إن يراها ويعرّفها بحماس على الشاب العشريني، مقدّمًا إياه على أنه فنان موهوب. ما إن سمعت حديثهما حتى فهمت ما جمعهما. صار يكفي أن تُرفض أعمال أي واحد في الغاليري حتى يصبح صديقه المقّرب. صداقة قد لا تدوم إلّا لسهرة واحدة. تنهض من جلوسها لتعدّ عشاء خفيفًا حسب وصف راجي. كانت يداها توقعان كل ما تلمسه. فكّرت أنه التعب وقلة النوم. فتحت البراد بحثًا عن شيء ما لا يتطلّب وقتًا ولديها مكوّناته. سلطة نيسواز والقليل من فريكة الباذنجان. تعلم أن راجي لن يمسّ شيئًا من الطعام. سيكتفي في آخر الليل إن كان صاحيًا بسندويش من اللبنة والمكدوس. تعدّه له بخبز المرقوق. قد تمرّ شهور عليه لا يأكل ليلًا إلّا صنفًا محدَّدًا، ثم يهجره ليختار صنفًا آخر، لكنه

يفضّل ألّا يأكل مع المشروب. لا تعلم بحقّ سرّ الوزن الذي يكتسبه. الطبيب نصحه بالسير ساعة كل يوم، حاولت أن تشجّعه بالسير مساء معه. فعلا ذلك مرة واحدة، وبعدها تحجّج بكراهيته للزحمة والضجيج، ولم تنفع الحلول التي اقترحتها لإقناعه. كأن تصحبه بالسيارة إلى الكورنيش ليومي السبت والأحد فيمشيان بمحاذاة البحر.

كانت تبدّل المنافض وتضع الصحون على الطاولة الواطئة بينهما، دون أن تسمع ما يقولان ودون أن تفهم سرّ ضحكهما. تعلم أنه فرح لن يدوم. حاولت أن توفّر عليها المقلب الثاني من السهرة، بأن تخلد للنوم قبله، لكن خوفها عليه كان يمنعها. لا تريد أن تستيقظ لتراه نائمًا على الكنبة شخيره يتعالى مالئًا الجوّ. ولا أن تراه منطرحًا فوق الأرضيات. لو تستطيع أن تخترع طريقة تقنعه. لكنها باتت عاجزة تمامًا لا تملك إلّا هذا الرعب. أين شجاعتها وقوّتها؟

تتخيّل نادر جالسًا على الشرفة يستمتع بليل ربيعي. ليته يحكي معها كما يفعل مع خالته. حين كان صغيرًا، كان يبدأ بإخبارها كل تفصيل ما إن يركب السيارة. يضع يده الصغيرة على كتفها ويربّت عليها ليتأكّد أنها منصتة له وهو يحكي عمّا قالته المعلمة ومع من لعب والدروس التي شُرحت لهم. كان يحلو له، أن يجلس مع زوّارهم يدلّلونه ضاحكين على كلماته الطريفة ولثغاته. الآن يبدي نقمة لا على والده فقط بل أيضًا على زوّاره. حتى لو ضغطت عليه بحجة أن ذلك يفرح والده، يرفض تمامًا ويقفل على نفسه في غرفته، أو يخرج دون أن تعلم المكان الذي يقصده.

عندما تعرّفت إلى راجي، لم يكن وحده مختلفًا، هي أيضًا. كانت تحسّ أنها أكثر فتاة سعيدة في الكون. أحبّت أنامله الرقيقة تمرّ على وجهها كلما التقيا. الرسائل التي كان يكتبها كلما افترقا مساء، والأشياء الصغيرة التي كان يهديها إياها، كمروحة يدوية عليها نقوش آسيوية، أو أساور هندية ومحفظة صغيرة للملفات احتفاء بأول عمل رسمي لها. لا

تزال لديها كلها حتى تلك التي بليت. تحتفظ بها مع تذاكر الأفلام التي شاهداها معًا. تذكر ابتسامته العريضة وهو يرى طيفها مقبلًا نحوه. كانت تؤجّل عودتها إلى البيت رغم اعتراض أمها وتهديد والدها بحرمانها من الخروج. لم تكن تحتمل الساعات التي تبعدها عنه.

أحيانًا يخيّل لها أن بإمكانها مصارحته بما تفكّر، لكن ردوده تجرحها وتبكيها. لا تقول شيئًا مما عزمت على البوح به. صارت تقلّب عباراتها في رأسها قبل أن تتفوّه بكلمة. حين قالت له إنه تغيّر، أجاب إن عليها النظر إلى نفسها أولًا. أكثر ما يقتلها أنها لا تجرؤ على الردّ. تبقى كلماتها مخنوقة في داخلها. لا تفهم كيف يعمى عن الحقيقة. لا تعرف كيف تتعامل معه. كأن له ألف وجه. ليست ضعيفة كما يعيّرها، إنها فقط تخاف عليه. إن امتقع وجهه، أو رجفت يده أو آلمه رأسه تسارع لجلب كوب ماء راجية إياه أن يهدأ. تخاف أن يرتفع ضغط دمه أن تصيبه ذبحة قلبية أو سكتة دماغية، أو فالج ما.

تعود إلى المطبخ تفتح الحنفية لتغسل الأطباق والأواني المتجمّعة، تنظر إلى الماء يغور سريعًا في البالوعة وإلى فقاقيع الصابون، تتذكّر كيف كان يأتي من خلفها ويحيطها بذراعيه، أو يمرغ وجنتها بالصابون لإضحاكها. يستعجلها كي تأتي وتجلس معه. وحين يطول مكوثها، يأتي إلى المطبخ يجلس إلى الطاولة بقربه نادر يؤرجح قدميه الصغيرتين، وأمامه لعبة مأخوذ بتركيب مكعباتها الملونة.

تجفّف يديها وتدهنهما بنقطة زيت زيتون. لكن التشققات عند عقد الأصابع لا تشفى، تنزف دمًا وتؤلمها باستمرار، تحسّ بوخزها، وحتى أثناء النوم تظلّ تحكّها أو تفركها بملاءة السرير. لا تعرف كيف تخفي يديها حين تلحظ أحدهم يحدّق بهما. أمها نصحتها أن تجري فحصًا فقد تكون صدفيّة. لا تذكر أين قرأت أن الصدفيّة لا تشفى فلماذا تكلّف نفسها عناء الفحص.

تسمعهما يقتربان في الممر، تسارع للتظاهر بتجفيف الصحون، يكتفي الزائر بتوديعها دون الدخول إلى المطبخ. يشكرها على العشاء. يقفان في الباب، صوت انغلاق الباب يتبعه صوت المصعد. تتسارع دقات قلبها مترددة في أذنيها كقرع الطبول.

في الصباح الباكر أيقظتها خبطات على الباب، فكّرت أن لا أحد يأتي في هذا الوقت. ربما أحد ما أخطأ العنوان. لكن الطرق عاد أقوى سحبت نفسها من سرير نادر. قطعت الممر وأطلّت برأسها ناظرة إلى راجي نائمًا بثيابه الداخلية وقد انكشف الغطاء القطني عنه. أنفاسه قوية كأنها تشقّ طريقها بصعوبة في صدره. كم مرة تستيقظ ليلًا لتتأكّد أن ليس به شيء. تسحّبت على رؤوس أصابعها وغطته. لا يزال الصباح باردًا.

عادت إليها ليلة البارحة. وعدت نفسها ألّا تقول أي شيء لأنه حين يشرب لا ينتبه لا لأقواله ولا لأفعاله. حين عاتبها على أنها لم تحترم الضيف وتركتهما خلال السهرة، وبالكاد ردّت عليه حين ودّعها. أجابت إنها اضطرّت إلى تركهما من أجل تحضير العشاء... لم يدعها تكمل. قاطعها قائلًا إنها تمنّنه بكل ما تفعل، هو يعمل ويتعب مثلها لكنه لا يتصرّف على أنه ضحيّة. كما أنه مهما فعل لا يرضيها. لم يكن سهلًا عليها أن تسكت، وألّا تدافع عن نفسها، كان كل ما فيها يرتجف وكادت يداها توقعان صحون البزورات التي كانت تجمعها. لكنها لو فتحت فمها تعلم أن النتيجة ستكون سيئة عليها. كان خوفها يزداد كلما علت نبرة صوته لتصبح صراخًا. كان يتنقل من موضوع إلى آخر دون رابط ولم تعلم كيف صار الحديث عن نادر وعن إفسادها له وتأليبها عليه، متّهمًا إيّاها بالأم المفسدة غير الصالحة. لم ترد أن تبكي لكن دموعها نزلت رغمًا عنها، غصّت بها وهي تحاول منعها وإخفاءها. قال إنها أبعدته عن عائلته والآن تريده أن يخسر صداقاته. «أنا؟» سألت بحرقة تختزن كل مكبوتات نفسها. قلّد عبارتها ساخرًا. نظرت إلى وجهه وقد صار قاسي الملامح بلا أي رحمة.

توقّف الطرق على الباب لحظة وتعالى رنين الجرس. نهضت ثانية، رأتها من منظار الباب واقفة فيما يدها تكبس زر المصعد. تتهيّأ للرحيل. كان فرحها حقيقيًا وهي تتعرّف إلى ميرا.

غمرتها بقوّة، كانت بحق تفتقدها. شهور طويلة مضت دون أن تكونا معًا. بقيت ميرا واقفة وسألتها إن كان لديها مانع من أن ترافقها لتمشيا وبعدها تجلسان في مقهى. أثناء ارتداء ليلى ملابسها تأمّلت ميرا الصور الموزعة في إطارات. كلها لنادر في أعمار سابقة. ليس هناك أي واحدة جديدة له وهو مراهق.

أوقفت ميرا السيارة قريبًا من السوديكو ومشتا معًا في مونو نزولًا إلى الوسط التجاري. عند الكورنيش اشترتا كوبًا من النسكافيه وجلستا قبالة البحر تشربانه دون كلام. رغم كثرة العدّائين وهواة الصيد كان المكان هادئًا في صبيحة ذلك الأحد. وحين بدأت ميرا بالكلام هُيّئ لليلى أن صوتها عال رغم نبرته الخفيضة. حكت عن صعوبة عيشها في بيتهم الذي تربّت فيه. أخواها يريدان بيعه، وحين تردّ إنه بيت العائلة، يسألانها أي عائلة. هي توافقهما أحيانًا خاصة وهي تعود كل ليلة إلى فراغ البيت وبرودة جوّه. قالت إنها فكرت بالعمل في أبو ظبي لا طمعًا براتب أفضل ولا رغبة في السفر. التعوّد على أشياء جديدة وعلى أناس جدد تعمل معهم ليس فكرة مغرية لها لكن شيئًا فيها يأبى أن تنام وأن تستيقظ بشكل عادي ككل البشر كأنّ أمها لم تكن يومًا. يخيفها فراغ البيت. ليس بإمكانها الهروب منه دائمًا. وإن فعلت إلى أين تذهب؟ كانت ليلى أشدّ حزنًا من ميرا. وتخيّلت أنهما ما زالتا صغيرتين، لم تخسرا بعد أجزاء من روحَيهما في الطرق التي سلكتاها.

انتبهت ليلى إلى ضآلة ميرا، إلى خصرها النحيل في بيجامة الرياضة. إلى نظرتها الكئيبة، وتمنّت أن تصارحها هي أو أي أحد. فكّرت أن تكتب عندما تعجز عن التحمّل، لكن ماذا لو وجد دفترها وقرأ ما فيه؟ تخاف منه

وتخاف عليه. حين اشترت دفترًا وكتبت فيه بضع جمل أفزعتها الكلمات وباتت تحمل معها الدفتر في حقيبة يدها. رغم ذلك لم يهدأ لها بال وبقيت تخشى أن يراه راجي. أحرقت الصفحات التي كتبتها، تمزيقها نتفًا ما كان كافيًا لمحوها نهائيًا.

عادتا للسير باتجاه الروشة لكنهما تعبتا في الطريق فدخلتا إلى مقهى. رواد المقهى كبار في السن وكلهم رجال. حكت ميرا عن علاقتها بساري وانفصالهما المتكرر عن بعضهما. تظاهرت ليلى بالمفاجأة مع أنها حزرت الأمر منذ زمن. سكتت ميرا كأنها ندمت على ما قالته. أضافت إنها لا تعرف حتى لماذا كانت تبحث عن بيت صغير تستأجره. كانت تتفقّد تلك الشقق برفقة سماسرة. تجول بين الغرف الخاوية عاجزة عن تخيّل نفسها بين جدرانها.

تفرّجتا على الأمواج القوية تقلب صيادًا على قفاه فوق الصخرة. ملح البحر اختلط بطعم الشاي الذي تشربانه. هل الهواء أم رائحة البحر أم صوت فيروز هو ما أعاد لليلى ذكرى يوم قصدتا البحر في جونيه في عزّ حرب الألغاء. ضحكت ميرا كثيرًا حين بدأت ليلى تسترجع ذلك النهار. كانتا في العاشرة من عمرهما وقد سئمتا قيود الأهل والمبيت في الملاجئ فقررتا أن تحضرا ثياب البحر خلسة، وأن تذهبا سيرًا. كل منهما كانت مقتنعة أن جونيه على بعد نصف ساعة سيرًا. تتذكّران خوفهما ما إن بدت لهما الشوارع غير مألوفة. الناس قلائل والسيارات تمرّ بسرعة فائقة. لم تعرفا إن كانتا تقتربان أم تبتعدان. ليلى الشجاعة أبت على نفسها أن تظهر الخوف. لكن ميرا وقفت بقبعة البحر العريضة على رأسها ومنتعلة مشاية البحر باكية مردّدة كأن ليلى أكبر منها ومسؤولة عن تدبير المغامرة الفاشلة. تسمّرتا أمام بسطة خضار. حتى اقتربت منهما امرأة تحمل مشترياتها وسألتهما مشيرة إلى ميرا إن كان بهما شيء.

عادتا في سيارة زوج تلك الغريبة. وكان عقابهما حرمانًا من رؤية

بعضهما أو الخروج للعب. عقاب طال لأكثر من أسبوعين. لكنهما لم تتقيّدا به ولو ليوم. كانتا تجيدان التسلل للعب مع بعضهما وبأسوأ الأحوال كان الملجأ يجمعهما في معظم الليالي.

ضحكتا متناسيتين عالمًا من الكدر والألم. اختفى حاضرهما، وتنقّلتا من قصة إلى أخرى فيما ضحكهما يجتذب العيون الفضولية. تساءلتا لماذا لا تلتقيان أكثر؟ كل واحدة منهما تعلم الجواب لكن في مثل تلك اللحظات تتناسيان.

بينما تخرجان من المقهى، تاه ذهن ليلى وهي تنظر إلى الدرب التي نبتت من بين فسوخ باطونها زهور بابونج وطيون وأعشاب ربيعية. تذكّرت البيت وأعمال التنظيف وأكوام الثياب التي عليها كيها. فكّرت أن راجي نائم. لن ينهض قبل حلول الظهر. سهر حتى مطلع الفجر ولم ينم إلّا بعد أن شرب آخر نقطة متبقّية في القنينة. رأسها كجبّالة باطون بدأت تعدّ لوائح في ذهنها للأشياء التي عليها شراؤها قبل العودة إلى البيت.

اشتاقت إلى نادر. غيابه يزيدها هشاشة، في حضوره تقوى، ولا تدع أحزانها تسيطر عليها.

حين سألتها ميرا إن كانت مستعجلة؟ استغربت نفيها وقولها أن ليس عندها شيء مستعجل. ماذا يحصل لو أذنت لنفسها بفسحة. كشحت من رأسها مشاعر الذنب والواجب.

وقفتا قبالة البحر صامتتين. ثم مشتا باتجاه السيارة. لم تسألها عن وجهتهما. لماذا تكترث؟ المهم أنها بعيدة لبعض الوقت. لكنها رغمًا عنها تخيّلته وحيدًا في البيت، وقد نهض بصداع رأسه المعتاد. لن يعدّ قهوته إلّا بعد وقت. وسيشتكي لاحقًا أنها كانت خفيفة ولم تعجبه. سينظر إليها كأنها ارتكبت إثمًا كبيرًا، وسيقول بلهجة متهكّمة «المهم أن تكوني استمتعت برفقة صديقتك» ثم ببراءة سيسأل عن أخبار ميرا قبل أن يبدأ بتجريح شخصيتها وتسخيف اهتماماتها.

الطرقات لم تزدحم بعد، الموسيقى تردّدت في رأسها مختلطة بنسمات عليلة، شيئًا فشيئًا نسيت كل شيء. تخيّلت أنهما تسيران دون توقّف. تحملهما الطريق إلى أمكنة جديدة وبعيدة. كانتا تضحكان بينما تردّدان معًا أغنية قديمة بصوت عال كما كانتا تفعلان وهما صغيرتان. تذكّرتا الفرق الموسيقية والمغنين والبوسترات التي زيّنت جدارن غرفتَيهما. اسماء قديمة كرّت ووجوه بعيدة، ما عادتا تعرفان شيئًا عن أصحابها. كانت يومًا لأحبة لهم أو أصدقاء مقربين.

لم تعد إلى البيت إلّا عند الثانية ظهرًا. صحيح أنها تتوقّع مفاجآت غير سارة دائمًا، لكن ما لم تتوقّعه هو عودة نادر خلال غيابها. كان باب غرفته مقفلًا. وراجي جالس إلى طاولة المطبخ يشرب القهوة والمنفضة قربه ممتلئة بأعقاب السجائر. سألها بحدّة كيف تخرج دون أن تترك ورقة. انشغل باله. وحين اتصل بها اكتشف أنها تركت هاتفها في البيت. يحبّ أن يعلم ما فائدة الهاتف إن كانت تنسى حمله. ثم أشار جهة غرفة نادر مضيفًا: «وابنك المصون يدخل إلى البيت ولا يلقي حتى التحية، كأنه لا يراني. وعندما أسأله شيئًا يتظاهر بعدم سماعي. هل أنا حائط في هذا البيت؟»

لو علمت أن نادر سيعود باكرًا لما أطالت نزهتها. طار كل أحساس جميل ما إن وصلت بيتها. دافعت عن نادر بالقول إنه هكذا معها أيضًا قليل الكلام.

ثم توجّهت إلى غرفة نادر متسحّبة على رؤوس أصابعها. كأنها تخشى ايقاظ شياطين غير مرئية. قبلته وأخبرته إنها اشتاقت إليه.

- كيف حصل أن عدت الآن؟

أجاب إن خالته وعائلتها سيتغدون عند أهل زوجها وهو لم يحبّ أن يرافقهم إلى هناك. ثم نظر باتجاه الباب متسائلًا: «ما به يصرخ هكذا؟ ماذا فعلت له؟».

تتمهّل قبل أن تطلب منه أن يُظهر بعض الاحترام، وألا يتجاهله، فهو والده الذي يموت فيه. يجيبها بحدّة إن والده لا يحبّ إلّا القنينة.

لا تدري كم مرة جرى هذا الحوار بينهما. كل ما تقوله يذهب هباء لا ينفع لا في التقريب بينهما ولا في تهدئة خواطرهما. كلاهما يغضبان منها كأنها الرسول الذي يجب قطع رأسه.

حين تدخل ثانية إلى المطبخ تجده قد أخرج قناني مشروب تبقّى القليل في قعرها. سألها كأنه لا يعلم أنه شرب قنينة الويسكي بأكملها ليلة البارحة: «لماذ لا ويسكي عندنا؟» تعلم أنها إن ذكّرته أنه شربها كلها البارحة ستثير غضبه وسيسارع إلى رميها بعبارات قاسية مثل «ألا شغلة عندك سوى عدّ ما أشربه وأدخنه؟ هل أتدخل أنا بما تشربين وتأكلين؟». وعدته بأن تشتري قنينة بعد أن تعدّ الغداء علّ ذلك يخفّف من ثورته المفاجئة. صبّ القليل من الفودكا وبقي جالسًا في المطبخ فيما هي تتفقّد ما في البراد لتحضير شيء للأكل. كانت تراه دون أن تنظر إليه. شعره الذي طال، ذاهب في كل اتجاه. يسحب من سيجارته مجّات طويلة وينظر من الشباك سارحًا في أفكار لا تعلم عنها ليلى شيئًا. تحسّ بهشاشته فينكسر قلبها. تبعد عينيها عن وجهه الشاحب. وعن يديه المعروقتين وأظافره الطويلة التي سوّدها التبغ.

لم تجد في البرّاد إلّا اللبن. انشغلت يداها بسرعة فائقة بالتحضير لكبة الحيلة، من سرعتها كانت تقرقع بالأواني، نهض من مكانه حمل الكأس والمنفضة وبعد قليل سمعت صوت التلفزيون.

لم تسنح لها الفرصة للمرور بأهلها إلّا بعد أيام. كانت عائدة برفقة نادر. سألته إن كان لديه مانع من مرورهما ببيت جديه. وافق مبديًا فرحًا بزيارتهما. رأت جمود وجهه وعبوس قسماته يتلاشى كلما اقتربت بهما السيارة.

وجدت أن وقعة والدها أسوأ مما وصفتها أمها على التلفون. رغم

المسكّنات كانت تصدر عنه صرخة لا إرادية كلما سعل أو تحرّك. كانت أمها قد أخفت عنها أنه وقع عن السلم. يحيّرها لماذا تخفي عنها أمورًا في حين أخوتها يعرفون أدقّ التفاصيل. أخواها رغم وجودهما للعمل في قطر على اطلاع يومي بحياة أهلهم. حين تعاتب أمها، تردّ: «لا تنقصك الهموم.» ماذا تقصد؟ لم تشتكِ لها يومًا. حين يحتاجان معونة ما يطلبانها من يارا.

لا يعترض نادر على العاطفة التي يبديانها له بالتقبيل والتدليل. يردّ على أسئلتهم دون أي تهرّب. تغتنم هذه الفرصة لتعرف بما يفكّر. روى ما جرى مع معلمته وكيف بات كالأخرس في صفها. وصف نظراتها القاسية إليه واستفزازها له. كأنها تريد أذيته حقًا. حين سألته جدته ألا يمكن أن يكون الأمر من صنع خياله، أجاب: «ربما لا أدري». حتى عندما سألته جدته إن كان لديك أصدقاء ومن هم، أخبرها عن رفيق لم تسمع ليلى باسمه سابقًا وقال إنه يبقى بصحبته في الفرص ويتبادلان الايميلات من حين لآخر. رفيقه يعاني من مرض السكري منذ كان في الثالثة من عمره. قال منتظرًا تعليقًا من جدته بما أنها خبيرة بالأمراض والأدوية. لم يطل بها الأمر حتى راحت تنبهه من عوارض نقص السكر وخطورتها كأنه هو المصاب لا رفيقه.

كان يسند جده في تقلّبه من ناحية إلى أخرى. يساعده على رفع جذعه أثناء شربه الماء. أو يمسح العرق عن وجهه. يرافقه أثناء دخوله الحمام. تمنّت في سرّها لو أن علاقة مماثلة تربطه بأبيه راجي. في حضور جدَّيه ينطلق لسانه ويتشارك معهما ما يفعلان. لا يزال كما في صغره يساعد جده عندما ينصرف إلى أعمال التصليح والتركيب. صنعا معًا خزانة حائط ومكتبة بخمسة رفوف. رتبّت أمها فيها الكتب التي تركوها والمجلات المصوّرة التي أدمن أخواها قراءتها. كان نادر ينشغل بتقليبها لساعات دون أي ملل. على العموم لا ترمي أمها شيئًا. حتى ثيابهم خلال

نشأتهم تملأ درف الخزائن ومن حين لآخر تعاود نبشها وتسأل كلًا منهم أن يختار من أغراضه مردّدة إنها لا تزال جديدة وعادت موضتها. وحين يذكّرونها أن معظمها في الأصل ثياب مستعملة، تزعل وتسأل من أين أتوا بهذه الأفكار فيسكتون خوفًا من إيلامها. ربما تناست هذه الأمور. هذه طريقتها في التفكير. محت من طفولتهم فقرهم وعملها المضني وتبطّل والدهم وتبعات الحروب. وحين تروي لأحفادها ذكريات عن أهلهم، ينصتون مع أولادهم بفرح إلى حياة حلوة لم يعيشوها. إلى بيوت لم يسكنوها وألعاب لم يحصلوا عليها ومشاوير لم يقوموا بها. تؤلّف حياة جديدة وحين سألها مرة نادر مستفسرًا عن النوم في الملاجئ. حكت عن سهرات الملجأ والحفلات والألعاب التي تشاركوها مع الجيران. والأطعمة الكثيرة التي كانوا يعدّونها. كأنها تحكي عن منتجع سياحي لا مستودع لا يتجاوز الثلاثين مترًا مربعًا تكسوه الرطوبة وتفوح من جدرانه رائحة عفن.

في مطلع حزيران امتنع راجي عن الذهاب إلى العمل، وعندما سألته ليلى عمّا حصل، رفع يده كأنّه يكشحها بعيدًا. لم تصرّ لكنها كانت تغادر البيت مضطربة. تفكّر بنادر الذي سيكون لديه أيام عطل بين امتحاناته النهائية. كيف تتركهما وحدهما في البيت؟

منذ بدء الدوام الصيفي توقّف نادر عن العودة مع أمه. قال إنه من غير المقبول أن تسجنه في انتظارها ساعات. لم يكن يستقلّ سيارة أجرة بل يعود سيرًا. اكتشف أن المسافة هي خمس وثلاثون دقيقة فقط.. كان يستمتع بالتجوّل وحيدًا. السمّاعات تخفي ضوضاء الشوارع، والأشياء تتحرّك حوله كما في أفلام شارلي شابلن الصامتة تلك التي كانوا يشاهدونها في المدرسة.

حين اكتشف وجود والده في البيت، صار يدخل إلى السنتر ويجول بين أرجائه. يتفقّد اصدرات الموسيقى ويتصفّح المجلات والكتب. يقرأ

ملصقات الأفلام. ثم يجلس متأمّلًا الداخلين والخارجين وأولئك الذين يرتادون المقاهي. هناك من هم مثله يجلسون عند الحافة ويستخدمون الأنترنت المجاني. الشبان يأتون دائمًا في جماعات، يسبقهم صوتهم العالي وضحكهم. يشبهون رفاق المدرسة، من بعيد يهيّأ له إنه يعرفهم، يرتدون الجينزات الممزّقة نفسها والتي شيرتات القطنية الضيقة التي تبرز عضلات صدرهم وأذرعتهم. هو أيضًا أراد أن ينمّي عضلاته، اشترى أوزانًا حديدية. تسبّبت له التمارين بآلام قوية في كتفيه وظهره وساقَيه. حين شفي منها، اتضح له أن الدقائق القليلة غير كافية. ثم بعد أقل من أسبوعين صرف النظر عن موضوع العضلات نهائيًا. أخفى الأوزان في قعر خزانته. كي لا تتذكّر أمه أنها دفعت ثمنها دون طائل.

في البدء انشغل بال ليلى عندما عادت مرة من العمل ولم تجد نادر. سألت راجي ردّ عليها بعينين محتقنتين، إن ابنها لا يكلّف خاطره حتى بالاتصال ليعلمهما بمكانه. «هل يظنّ أنه صار كبيرًا سأكسر له رأسه حين يرجع» هدّد بلسان ثقيل. ما كانت بحاجة لشم أنفاسه كي تعرف أنه بدأ بالشرب منذ لحظة استيقاظه. كانت الرائحة تفوح ما إن تدخل من الباب. في غرفة الجلوس غيمة من الدخان المتجمع، تسارع إلى فتح شباك، فيسخر سائلًا: «انزعجت؟ كنتِ تدخنين أكثر مني». لا تردّ على كلامه مهما جرحها. ذلك سيزيده غضبًا. لا يأكل شيئًا من الطعام الذي تحضّره. يضع الكأس على الطاولة وعلبة سجائره، حين تسأله ألا يريد أن يأكل مثلهما، يجيب إنه سيفعل بعد الانتهاء من كأسه. لكن الكأس تتبعها أخرى، نادر يزدرد طعامه معلقًا عينيه بصحنه، يغادرهما بأسرع ما يمكنه. لا تفعل شيئًا لحثّه على مجالستهما. تظلّ تعرض على راجي الطعام ويظلّ جوابه إنه سيفعل بعد هذه الكأس. كل يوم تتحيّن الفرص لسؤاله عن العمل، لكن الفرص لا تأتي. الوقت الوحيد المناسب هو لحظة قيامه من النوم، حينها تكون في العمل. ترجئ الحديث إلى

عطلة آخر الأسبوع. في هذه الأثناء تستيقظ كل يوم بتعب يكبر وبآلام في ظهرها كأنه مقصوص نصفين. تشدّ جذعها عبثًا، تحس أنها لا تستطيع أن تستقيم. الهموم تقصفها. مهما كانت بارعة في الأرقام لا تستطيع أن تحلّ معضلة تدبّر المصاريف. ماذا تفعل؟ طوال الأسبوع كانت تؤلّف أحاديث تقولها له وتتخيّل أنها تقنعه. يشطح بها الخيال وترى حياة أخرى. لماذا لا يكون لها وجه كوجه زميلتها نور، وضحكة تطلع من القلب بخفّة غير مفتعلة، لماذا لا يهدأ رأسها. لماذا تتحاشى النظر إلى نفسها. وتنام عند حافة السرير متكوّمة على نفسها، راغبة كل ليلة أن يمحوها الليل ويحملها النهار كذرة غبار لا يراها أحد.

يوم الجمعة لم تجد نادر في البيت. كان راجي وحده جالسًا في غرفة الجلوس، التلفزيون يعرض برنامج طبخ، ينظر إليه دون أن يتابعه. حوله قصاصات من الصحف جمعها على مدار سنين. كلها تتعلّق بفنّانين مرّوا بالغاليري. قال لها بصوت مبحوح. «كل هؤلاء أنا صنعت لهم مجدهم. من يذكرني منهم؟ لا أحد. أنا لا شيء» تقتلها عيناه الدامعتان. تقول للتسرية عنه إن ذلك غير صحيح. ولا أحد يمكن أن ينوب عنه لأن ما يفعله استثنائي. لم تكن مقتنعة بكلماتها. كل انسان في الكون يمكن الاستغناء عنه. وجدتها فرصة سانحة لتقنعه أن يتّصل مدّعيًا أن غيابه كان قسريًا بداعي المرض. وأن يقترح حذف تلك الأيام من عطلته السنوية، رغم علمها أنه لم يتبق له منها إلّا القليل. لم تتوقّع ثورته ولا أن توجّه إليها هذه التهم. انتفض رافعًا ذراعه مؤشّرًا بيديه كأنه على خشبة مسرح «ما بك لا تفهمين؟ أليس فيك ذرة من الاحساس؟ مع العمر تتحوّلين إلى شخص غريب. تريدين أن أحكي معها معتذراً؟ بعد كل ما قالته لي؟». رغم الظلم الذي يقهرها ويجعلها ترتجف من رأسها حتى أخمص قدمها. سألته مبتلعة دموعها «لا أعلم ماذا قالت لك؟» يجيبها «طبعًا لا تعرفين، كيف تفعلين وأنت غافلة عني وعن بيتك؟».

خانتها قدرتها في السيطرة على أعصابها الهشّة. صرخت به دون وعي «أنا غافلة عن البيت، وهل أنت من يهتمّ به مثلًا، هذه القنينة، أمسكت بها ملوّحة فيما ترتجّ القطرات القليلة فيها، هل تسير وحدها إلى البيت؟». ردّ كأنّ نحلة لسعته «عيّريني بالويسكي، لا أريد منك أن تشتريها. هل هذا هو انجازك في الحياة؟».

كانت تكرّر بينما تهرب إلى الحمّام «هل أنت أعمى؟ ألا ترى؟» خانتها الكلمات المكبوتة في قلبها. أحسّت بعبثيتها ولا جدواها.

لم تستطع أن تختلي بنفسها بين جدران الحمّام ولا أن تبكي على هواها. ضرب الباب بقبضة عنيفة دون توقّف. وحين فتحت خوفًا من أن يكسر الباب دفعها بأقصى قوته فارتطم جسمها بالمغسلة ورأسها برفّ البورسلين. الألم دوّخها. استمرّ في دفعها سائلًا: «خرست الآن ماذا لديك أيضًا قوليه؟». ما عادت تفكّر بنفسها، كان خوفها يتعلّق بنادر. إن عاد الآن. لا يستطيع أن يقف متفرجًا. عليها ألّا تنجرّ للانفعال. كانت في سرّها لا تتمنى إلّا الموت، لو تضربها ذبحة قلبية وتنتهي، لكن من سيهتمّ بنادر؟ لا يزال صغيرًا. ربّما هي توهم نفسها بأنها مهمّة في حياته. كرّرت في سرها «أنا لا أحد أنا لا شيء أبدًا»

حين عاد نادر كان البيت هادئًا تمامًا. ليلى جالسة على أرضية الشرفة. تنظر إلى ما حولها دون أن تراه. سألها عن سبب جلوسها هكذا؟ لم تردّ. دخلت متوجّسة بخطى تداري ألّا تُسمع. كان التلفزيون يقطع الصمت الثقيل. كأن نادر حدس ما يدور في رأسها فأخبرها أنه حين عاد وجد والده غافيًا على الصوفا. أطلّت، كان غارقًا في نوم مضطرب يحرّك ذراعيه كأنه يتشاجر مع شخص خفيّ. أحزنها كم يبدو شخصًا ضعيفًا، غطّته بشرشف قطني وحين جرّبت أن ترفع رأسه لتضع وسادة تحته، فتح عينيه محدّقًا بها كأنه تائه. سألها «متى عدتِ؟» ثم غفا مجددًا.

حين استيقظت في اليوم التالي، كانت قد حضّرت في رأسها

سيناريوات عديدة لحديثها مع راجي. عليها أن تصارحه، هكذا ظلّت تقول لنفسها كي لا تفقد شجاعتها. عليها أن تحافظ على هدوئها وألا تتأثّر بتهرّبه.

على خلاف عادته استيقظ نادر طلق اللسان وأخبرها عن المخيّم الذي سيشارك فيه صيفًا كمشرف على مجموعة أولاد في السادسة والسابعة. أفرحها حماسه، خاصة أنها المرة الأولى التي سيتقاضى فيها أجرًا. سألته متى قرّر ذلك. قال إن خالته يارا تدبّرت له ذلك لأنها تعرف مسؤولين عن مخيم صيفي يقام سنويًا في بعبدا. سكت فجأة ما إن سمع خطوات والده وهو يسحب نفسه سحبًا بطيئًا في الممر. نظر راجي نحوهما، عيناه نصف مفتوحتين، ابتلع قرصين من البانادول وشرب جرعتي ماء من القنينة. فارت القهوة من الركوة، رغم وقوف ليلى قرب البوتاغاز. كانت سارحة تعيد في رأسها كلامًا أعدّته بعناية. لم تنتبه لانسحاب نادر وتمتمته شيئًا عن المراجعة للامتحانات.

سألها كيف كان نومها. هزّت بإشارة من رأسها لا يُفهم منها شيئًا. قال إنه بقي يتعذّب من كوابيس طاردته ولم تدعه يهنأ بنومه. حكى عن رؤيته لأناس كان يعرفهم وكانوا جميعًا يطاردونه لسبب يجهله. في لحظات كهذه لا تدري إن كان يراضيها أو أنه نسي ببساطة كل ما قيل وكل ما حصل. مهما كان، تحتاج إلى هدنة تلتقط خلالها أنفاسها، وتفكّر بحلول لأمور تتعدّى قدرتها. هي لم تدفع بعد القسط الثالث وعليها أن تفعل قبل أن يحين موعد توزيع العلامات. تموت لو أُحرج نادر أمام رفاقه باحتجاز نتائجه. كل الأمور الأخرى تحتمل التأجيل مكنسة السجاد المعطلة والغسّالة التي تخرّبت عصّارتها. أمور تافهة بإمكانها ايجاد حلول لها.

تحاشت النظر إلى جفنيه المتورّمين، إلى السواد الشديد تحت عينيه، إلى العروق النابضة برقبته. لا تحتمل هواجس ومخاوف أخرى. امتناعها

عن قراءة المقالات ذات الطابع الطبي، لم يضع حدًا لقلقها عليه. تعلم أن هذا الاحتقان الدائم في وجهه وهذه الرجفة والدوار الصباحي وصداع الرأس كلها تؤشّر إلى أمراض. تودّ لو تصيبها هي وتنأى عنه.

تعالى رنين هاتفه، حين وجدته ليلى كان الرنين قد توقّف. ناولته إياه. نظر إلى الرقم. وقال بسعادة «إنها الست. ماذا تريد مني حضرتها بعد كل ما رشقته في وجهي؟» ليلى أيضًا شعرت بتفاؤل مفاجئ ربما لم تضِع الوظيفة منه نهائيًا وإلا لماذا تهاتفه. حين أعاد طلب رقمها، حكى معها بلهجة لطيفة، لم تستطع ليلى أن تحتمل رضوخه واذعانه. خرجت من المطبخ كي لا تكون شاهدًا على الحديث. وكي تكون قادرة على التظاهر بتصديق ما يحكيه لها لاحقًا.

أصابتها عدوى فرحه، وتركته يسرد الحديث كما يحلو له، قال إنها رجته ليعاود العمل. وهو قبل لأنها حكت عن أنه ليس موظفًا بالنسبة إليها بل هو عشرة عمر. كما وعدته أن تطلق له الحرية في اختيار الأفيشات وفي تصميم الدعوات. وصفت الموظف الجديد بالمجتهد لكنه لا يملك لا نظرته ولا خبرته الطويلة.

نهض بخفة متناسيًا أرقه، صبّ كأسًا من قنينة العرق، بما أن لا مشروب غيره حاليًا. قامت عن الكرسي مخفية قهرها. فكّرت أن توقف دوامة افكارها بأشغال البيت. شدّها من يدها بلطف قائلًا «اجلسي قليلًا معي، لن يهرب منك شغل البيت». كانت تسمع سرده للخلاف الذي جعله يبقى في البيت. بلا انتباه، عيناها رافقتا يده وهي تصبّ كأسًا أخرى، ألحّ عليها أن تشاركه شرب كأس. لم تجرؤ على القول إن الساعة لم تتجاوز العاشرة، رفضت متحجّجة بألم في معدتها.

فرحه المباغت دفعه إلى غرفة نادر. سمعته يدعوه للجلوس قليلًا معهما. قال إنه لم يسمع أخباره منذ وقت طويل. كان قلبها يخفق بجنون، تخشى من أن يغضبه نادر بردّ ما أو بكلمة جافية.

قشّرت الثوم وقطّعت البصل بسرعة فائقة. عليها أن تنتهي من الطبخ كي تنصرف بعدها إلى توضيب السجاد المغسول. برنامج مهامها طويل اليوم ولن تنتهي منه إلّا متأخّرة.

منذ شهر ترجئ قصّ شعرها المتقصف الأطراف. كانت في صغرها تعد نفسها أنها لن تكون نسخة عن أمها التي تلبس الثياب نفسها حتى الاهتراء. ولم ترها يومًا تقصد الحلاق إلّا لقص شعرها، تعود من عنده بشعر مبلول كي تقتصد كلفة التصفيف. تظلّ ترتق كولون النايلون وتوقف خيطانه المنسلة بوضع طلاء أظافر حتى يمتلئ كعبه بالثقوب. كذلك الأمر بالنسبة لأحذيتها المهترئة النعل. حين يشير أحد أولادها إلى النعل المثقوب تجيب «من سينظر إلى النعل، انظر كيف الجلد جديد».

صار راجي بعد تصالحه مع ربّة عمله يستيقظ بنشاط كأنه باشر عملًا جديدًا. يمازحها وهو يراها تنهض بثقل ناعتًا إياها بالكسولة. يخرج قبلها مع أنها تعلم أنّ دوامه لا يبدأ إلّا عند العاشرة. لكن ذلك يطمئنها. على الأقل لا آثار للثمالة ولا صداع رأس يشتكي منه ولا دوار يؤرجح مشيته. لا تحاول أن تعلم سبب هذا الحبور.

منذ استدانت قسط نادر من أختها وهي تحسّ بالمذلة. ما كان ممكنًا أن تنال قرضًا في عملها بما أنها لا تزال تدفع ديونها السابقة. ضاقت بها الدنيا، اشتكت لراجي، قال إنه سيتدبّر الأمر وألّا تقلق. واتهمها أنها تعذّب نفسها وتبحث عن الهمّ. سألها ماذا لو تأخرا في الدفع ماذا يحصل؟ حين رأى الألم يعتصر قسماتها وعدها أن يسأل والده. بالطبع لم تصدّق هذه الوعود، هي تعلم حالة والديه المادية. اضطرّ والده لبيع العقار الوحيد الذي يملكه في فيطرون كي يسدّد ديونه. ظنّت أن تلك الأزمة ستبدّل عادات عيش والديه لكنهما استأنفا النمط القديم نفسه كأنّ لا شيء حصل. وحين تسمع أنهما سيذهبان في رحلة بحرية منظمة إلى الجزر اليونانية تعجب من قوتهما. هي حتى الآن لا تدري ماذا يعمل

والده بالضبط، هل هو سمسار عقارات أم مخلّص بضائع في المرفأ أم موظف في دائرة العقارات. حتى حين سألت راجي كان جوابه ضبابيًا وعامًا. قال «يعمل في العقارات» هكذا اعتادت أن تكرّر الجواب نفسه على مسامع أهلها وكل من يسألها.

حاولت يارا أن تخفّف من تحرّج أختها ليلى، ذكّرتها كيف كانت تعتمد عليها ومنها حصلت على أول مصروف شخصي. ثم أليست هي من وقف دائمًا جنبها؟ كلماتها الصادقة لم تخفّف عن ليلى. في كل مرة ينكسر جزء من صورة كوّنتها عن نفسها منذ الصغر. كأنها أضاعت هويتها إلى الأبد. سيكون صعبًا عليها أن تنظر إلى زوج يارا دون أن يقتلها الحرَج. صحيح أن يارا وعدتها أن يبقى الأمر سرًا بينهما لكنها تعرف العلاقة التي بينها وبين زوجها. لا يخفيان عن بعضهما شيئًا. لو أن ردّ المبلغ يكون سريعًا لارتاحت بعض الشيء، لكن هناك مدفوعات مستعجلة ولن تبدأ برد الدين قبل الخريف القادم. لتصرف رأسها عن المسألة شغلت نفسها بملف أوكل به المتدرب الجديد الذي عُيّن ليعمل معها. لكنها منذ شهور لا تجده يتقدّم شعرة، الأخطاء المميتة تتكرّر. وحين سُئلت عنه لم يطاوعها قلبها أن تحكي عن ضعف إدائه. ليس كالموظفين القادمين من جامعات أجنبية، يرتبك متى تكلّم وإن وجهت له ملاحظة يحمرّ وجهه كأنه سينفجر بكاء. تأثّرت عندما رأته في بدلة جديدة بعد قبضه راتبه الأول. كانت بالنسبة إليه بدلة كحلية لا يهمّ أن قماشها الرخيص يلمع كالنايلون. لا تعلم إن كان سيتجاوز خوفه وارتباكه ليصبح موظفًا لا متدرّبًا أبديًا.

ما كانت كذلك سابقًا. كانت قاسية. الآن صارت رحيمة، تسارع إلى تبرير أخطاء من حولها حتى أولئك الذين لا تربطها بهم علاقة.

لم تكن المرة الأولى التي تتوهّم فيها أن راجي مستعدّ لقبول كلامها، لا بل ذهب عقلها أبعد من ذلك. صدّقت أنّ بإمكان كلامها أن يحدث

ثغرة في دفاعاته. لم يدخل الشك إلى نفسها لحظة. وحين عاد عند الثامنة مساء وجد أنها حضّرت طبخة الكفتة بالطحينة التي يحبّها.

نادر الذي تعشّى أغلق باب غرفته ليدرس. كانت ترددات الموسيقى ترجّ بابه، ومن حين لآخر يتعالى صوت لعبة الكترونية ونقرات أصابعه المتحمسة.

أوّل شيء فعله بعد خلع ثياب العمل هو صبّ كأس من الويسكي مع الكثير من الثلج. كانت فيما تسمع حبات الثلج تطرق حواف الكأس تفقد شيئًا من ثقتها. عليها أن تجد وقتًا قبل بدئه بالشرب.

حين جمعت شجاعتها وقالت شيئًا عن تأثير المشروب على صحته، سألها بعصبية إن كانت تظنّه كحوليًا، يستطيع أن يتوقّف عندما يقرّر. ومتى تقرّر؟ سألته ثم أردفت أنه أب لابن مراهق وهو مثال له.

- لا شغل لديك سوى افساد مزاجي؟ عندما تجدينني مرتاحًا بعض الشيء تبدئين بالنقّ. لا يعرف الواحد أن يرتاح في بيته. قال بانفعال قاذفًا الصحن من أمامه.

تلقّفت الصحن قبل أن يقع، ورجته أن يهدأ وإلّا سمعهما نادر وظنّهما يتشاجران. ردّ ساخرًا: «غريب كيف سيعتقد ذلك مع أنك لا تقولين إلّا كلامًا يقطر عسلًا». سألته أن يكمل عشاءه فهو يحبّ هذه الأكلة. أجاب إنها سدّت له شهيته على كلّ شيء.

قالت لتهدئة الجوّ إنه حديث عادي فلماذا ينفعل، هل عليها أن تخفي قلقها عليه. ردّ بصوت عال وهو يحمل الكأس والمنفضة وعلبة سجائره:» لا شيء عادي في هذا البيت اللعين، تعبت من هذه العيشة».

أرادت أن تردّ وتسأله مَنْ المظلوم حقًا، لكن غضبه وصراخه أخافها. ظنّت إنه سيهدأ في جلوسه وحده لكنه استمرّ في قذفها بأسوأ الأوصاف «محدودة الفكر، متسلطة، ضعيفة.» نادر أطفأ اللمبة في غرفته، لكن ليلى علمت أنه لم ينم، لا تزال تسمع حركته في العتمة. اعتاد أن يهرب حين يكون في البيت بالتظاهر بالنوم.

كانت تجلي الأواني والقدور فيما يعتصر الوجع معدتها. سكاكين تطعنها بلا هوادة. كانت في حفرة عميقة مظلمة. جدرانها ترتفع إلى ما لا نهاية.

في غرفة النوم خلعت ثيابها على عجل في العتمة، خبّأت جسمها بقميص نومها، خشية أن يباغتها راجي بدخوله. كأنه غريب عنها تمامًا. استلقت عند طرف السرير، فتحت الستارة، ولما كانت عاجزة عن الأغفاء. قامت من جديد، تسحّبت في الممر على مهل، من التلفزيون تعالت أصوات فيلم أجنبي، دلفت إلى المطبخ، وفيما تبتلع قرصين من البانادول، دخل إلى المطبخ محمرّ العينين، متعثر الخطوات، نظر إليها نظرة غائمة كأن عين اليمين ترى من جهة واليسرى تنظر في مكان آخر. وقال بحدّة: «هل أنت سعيدة وفخورة بأفعالك؟ هذا الحال لا يمكن أن يستمرّ، تحمّلتك طويلًا. صبرت عليك ووجدت لك الأعذار دون طائل». سكت ثم أعاد ما كان يقوله كأنه نسي. كان يفتح الثلاجة ليأتي بمكعبات الثلج، فهربت من وقوفها هناك كي لا يستمرّ في كلامه. لكنه لحق بها إلى غرفة النوم وراح يقول: «الآن تنامين حضرتك؟ تنفثين سمومك وكأن شيئًا لم يكن». حين انفتح باب نادر بعنف، هبّت واقفة حادسة ما سيحصل.

قال نادر لراجي: «ألن تسكت ألن تتوقّف عن الصراخ؟ كيف أدرس وأنام وأنتما تتشاجران طوال الوقت؟». أجابه راجي «هكذا تريد الست أمك».

- «الأصح هو هذا ما تريده أنت؟ أنا لا اسمع إلّا صوتك».

-» أنت ولد تنقصك التربية لكن لا عتب عليك، هي من ربتك هكذا».

- «أنا ربتني أمي لكن أنت لم يربك أحد».

تلقت الضربة على قمة رأسها. أصابتها بدلًا من نادر. كانت ترجو راجي أن يهدأ. بدا نادر فاقدًا تمامًا لأعصابه. كان يكرّر سؤاله بحدّة وبغصّة تخنقه: «أتظنّ نفسك أبًا؟».

كانت ليلى تذهب إلى عملها دون أن يشغلها ذلك عن كآبة استقرّت في أعماقها. كأنها فاقدة للوعي بما حولها، تقوم من النوم عند الثانية فجرًا، أو قبل ذلك. تغفو لساعتين على الأكثر. الغريب أنها طوال يومها لا تحسّ بالنعاس. الأثر الوحيد للأرق هو طعم مرّ في فمها لا يزول. حاول راجي أن يلطّف الأجواء لكن تجربتها الطويلة معه جعلتها لأول مرّة تحذر وتشكّك بصدق مساعيه. كأس واحدة كافية لتظهر وجهه الآخر. أما نادر فبعد انتهاء امتحاناته، ذهب عند جَدّيه متحجّجًا بأن لديه رفيقًا ساكنًا قربهما. شقّ عليها غيابه، وصعّب عليها المكوث في البيت. افتقدته كأنه سافر في غيبة طويلة. ايميلاتها ورسائلها الالكترونية له بقيت بلا جواب. حين تتّصل لتكلّمه لا يبحث حتى عن حجة ليبرّر جفاءه لها. لم ترد أن تمرّ بأهلها، نظرة أمها المتفحّصة تكشفها ولو لم تقل شيئًا. رغم رغبتها في المكوث عندهم مستسلمة للروائح الأليفة في بيتهم، لغرف اعتادت جدرانها المقشرة الطلاء لشبابيك اباجورها الذي نخره السوس والمطر. في أعماق روحها تريد أن تعود صغيرة، أن تجد من يطعمها ويهتمّ بها ويحبّها دون جهد. دون أن تنهض من دفء أغطية صوف عمرها من عمر زواج والديها. تريد يدًا حنونة فوق جبهتها.

في غياب نادر تدخل غرفته عدة مرات. لا تسوّي أثر جلوسه فوق شرشف السرير ولا تعيد المشاية إلى مكانها، بيجامته المقلوبة على القفا أبقتها مكوَّمة على المقعد في طرف الغرفة. تدخلها عدة مرات لتملأ قلبها برائحته المترسِّبة في أشيائه. تنظر إلى الصورة الوحيدة داخل مكتبته، إطارها الخشبيّ هدية من سارة صديقتها. في الصورة تحمله بين ذراعيها. كان في شهره التاسع يبتسم مادًّا سبابته باتجاه راجي الذي كان يصوّرهما. يرتدي فيها شورتًا أحمر وقميص قطن مخططة بالأحمر والأبيض. شعر رأسه خفيف أشبه بالوبر.

تعود إلى بيت فارغ، تمشي فيه على رؤوس أصابعها، لا تعلم لماذا

تحذر هكذا في سيرها فيه وفي فتح أبوابه. كأنها تتسلّل إلى مكان غريب عنها. تعدّ طعامًا تكثر فيه الأخطاء فإما تضع الملح مرتين أو تنساه بالكامل أو تترك الأرز على النار. رائحة الاحتراق تنبّهها.

لا تدع كلمات راجي المهادنة تؤثّر فيها. تكلّمه كأنهما غريبان التقيا على عشاء. توقّفت عن إخباره عن زملائها في العمل وعن أحداث يومها. حتى استدانتها من يارا أبقتها سرًا عنه. ماذا ينفع علمه بالأمر. ترك هذه الأحمال عليها منذ بداية زواجهما. تقاوم شعورها بالحزن وهي تراه مثبت النظرات إلى التلفزيون، في وحدة تامة مع كأسه. تسمع رنين هاتفه ولسانه المتعثّر يرحّب بمحدّثه دون أن تفهم شيئًا من كلامه.

بعد أن يأكلا تنشغل بالجلي. تنتظر اتصال ميرا إذ عاودتا الحديث اليومي مع بعضهما منذ التقتا آخر مرة. تخرج إلى الشرفة رغم ضجيج السيارات، تفضّل ألا يسمعهما. تريد أن تحسّ أن لديها مكانًا وفسحة لها وحدها حتى لو كان كلامهما عن الطقس.

لم تخبر أحدًا بعد بنيّتها إكمال تعليمها العالي. المصرف سيتكفّل بأقساطها في اليسوعية. تخشى ألا تجد في نفسها القوة على بذل هذه الجهود. لو أنها فعلت ذلك قبل سنوات لكانت أبدت حماسًا أكبر. الآن ما عادت تفكّر لا بالمستقبل ولا بالآفاق التي ستنفتح أمامها. باتت عاجزة عن الأحلام. نادر هو محفّزها للإقدام على هذه الخطوة. تريد أن تكون قادرة على دفع أقساطه الجامعية، وأن تتركه يختار الاختصاص الذي يرغب به دون حساب لإمكانياتهما المحدودة.

تتخيّل أحيانًا أنها قد تصبح استاذته الجامعية في إحدى مواده. هل سيغضب منها أقلّ حينها؟

في غياب نادر تعود للتدخين بعد أن أقلعت عنه تمامًا في الشهور الماضية، كانت فعلت ذلك لإرضائه. المحاضرات التي نظّمتها مدرسته عن مضار التدخين والأبحاث التي شارك فيها مع مجموعة من التلاميذ

دفعته إلى وعظها كلما رآها تشعل سيجارة. لم ترد أن يزعل منها أو أن يظن أن رأيه لا يهمّها. حين امتنعت لم تفعل ذلك بالتدريج بل دفعة واحدة وبشكل حاسم. تحمّلت العصبية التي أصابتها والأرق. كانت أشبه بالموتورة، تنفعل لأتفه الأسباب. استعاضت عن السجائر بمضع العلكة، لكن توقها للسجائر لم يخفّ. كانت تستمتع بشمّ الدخان وفي وضع سيجارة في فمها دون اشعالها، تستنشق رائحة التبغ بملء رئتيها.

كانت دائمًا تمتثل لأفكاره منذ صغره. رافقت هوَسه بالحشرات التي كان يطعمها ويراقب تحوّلها إلى فراشات. كانت تجلس قربه لساعات عيناهما مسمَّرتان بدودة تثير القشعريرة في بدنها. تطعمها الشمّار. وهي منذ ذلك الحين لا تستخدمه في الطعام. دائمًا يعيدها الشمّار إلى ذكرى تلك الديدان الزاحفة.

ثم انتقل اهتمامه للجغرافيا. لديه خرائط من كل الأحجام وموسوعات جغرافية. لديه ذاكرة لتعداد دول وعواصم لم تسمع باسمها. وحين راح يحكي عن التدوير وعن فرز النفايات كما

يفعلون في المدرسة، صار لديها عدة أكياس قمامة، تفرزها دون أن تجد مكبات لها. ساعدته حتى في تدوير الأوراق، كان سعيدًا بتطبيق الطريقة اليدوية غير آبه بسماكة الأوراق التي لا تصلح للاستخدام. بدءًا من سن الحادية عشرة تحوّل اهتمامه إلى قراءة الروايات التاريخية والبوليسية والمجلات المصوَرة خاصة القديمة منها. لا يضجر من قراءتها مرارًا وتكرارًا.

مؤخرًا صار يجمع ساعات قديمة. هي تعرف أن والدها مصدر هذه الهواية. منذ صغرهم اعتادوا على رؤية كل الساعات المعطلة مجموعة في جارور، لا يرمي واحدة ولا يسمح لهم باللعب فيها. ساعات تعبّأ يدويًا وأخرى تعمل على النبض. ليست ماركات غالية. لكن حين وضع نادر في معصمه ساعة سايكو قديمة ووجد أنها تعمل، سُحر بها وما عاد

ينتزعها. أصلح مع والدها مسجلة ضخمة معطّلة كانت لها وهي في عمر نادر. وصار يسمع الكاسيتات القديمة التي كانت لها ولأختها. تعلّم حتى إصلاح الكاسيت حين يعلكه الجهاز. كانت الأغاني تُضحِكه لكن بعضها كان يروق له كثيرًا. تسأله مستغربة لماذا لا يسمعها على اليوتيوب، ولماذا يكلّف نفسه عناء إصلاح الأعطال المتكررة على جهاز التسجيل. يجيب إنه يحبّ الأشياء القديمة. يفرح حين يعيد خردة ما إلى الحياة.

عندما تشتري أشياء يتطلّب جمعها مهارة كخزانة الأحذية، أو مكتبة برفوف لغرفته تتشارك معه تركيبها وتجده أمهر منها وأسرع بكثير هي المعتادة على هذه الأشياء منذ الصغر. يحزنها أن يقول حين تسأله عن الاختصاص الذي سيختاره: «لا أحبّ شيئًا». وعندما تجادله وتعدّد له مهاراته المدرسية. يردّ إنه لا يحب أيًا من هذه المواد. رغم علمها أنه سيتغيّر لكنها تقلق، لا تدري أيدّعي اللامبالاة لإغاظتها أم أنه حقًا لا يرغب في شيء. رسومه يخفيها عنها. لمحت رزمة من الأوراق مخبّأة في واحد من جوارير مكتبه. لم تحاول اختلاس النظر إليها، منذ كان صغيرًا لا تسعى أبدًا لنبش أغراضه السرية. تحبّ ان تشعره أنه غير مراقب. تذكر كيف كان في سنته الأولى في المدرسة يحضر في جيبي مريوله شيئًا من رمل الملعب ومعجونًا ملوَّنًا وطباشير، وعندما أنّبته لأنّ مريوله يتّسخ والرمل تتسلّل حباته إلى الغسالة وتسدّها، بكى وأجاب إنه لا يحبّها. لم يمتنع عن احضار هذه الأشياء لكنه بدّل موضعها وصار يخبّئها في سلة طعامه ويلزمها يوميًا وقتًا لتنظيفها وللتظاهر بعدم اكتشاف مخابئه.

صحيح أنها تسخر من نصائح ندى التربوية لكنها تطبّقها وتترك لابنها الوحيد فسحة لا تحشر فيها أنفها. كما امتنعت عن التباهي بتفوّقه وحلوله أوّلًا في صفه منذ صار في الثالث الابتدائي. رغم صغر سنه قال لها إنها تجعله يخجل حين تخبر الجميع بعلاماته.

في المرحلة المتوسّطة طلبت من راجي أن يحدّثه عن البلوغ، ضحك

ووصفها بالساذجة قائلًا إن ابنها ملّم بالجنس أكثر منها. وإنها ترفض فكرة ابتعاده عن أحضانها. لم يقنعها كلامه. اشترت موسوعة علمية عن جسم الانسان وعن سن البلوغ والتزاوج والانجاب. الصور التفسيرية أضحكتها. لكن نادر بعد أن نظر إلى غلافها، احمرّت وجنتاه ورمى المجلد بعيدًا على السرير، كأنه مسموم. قال لها: لماذا تقدّمين لي هكذا كتاب؟ زعل منها وامتنع عن مخاطبتها لأيام رادًا على أسئلتها بإيماءات من رأسه أو يديه.

حتى بعد أن فسّر لها زوج ندى سبب سلوك نادر ظلّت تسأله بين الحين والآخر إن اطّلع على المجلد لأن المعلومات فيه ستفيده في دروس العلوم الطبيعية. لا تحبّ أبدًا فكرة أن حقائق كهذه بإمكانه معرفتها من الأنترنت. كانت تردّ على زعم راجي بالقول إن ما يعرفه من الأنترنت مجرّد بذاءة تفسد المخيّلة والعاطفة. كانت تراقب صوته الذي اخشوشن وشعرات ذقنه وصدره، تحسّ بحزن لا تعرف سببه. تفكر إنه قبل أسبوع كان طفلًا. وتتساءل إن كان راجي محقًّا حين يتّهمها بمنع نادر من أن يكبر وأن معاملتها له ستفسد نضوجه العاطفي والاجتماعي.

أشياء كثيرة تبدّلت مع بلوغه. بدل أن ينفتح أكثر بات متقوقعًا على نفسه. حين يلتقي بأي فتاة من جيله يتجنّبها ويحمرّ كلما تلفّظ بكلمة. مع لينا فقط ابنة ندى يجد طلاقته السابقة، ربما لأنّهما يعرفان بعضهما منذ الصغر، يتبادلان الكتب والمجلات ويحكيان عن الموسيقى. لاحظت ليلى حماسه حين تسأله مرافقتها لزيارة ندى. لكن حين مازحته مرّة بشأن لينا غضب ونزل من السيارة رافضًا مرافقتها. كانت المرّة الأولى والأخيرة التي تتجرّأ فيها على الخوض في هذه المسائل ولو من باب المزاح.

لكن لينا كبرت بدورها وتحوّل اهتمامها إلى شبان يكبرونها سنًا، في المرات الأخيرة التي التقتها فيها، وجدت تحوّلها مفاجئًا، من صغيرة تربط شعرها على شكل ذيل حصان، إلى شابّة تصفف شعرها وتتبرّج

ولو بشكل خفي. حتى نظراتها وطريقة جلوسها ما عادتا تذكّران بالفتاة الصبيانية الحركات. وصار نادر مجرد رفيق لا جنس له بنظرها.

منذ أسبوع تردّ على أسئلة راجي بكلمات مقتضبة، جفاؤها الذي طال جديد عليه. كان يراضيها صباحًا بكلمة اعتذار أو بلطف ينسيها ما جرى قبل يوم. لكنها المرّة الأولى التي لا تنخدع فيها بأي من وسائله. حتى خوفها عليه تخفيه، تبتلع كلماتها في آخر لحظة. يتأمّلها تعدّ السندويشات لهم ثلاثتهم، يهمّ بقول شيء يحجم عنه هو الآخر. يثني على ثيابها، فلا تردّ. ماذا تقول له؟ إنها الثياب القديمة نفسها التي تلبسها منذ زمن بعيد. أو يمتدح طبخة نسيت أن تزيد لها البهارات أو أفسدتها بالأكثار من شراب البندورة والحامض.

لكن محاولاته تحزنها، تحوّله إلى شخص هشّ ووحيد. تتمنّى أن تضمّه كالسابق وتشمّ رائحة تعرّقه الممتزجة بالتبغ وبالعطر. إنه العطر القديم نفسه.

بأصابع مرتعشة يسكب فنجانًا ثانيًا من القهوة، يضغط سيجارته بقوّة بين إصبعيه يمجّها هاربًا بنظراته إلى السماء الزرقاء. يقول شيئًا عن اشتداد الحرّ. يسألها إن كانت تريد السباحة. تبتسم ولا تجيب. تعلم إنه مجرّد كلام. منذ سنوات ما عادوا يترافقون إلى شاطئ البحر. كانوا يقصدون شاطئًا مجانيًا في جبيل ويقضون نهارهم هناك. كان نادر صغيرًا حينها. وكان رفاقه يحملون برادًا نقالًا يملؤونه بالبيرة وبالفاكهة. كان راجي يفضّل الجلوس تحت المظلة. لا ينزل إلى الماء إلّا لبرهة حتى يتبرّد من حدّة الشمس. رفاقه ما عادوا أصدقاء لهم. وأصدقاؤه العابرون الجدد يتركون من مرورهم بحياتهم، لوحة ما هدية لاهتمامه بالتوسّط لهم أو منحوتة. لا تحبّها كلها، لكنها رغم ذلك علّقتها على جدران الممر وفي غرفة الجلوس. مرّة واحدة باع راجي لوحة وكان ثمنها خياليًا لهما

مكّنهما من شراء برّاد بدل ذاك الذي احترق محرّكه. اللوحات الأخرى هي لهواة أقاموا معرضًا واحدًا ثم انطفأت أسماؤهم.

لوحات راجي التي رسمها أيام الجامعة جمعت في قعر الخزانة. يرفض أن تعاود تعليقها، يصفها بالخربشات. لا تفهم هذا التناقض فيه، فهو من جهة يحسّ أنه مغبون لم يأخذ فرصته، ومن جهة ثانية يرى كل ما رسمه ساذجًا طفوليًا يفتقر إلى العمق. كان حين يسكر يقول لها إنه نكرة ولا قيمة لحياته، وهي تضمّه وتتمنّى لو أنها تملك القدرة على تغيير عالمه. حتى حين صار السّكر يحوّله إلى غاضب وناقم عليها وعلى نادر. كأنهما يتشاركان مع الكون في إتعاسه.

حين ذهبت برفقة صديقاتها لتعزية ايلي بوفاة والده، لم تجد ثيابًا سوداء لائقة ترتديها. استعارت ثوبًا من ميرا. في العادة تطلب من يارا لكنها منذ استدانت منها، تحسّ بخجل يكبّلها ما إن تراها. فتحت ميرا الخزانة وقالت لها أن تختار ما يناسبها. فاجأها فراغ بعض الغرف. هي التي تربّت ولعبت في هذا البيت، وحفظته بكل غرض فيه. كادت ألا تتعرّف عليه. لا أثر لصالون الستيل ولا لتمثال العاج. غرفة الجلوس، فارغة هي الأخرى إلّا من كنبة عريضة وطاولة في منتصف الحجرة. لا أجران ولا الأشياء القديمة المكدسة في الزوايا. الأطر المنزوعة عن الجدران تركت علامات وأشكال مربعات ومستطيلات. الدمى بثياب رقص اسبانية اختفت عن الدرسوار. والفضيات المعروضة في الواجهة الزجاجية لا أثر لها. الرفوف فارغة تمامًا. وحدها غرفة أهلها بقيت على حالها، ثياب نوم أمها وروبها معلقة على المشجب كأنها خلعتها للتو.

حين وصلن، كان صالون الكنيسة غاصًّا بالأقارب والمعارف. انتظرن خارجًا حتى يفسح لهنَّ

مكان. ليلى التي لم تر والد ايلي إلّا في مناسبتين، بكت طوال الدقائق التي استغرقها واجب العزاء. حتى جلوسها مع صديقاتها لاحقًا في مقهى

وأكل البوظه لم يبدّل مزاجها. وحين سألتها ندى إن كانت تفتقد نادر، أجابت بأن البيت فارغ في غيابه وهي لم تعتد أن يغيب كل هذا الوقت، أربعون يومًا وقت طويل.

شيئًا فشيئًا استُدرجت إلى جلبة الأخبار، واستمعت إلى ساره تخبر عن بيتها الذي عزمت على بيعه والانتقال إلى آخر خارج بيروت. أرَتهنَّ على هاتفها صور البيوت التي تفقّدتها في الضواحي، ليلى أعجبها البيت القريب من مدرسة الجمهور، أحبّت شرفته المطلّة ومدى اتساعها. لكن سارة تميل إلى بيت أنطلياس، بإمكانها تحويل السطيحة الفسيحة تقول إلى حديقة تزرع فيها بضع شجيرات، وتطل منها على منظر البحر.

في بداية زواجهما كانا يظنّان أن مكوثهما في بيتهما القائم في حي مكتظّ مسألة وقت. وكان راجي يرسم مخطّطات للبيت الذي يرغبان فيه. مرة يكون كثير الغرف وفي أحيان أخرى صغيرًا وحوله حديقة، يحرص راجي على رسم مختلف أشجارها ويلوّن زهرها دون أن ينسى الكلب الذي يطالب نادر باقتنائه منذ تعلّم الكلام.

حين انسحب الضوء، انصرفن. عادت ليلى بسيارة ميرا، وعندما لاحظت أن السيارة تذهب في طرقات بعيدة عن البيت لم تعترض ولم تسأل. على العكس تمنّت ان تقود ميرا دون توقّف إلى أبعد مكان ممكن. التبريد أشعرها بالنعاس، أغمضت عينيها ولم تفتحهما إلّا حين لكزتها ميرا. كانت المصابيح تضيء الكورنيش المليء بالمشاة وبالمتنزهين. لكنها في اللحظة نفسها تخيّلت راجي وحده. لم يأكل، هذه عادته حين لا يجدها. سكب كأسًا وبقي قي ثياب العمل، خلع حذاءه وشغّل مروحة السقف، أزيزها ينعسه فيغفو لثوان قبل أن يجفل ويفتح عينيه. غالبها حزنها عليه فما عادت قادرة على الاستمتاع بالتمشية.

فتحت الباب وهي تشعر بشيء من الخجل فالساعة جاوزت التاسعة مساء ولم تترك له لا رسالة صوتية ولا شيء لإبلاغه بمكانها.

كان واقفًا إلى الشباك المطلّ على الشارع يشرب من كأسه. لم يستدر حين دخلت، بل قال بنبرة لئيمة: «أهلًا وسهلًا ست ليلى، لا تكلّفي خاطرك وتعلميني بمكانك. من أكون أنا؟ مجردّ ظل في هذا البيت». ردّت أنها لم تنتبه للوقت، لكنه قذف بمنشورات فوق الطاولة الصغيرة، تتطايرت في كل اتجاه. رجته ألّا يغضب وأنها حقًا آسفة، وهو يعلم أن هذا التأخير مخالف لعاداتها. قال إنه فعل المستحيل لإسعادها، لا يفهم ماذا فعل لها لتعاديه هكذا. كان خوفها يخرسها، وبينما تخلع الثوب الأسود اقتحم الغرفة مضيفًا إن أهله مرّا للزيارة وأنه بدا أمامهما مرتبكًا لا يعرف أين الزوجة المحترمة. ثم دفعها وهي على السرير فانقلبت على ظهرها، قال: «مشغولة حضرتك مع صديقتك أكيد تؤلّفين لها أخبارًا عن حياتك البائسة». حين رفعت جذعها بحذر اقترب مجددًا منها. دون انتباه حمت رأسها بيديها. ابعدهما بعنف قائلًا: انظري إليّ، هذا الحال لا يمكن أن يدوم. قالت بصوت خفيض: «كما تريد». كأن كلماتها أشعلت غضبه من جديد فقال: «مسكينة أنتِ! كم أنت بريئة».

تعلم أن دموعها تزيد من غضبه لكنها كانت تنهمر من تلقائها. لو أن الحزن يقتل لماتت منذ زمن طويل. كانت أنفاسه مريضة تلك التي تملأ جو الغرفة. لو أنه يقبل فقط أن يستشير الطبيب. احتقان عينيه ووجهه لا يمكن ان يكون سببه الشرب فقط. فكّرت لو أنه يعلم كم تنشغل عليه وكم تؤرقها هواجسها، لأشفق عليها. لا تدري ما تفعل، سواء سكتت أم تكلّمت تعجز عن تهدئة ثورته ونقمته.

كانت تصدّق سابقًا تآمر الموظفين أو الفنانين أو الأصدقاء ضدّه. تألّمه الشديد في سرد ما فعلوه، كان يدفعها إلى ضمّه طوال الليل علّه ينسى جرحه. لم تشكّك يومًا بصدقه، إلى أن انتبهت إلى ميله لتفسير الأمور على غير حقيقتها.

حصل ذلك عندما كان أصدقاؤها يأتون للسهر في بيتهم. كانت

ضحكاتهم استخفافًا بحديثه وتبادلهم الهمس موقفٌ ضدّه. وتشتّتهم عن قصص يرويها قلّة احترام له. حتى أهلها لم ينجوا، فيارا تتقصّد زيارتهم في غيابه، ووالدها الذي أصلح انسداد الفرن يعيّره بنظراته بعجزه وقلة الحيلة لديه. وأمها التي أهدت نادر حذاء رياضيًا تظنّه أبًا مقصرًا في واجباته. وأخوها منذ صار يعمل في الخليج ينظر إليه باستعلاء. أما هي فقلقها عليه هو تملّك. ومصارحتها له تصرّف أناني. ووصفها لما فعله ليلًا افتراء من مخيلتها المريضة.

اختلّ كلّ شيء في عقلها، لا نظرتها إلى نفسها بقيت على حالها ولا رؤيتها للناس والعالم حولها سلمت من هذا البركان في داخلها. لم تجد في لحظات كهذه إلّا موتها. تتخيّله بطرق مختلفة، ترتاح وتتنفّس بعمق كأنها نجت للتو من الغرق، لكن نادر؟ تسأل نفسها. لمن أتركه وحيدًا؟

رغم الحرّ اختارت قميصًا يغطي زندَيْها. أصابعه التي أمسكت بها تركت كدمات تلونّت بالأزرق ثم اتّسعت رقعتها لتصطبغ بالأصفر والبنفسجي. تعلم أن منظرها سيجذب النظرات الفضولية. كما إنها فقدت مهارتها في اختراع الأكاذيب. على أية حال لا أحد يصدّق أن كدمات كهذه سببها وقعة أو اصطدامها بالأبواب وبمسكات الخزائن. ليست في الأخير لا عمياء ولا كسيحة. الرضّة التي أصابت خاصرتها في الشهر الماضي لم تحرجها، لا يمكن أن تُرى. الوجع شيء تحمّلته، لكن تذكّرها كيف دفعها بكراهية، لتصطدم خاصرتها بطرف الطاولة هو ما ظلّ يؤلمها.

نادر على خلاف عادته بات يرسل لها يوميًا رسالة صوتية. تعجب من التبدّل الذي أحدثه المخيّم على نفسيته. الحماس في نبرة صوته جعلها رغم شوقها إليه تفرح لابتعاده عن البيت.

زارته برفقة يارا، وقد بدا لها أكثر نضوجًا كأنه خلال أسابيع كبر سنة. الشمس أزالت بياضه الثلجي. تقاسم مع الصغار الكاتو الاسفنجي الذي

أعدّته ليلى له. سألته يارا إن كان يرغب في العمل خلال شهر أيلول في مكتبة قريبة من بيتها. قالت إنّ صاحبها يحتاج من يساعده في بيع الكتب المدرسية والقرطاسية. كأنّ يارا تتقصّد إبعاده عن البيت دائمًا. هكذا فكّرت ليلى. في عطلة الفصح الماضي طلبت منه أن يساعد ابنها ناجي في مراجعة دروس الرياضيات بحجة أنه يجد صعوبة في هذه المادة. لم تسألها ليلى لماذا لا تساعده هي أو زوجها.

صحيح أنها تشتاق لنادر لكنّها تريد له أن يأخذ فسحة بعيدًا عن جو البيت المشحون. المال القليل الذي كسبه في تدريس ناجي لم يصرفه، اشترى به هدية لها في عيدها. كانت أول هدية يشتريها كما قال بماله الخاص، حقيبة يد بلون الجلد الفاتح. أبدت سعادتها بها فقامت على الفور بإفراغ القديمة التي تفتّت جلد أطرافها، وحملت الحقيبة الجديدة بزهو. وتبخترت بها. نظرت إلى وجهه المشرق بعينين دامعتين.

لا ينسى عيدها أبدًا منذ صغره. اعتاد أن يرسم لها أو أن يُرفِقَ ذلك بعبارات: «بحبك ماما» ما إن تعلّم الكتابة. ثم بات يسجّل لها مجموعة من الأغاني لتسمعها في السيارة أثناء القيادة. كانت أغاني يتخيّل أنها قد تعجبها، وهي لكثرة ما تسمعها تعتاد عليها وتألفها، وتصبح خبيرة بالاتجاهات الموسيقية المعاصرة والشبابيّة.

كان راجي أيضًا يتذكّر في بداية زواجهما عيدها وعيد زواجهما. الآن لا ينتبه أبدًا وحين حضّر لها أصدقاؤها مفاجأة في عيدها الرابع والثلاثين، عاشت ليلة من أسوأ ما مرّ عليها. طوال مكوثهم الذي لم يتجاوز الساعة، التزم الصمت. وحين كان يردّ على أي منهم، يفعل بتهكّم أو يجيب بجفاء واضح. انتهت ليلتها بمشادّة لم تتوقّعها. سألها إن كانت تظنّ أن هذه الاشياء دليل حبّ لها. حين لم تجب متابِعةً جمع الأكواب والصحون فوق صينية تحملها. نهض من مكانه قائلًا: «ما بك لا تردين؟». ثم دفعها بكل قوته. سقطت على الكنبة وأوقعت الصينية. تناثر الزجاج مالئًا أرجاء

الغرفة. الجلبة وصراخ راجي أيقظا نادر من نومه، ووقف حافيًا في بيجامته ينظر باكيًا إلى أمه، وقد جرحت شظايا الأكواب المحطّمة أصابع قدمَيها. كان صغيرًا حينها يبكي ما إن يرتفع صوت شجارهما. أصابها الهلع من أن يمشي باتجاهها ويدمّي قدميه الحافيتين. طلبت منه ألّا يتحرّك ويبقى جامدًا، ثم ادعت أنها تعثرت. ردّ: «سمعتكما وأنتما تتشاجران». أجابت إنه نقاش عادي. وإنه مخطئ وربما رأى كابوسًا.

تخيّلت أنها تقنعه حين تتستّر على ما يحصل أو حين تحكي له الأكاذيب بحجة حمايته. لم تدرِ أنه يفهم كل شيء، وأنه يراكم قهرًا سوف يمنعه أن يعيش كأيّ صبي في عمره. هي أيضًا اعتادت العيش بحذر، لا تأمن لفترات السكينة في حياتهم، تعلم أنها متبوعة حتمًا بخلافات واضطرابات يطول أمدها.

في العمل أربكها أن يُطلب منها عشرون دولارًا قالوا إنهم يجمعون المال من أجل هدية زواج لارا الموظفة الجديدة. ردّت دون أن ترفع عينيها عن شاشة الكمبيوتر إنها ستدفع لاحقًا في آخر الشهر. سابقًا كانت تقول، لا أحمل حافظة النقود او نسيتها أو ترجئ الدفع ليوم آخر. لا يمرّ أسبوع دون مناسبة تستدعي اشتراكهم في هدية. تحسّ أنها الوحيدة التي تحمل همّ التكاليف مهما صغرت. لا تشاركهم طلب الطعام ظهرًا ولا الخروج من حين إلى آخر إلى مطاعم قريبة، حتى الحفلة السنوية التي يقيمها المصرف سنويًا تتغيّب عنها. لا تستطيع أن تشتري ثيابًا باهظة كالتي يرتدونها ولا أن تصطحب راجي. من يكفل عدم تجاوزه حدوده في الشرب. حتى الموت مكلف، فالأكاليل التي يختارونها غالية. أشياء تملؤها غيظًا.

الطعام في بيتهم يتحوّل أيضًا كلما اقتربت من نهاية الشهر إلى الحبوب مستغنية عن اللحوم، وإن وجد بعضها في الثلاجة توفّره لنادر. تبتكر طعامًا مما تجده في خزانة المونة، أو في البراد. في عملها لا تحاول

أبدًا أن تستجيب لزميلات راغبات في صداقتها. لا تريد أن يقترب أحد من حياتها.

كانت أيضًا تخجل من أخوتها الذين يتشاركون في هدايا يقدّمونها في مناسبات كأعياد ميلاد أبويهم أو عيد الأمهات. لكن يارا كعادتها تسارع للقول إنها ستدفع ما يترتّب عن ليلى وتأخذه لاحقًا منها. هدايا تثقل عليها بعبئها وتخجل من الاعتراض. فما الداعي لحلى غالية لن تتزيّن بها أمها على الأرجح إلّا مرات قليلة، وما حاجة والدها لساعة يجاوز سعرها الألف دولار. أو لبدلة لن يرتديها إلّا في مآتم لرفاق بسطاء. عاشا عمرًا من التقشّف ولا ترى أن هدايا كهذه تفرحهما. أخواها منذ عملهما في الخليج صارا يملآن البيت بآلات حديثة. التلفزيون في غرفة الجلوس عند أهلها ضخم كشاشة سينما. أمّها لا تشغّله تفضّل عليه القديم الذي وضعته في المطبخ، أما المايكرو وايف فغطّته بشرشف من الكروشيه وحين تُسأل عنه تجيب إنها تفضّل استخدام البوتاغاز. ضاقا بآلات تحتلّ مساحة في بيتهما الصغير، وكانت أمها ترجوها من حين لآخر أن تأخذ الغسالة الأوتوماتيك التي لم تشغّلها أبدًا. أو المقلاة الكهربائية، آلة حيّرتها وبقيت تسأل منذ علمت سعرها الباهظ عمن يحتاجها؟ وممّ تشكو المقلاة العادية؟ لو علم أخوتها مقدار الغيظ الذي تحسّه لامتنعوا عن مثل هذه المبالغات. طوال حياتها كانت أمها أمرأة بسيطة، تُفرِحها قنينة عطر رخيص يقدّمونها لها في عيد الأمهات. حتى الأطر الخرقاء التي أعدّوها في في صغرهم أفرحتها ولا تزال تلك الأطر تحوي صورهم الموزعة فوق الدرسوار. أما والدها فلا يزال يستخدم العدة التي أهدته إياها عندما كانت في المرحلة الثانوية. كانت سعيدة بأنها تحصّل مالًا مع ميرا من الدروس الخصوصية. وكانت في كل مرة تشتري لأحدهم شيئًا. اشترت ليارا حقيبة كتب جديدة بدلًا من البالية المتوارثة من أخوتها. ولأخيها ابراهيم لعبة بوكيمون، وليوسف حذاء رياضيًا من ماركة مقلَّدة.

لكنها حتى الآن تذكر كيف كان لا ينام إلّا بعد أن يضع حذاءه على مقربة منه. وحين يفتح عينيه يتفقّده على ضوء النوّاصة ثمّ يعود لنومه. يواظب على مسحه وعلى تأمّله أثناء سيره.

كان يمكن لعيشهم أن يكون أفضل لولا تكاليف المشروب والتدخين التي تتجاوز المليون ليرة شهريًا. أشياء كثيرة تفعلها بهذا المبلغ. على الأقل سيرتاح رأسها من الحسابات المعقّدة. سيتاح لها أن تفعل امورًا بسيطة حُرمت منها.

في السيارة حين تقود وحيدة تحكي مع نفسها بصوت عالٍ، تجادل، تعاتب راجي تقول كل ما تكبته، لا يقاطعها ولا يدفعها أو يقهرها برمي تهم باطلة. تبكي. أحيانًا تلوم نفسها وتحفّزها على التمرّد. لكن ما إن تصل البيت وتتخطّى العتبة حتى تتحوّل إلى نعجة فزعة.

مؤخرًا تطيل وقت مكوثها خارج البيت خاصة أيام العطل. شراء الأغراض يلزمه وقت مضاعف. تتفرّج على البضائع تقرأ محتوياتها. تردّها إلى الرفوف، تدور بين أروقة السوبرماركت جارّة عربة شبه فارغة، تتأنّى كي تخفّ عجقة الصناديق. وحين تزور أهلها تتبرّع بالقيام بمهمات أمها المشغولة بالعناية بزوجها المصاب، تشتري أغراض بيتهم والأدوية. تختار أبعدها مسافة، متجاوزة هوسها بمصروف بنزين السيارة. أو تسرف خلال الأمسيات بأعمال التنظيف، وحين تنتهي منها تنصرف لكي الثياب المغسولة. حتى الجوارب تكويها. تلمّع زجاج النوافذ مرتين كل أسبوع، وحين يضيق راجي بحركتها المتواصلة، تتوقّف على مضض.

كأن يارا تقرأ ما في قلب أختها. حين تريد أن تراها تتصل بها، تسألها أن تلاقيها مع نادر إلى أسفل البناية. تبتكر دعوات لأكل البوظة أو اصطحاب الأولاد إلى معارض كتب أو إلى الملاهي أو للسير في الوسط التجاري. كانوا يتجوّلون في المولات الكبيرة يتفرّجون على البضائع، على الناس، وتتساءل ليلى في سرّها لماذا ليست مثلهم. تحسدهم على ضحكهم. وفي

أحيان أخرى تشعر بالغربة التامة. الجموع تزيد من وحدتها. تفضّل حين يذهبون لمشاهدة أفلام لا يهمّ أن تكون مناسبة لأعمار الأولاد. تضيع لأكثر من ساعة في ألوان الشاشة، تحملها الأصوات إلى عالم نسيت أنه موجود. تتخيّل حياة أخرى ربما لا تكون فيها متزوجة لكن حين يصل تفكيرها إلى هذه المسألة يقتلها الذنب وتفكّر بنادر. تحوّل تفكيرها لكنها تعجز عن ايجاد ما يريحها، تستسلم لأصوات الشاشة وشهقات الأطفال حولها. مع الوقت أخجلها أن تصر يارا على دفع تكلفة هذه المشاوير بحجة أنها دعتهما.

عاد نادر من المخيّم بروح مرحة. لم يتملّص من ذراعَي أمه وهي تضمّه. وحين سألته رأيه بإكمالها دراستها، فاجأها حماسه. هو الذي يردّ عادة على أحاديثها وأسئلتها بجوابين إما هزة رأس وإما لا. وفي الحالتين لا يكون منصتًا لها. لم تدرِ إن كان السبب هو علمه إنه الوحيد الذي أخبرته بعزمها أم لأنّ المخيّم أعاده مختلفًا. حتى حين فصّلت له موضوع دراستها، بدا مهتمًا، لكن أكثر ما أثّر فيها هو تلك النظرة التي لم ترها في عينيه منذ سنوات. حين كانت الشخص الأهمّ في عالمه.

اقتراب عودة راجي ملأها بالتوجّس، لا تريد أن ينغلق نادر على نفسه مجددًا. تريد أن يجلس قبالتها إلى طاولة المطبخ، ويخبرها كما في صغره قصص لعبه وخلافاته وصداقاته وما قاله المعلمون وما تعلّم. تحب أن يملأ صوته الفراغ حولها، وتضحك معه وتلعب كما كانت تفعل. تريد أن تتظاهر أنها اللص الهارب وهو رجل الشرطة الذي سيلقي القبض عليها. أو تلعب معه بالكرة وتسمعه يضحك منها حين يغلبها في لعبة الشطرنج أو الداما.

أراها الصور التي التقطها لمجموعة الصغار الذين أشرف عليهم، للحرش حولهم، لحفلات النار، للمدربين الآخرين. كان ذلك أطول حديث يجري بينهما منذ أكثر من ثلاث سنوات.

حديثها عن دراستها ارتجلته لحظة رأت نادر. أرادت هي الأخرى أن تخبره شيئًا جديدًا. لم تفكّر بأنّ عليها أولًا أن تقصد الجامعة وتتسجّل وأن تنال موافقة المصرف الأكيدة. الآن بات عليها ألّا تخذله.

كانت المرّة الأولى التي تلتقي فيها زميل راجي. أمسك راجي من إبطه، وبصوت هامس أراده مطمئنًا، قال إن راجي أصيب بتوعّك في العمل. في الطوارئ قال الطبيب إن السبب هو ارتفاع ضغط الدم إلى 21. كأنه يخشى أن يخبرها كل شيء دفعة واحدة. سكت وساعدها على إدخاله إلى غرفة النوم. نزعت حذاءه، لكن راجي اعترض حين مددته. رفع جذعه وبقي جالسًا متكئًا إلى وسادات جمعتها خلف ظهره. وقفوا ثلاثتهم حول سريره مرتبكين. نظر راجي إليهم بعيون أذبلها النعاس، حاول ممازحتهم «لست ميتًا. ما بكم؟ إنه مفعول الابرة التي أعطوني إياها». كانت ليلى مضطربة، تكرّر سؤالها عمّا حصل دون أن تلقى جوابًا.

بقي نادر واقفًا، يتأمّل والده يقاوم ارتخاء جفنيه. حتى بعد أن غفا، استمرّ في جموده. وعلى وجهه حزن.

تبعت باسل زميل راجي حين خرج من الغرفة ووقف في الممر. لم تقل حين عرّفها باسمه مادًا يده لمصافحتها إنها تعرفه. مئات المرات تكرّر اسمه في السنتين الأخيرتين «باسل لا يفهم شيئًا في الفن، باسل مجرّد مقاول، باسل حمار في التعامل مع الناس». اللازمة الليلية التي تسمعها ما إن يشرب. خاصة حين يعود متكدّرًا من شغله.

كان باسل ينتبه لكلماته كأنها تدور في رأسه عشرات المرات قبل أن يتفوّه بها. خوفها جعل الأشياء تصلها كلمات مبعثرة. ربطتها لاحقًا لتستوعب ما حصل.

في فترة بعد الظهر، أصابت راجي دوخة ونزيف حادّ من أنفه، الطبيب أصرّ على أن يبقيه في المستشفى لإجراء الفحوصات ولمراقبة ضغطه، لكن راجي رفض واعدًا في العودة إلى المستشفى في اليوم التالي. كانت

تكرّر السؤال عمّا قال الطبيب عن سبب هذا الضغط؟ وكان يجيبها بحذر وهو يرى دموعها تغسل وجهها، وتغصّ بالكلمات. تخفض عينيها خجلة من ضعفها أمام غريب. قال إن المهدئ سينيمه وإن آلة الضغط المربوطة به ستتيح للطبيب أن يعلم إن كان الارتفاع عابرًا أم لا. شكرته وسألته أن يرتاح ليشرب ليموناضة. جلس عند طرف الكنبة يشرب الكوب بجرعات كبيرة، كأنه يؤدّي مهمة مستعجلة. ناولها ورقة دوّن عليها المحظورات التي طلب الطبيب من راجي أن يتقيّد بها. كأنّ هموم العالم سقطت فوق رأسها. كيف تقنعه بالتوقّف عن التدخين والشرب؟ ألم يسبق لطبيبه القديم أن منعه؟ ليس التقليل من الملح واللحوم والقهوة وغيرها هو الصعب. فراجي منذ بداية تعارفهما لا يهتمّ كثيرًا للطعام. يأكل كميات قليلة وليس متطلّبًا. حين لحظ إطراقها ووجومها، حكى عن عمه الذي عانى منذ شبابه من الضغط وكيف أن تناول الدواء بانتظام حماه وهو يعيش حياة طبيعية جدًا. ابتسمت بصعوبة، كأن شفتيها اللتين أطبقت عليهما بقوة لا تمتثلان لإرادتها.

ركضت باتجاه الممر حين سمعت راجي يسحب قدميه بثقل، كان نادر يسنده ويساعده للوصول إلى الحمام. بعينين شبه مغمضتين نظر إلى ليلى وسألها عن باسل. ثم رفع صوته ممازحًا: «خوّفت زوجتي؟ ماذا قلت لها؟.» كان مزاجه الرائق يتعارض مع ما أصابه. أسندته من الجهة الأخرى وتعاونا لإجلاسه فوق المرحاض. أخرجت نادر بحجة مجالسة الضيف. صعب عليها أن يرى والده ضعيفًا هكذا. كأنه ليس في الثالثة والأربعين من عمره. أنفاسه المريضة تصفع وجهها فيما ترفع بنطاله. لونه رمادي. لا احتقان اليوم في وجهه الذابل. ألبسته بيجامته رغم معارضته. لم تفهم لماذا يمانع، وإلى أين يظنّ نفسه ذاهبًا. كان يغفو لدقائق ثم يفتح عينيه مجددًا ناظرًا حوله باستغراب. يلزمه وقت ليستعيد ذاكرته. وحين سأل عن باسل، تذكّرت وهرعت باتجاه غرفة الجلوس. وجدتهما واقفين

في الباب، صامتَيْن، ما إن أقفلت الباب حتى عاتبها نادر على تركه وحيدًا مع شخص لا يعرفه. كان غاضبًا بحق منها. لكنها تعلم أن مرض والده أربكه وليس مجالسته لرجل لا يعرفه.

الوعكة التي أصابت راجي شجّعت ليلى على ابداء اعتراضها عندما يدخّن أو يشرب. بداية امتنعت عن شراء الويسكي، لكنه كان يمر ّبالسوبرماركت القريب من بيتهم ويشتري قنينة. أو يمرّ بأهله ويعود ليلًا مترنحًا. كان يقول: «كأس واحدة فقط». ثم تكرّ الكؤوس وتحسّ هي بضغط سيفجّر قلبها. نادر كان ينام عند خالته لقرب المكتبة التي يعمل فيها من بيتها. في المرّات القليلة التي كانت تسمع فيها صوته تجده مرتاحًا. وحدها امتلأت مخيّلتها بصور ترعبها محورها راجي. تتخيّل أنواعًا من الفالج، أو ذبحات قلبية تبكيها وهي تقود سيارتها. السيارة باتت الصديقة التي فيها تطلق العنان لهواجس ولأحزان تحكيها بصوت عال غير آبهة بفضول سيارات تحاذيها. كانت في إصرارها على منعه تستجلب غضبه، ويعود صراخه بسبب أو دون سبب. ينتزع الجوارير مسقطًا إياها أرضًا إن بحث عن أوراق لا يجدها. يتّهمها برميها أو بإضاعتها أثناء التنظيف. أو يقول إن من يعيش في هذا البيت إما يجنّ أو يشرب. في لحظات كهذه تنسى نفسها المُهانة وينصبّ اهتمامها على تهدئته خشية أن يرتفع ضغط الدم. عندما تنام قبله، تجفل من عزّ نومها وتهرع دون تفكير إلى غرفة الجلوس المضاءة. تتأكّد أن ليس به شيء. وفي مرّات كثيرة تجده غافيًا، تقترب منه وتلمس جبهته لإيقاظه بنعومة. ترى في عينيه غيابًا لأي ادراك. يستفسر عن الساعة، وحين تسأله أن ينام، يجيب أنه سيلحق بها. يجافيها النوم حينها وتبقى مترقبة ايواءه للسرير عبثًا. كأن لديه واجبًا ليليًا هو إفراغ القنينة تمامًا.

محاولاتها في جعله يشرب أقلّ دفعها أحيانًا إلى سكب بعض مما في القنينة ما إن يدخل الحمام. تجمع ما تخفيه في قنينة فارغة. صحيح

أنه لم ينتبه لكنه صار يشتري مشروبًا إضافيًا كأن هناك معيارًا لا يستطيع أن يختلّ. امتنعت ووجدت أن وسائلها بلهاء. حكت له أثناء شربهما القهوة قصصًا عمن يخضعون لعلاج من أجل مساعدتهم في التوقّف، وأجابها إن ذلك قد يكون حلًا. هذه الجملة جعلتها تحلّق عاليًا طوال يومها. تبتسم لمن حولها تجري أحاديث معهم، لا يهمّ عدد خيباتها السابقة صدّقت هذه المرّة أن حاله سيتغيّر. رسمت لها أحلامها حياة هانئة، استعادت وجهًا قديمًا لراجي، ذاك الذي أحبته ووجدته مختلفًا عن الوجوه المكرورة الباهتة. اشتاقت لنظرة حانية في عينيه، لعناقه لها طوال الليل. كان يشدّ جسدها إليه كأنه يودّ أن يذوب فيها. تريد ان تنسى برودة السنوات وركضها المحموم لتأمين حياة لا تريدها.

لكن الليل يمحو كلام النهار. قال حين أرته عنوان الطبيب ورقم هاتفه، إن عليها هي أن تأخذ موعدًا، ربما تتوقّف بذلك عن افساد حياته وحياة نادر. لم تستطع أن تلزم السكوت، أجابت إنه هو من يفسد حياتهم، هو من يدمرّ ابنه الوحيد بسلوكه المستهتر، هو من حوّلها إلى عجوز وهي في عزّ صباها. بكاؤها شوّه كلماتها التي خرجت متقطّعة، كان قلبها يخفق بسرعة أحست أنها تحتاج أن تركض بعيدًا بأقصى سرعتها.

قادت سيارتها دون وعي، وحين توقّفت أمام بناية ميرا، رفعت عينيها إلى النوافذ المعتمة. لا تدري كم استمرّ وقوفها، فكّرت أن لا مكان تلجأ إليه. ثم ماذا لو أصاب راجي شيء في غيابها؟ لا تعلم كم انتظرت، لكن حين لمحت شابًا يمشي باتجاه البناية، أسرعت في الانصراف.

كانت الشوارع شبه فارغة، بين الحين والآخر تظهر شلّة صاخبة، أو روّاد خارجون من المقاهي والمطاعم. كلاب شاردة قرب مكبّات تبعثرت حولها أكياس النفايات. عند اشارة حمراء، انقضّ شخص بعصا ضاربًا سيارة مركونة، أحسّت أن الضربات تنهال عليها. دعست دواسة البنزين وقادت عائدة رغمًا عنها.

أوقفت السيارة في مكان يواجه بنايتهم، لم تستطع أن تترجّل. بحثت في صندوق السيارة عن علبة سجائر أخفتها في محفظة صغيرة. الحرّ شديد، وليس هناك نسمة واحدة. النور في غرفة جلوسهم يوّج وحيدًا في عتمة البناية. مصباح الشارع يكشفها لكن باستثناء درّاجات تتسابق في شارع محاذٍ، لا شيء لا مارة ولا سيارات. الساعة تشير إلى الثانية والربع. تخيّلت التعب الذي سيستولي عليها في عملها. بإمكانها أن تبقى هكذا حتى طلوع الصباح.

لم تنتبه لإغفاءتها. انتشلها من نومها صوت سيارة تحاول أن تركن قريبًا منها. نامت لأكثر من ساعة دون أن تحسّ. يدها الممدودة خارج الشباك أسقطت السيجارة أثناء نومها. لمبة غرفة الجلوس لا تزال مضاءة. ثيابها التصقت بها، من لزوجة الرطوبة. تريد أن تستلقي قليلًا وترتاح، لكن الخوف منعها. حين استجمعت شجاعتها أخيرًا، كان ضوء الفجر قد بدأ يبدّد العتمة حولها. دخلت بحذر، أقفلت الباب على مهل. خلعت المشاية التي تنتعلها، وما إن خطت باتجاه غرفة النوم حتى سمعت من الحمام أصوات أنين. هرعت كالمجنونة باتجاه الحمام، كان راجي يجلس أرضًا متكئًا برأسه إلى حافة المغطس، القيء لطخ كرسي المرحاض والمغطس، كان ثقيلًا وهي تسنده، ارتخاء جسمه زاده وزنًا. كانت في رعبها تبكي بصوت يشبه العويل، كان متلاشيًا تمامًا، لم تستطع أن تذكر أين وضعت آلة قياس الضغط التي أعطتها إياها أمها. حين وجدتها، لم تستطع أن تقيس ضغطه، كان عقلها يذهب باتجاهات عديدة. لو أن أحدًا يسعفها. ماذا لو كانت اشارة لذبحة. لو حصل له شيء سأموت، كانت تكرّر في نفسها. تمنّت لو أن نادر هنا. خافت أن تبتعد عنه لتجلب هاتفها. حشرت وسادة تحت رأسه، تأرجح بثقل يمينًا وشمالًا. كانت تربّت على خديه وتقبّل جبهته، تقرّب كوب ماء ليشربه. وحين فتح عينيه أخيرًا، قال لها إنه بردان. دثّرته بغطاء سميك. إغفاءة قصيرة تبعها

مغص شديد، لم يستطع أن يصل إلى الحمام تقيّأ في ارض غرفة النوم. شعرت بذنب وفكّرت أنها سبب مرضه، لو لم تغادر البيت وتتركه وحيدًا لما حصل له ذلك.

لأوّل مرة تتغيّب عن عملها بحجة كاذبة. قالت إنها مريضة. حين غفا أخيرًا لساعة دون أن يهرع إلى الحمام، ارتاحت. كانت تفرك الحمام وتنظّف البلاط لمّا سمعته يناديها بصوت ضعيف. أراد أن يشرب، لكن الوهن صعّب عليه رفع جذعه فأسندته مقرّبة الكوب من شفتيه. كان يجد مشقّة في ابتلاع جرعات الماء، مسحت وجهه المبلّل بالعرق، ذقنه النابتة زادت من هيئته السقيمة. لم يقوَ على الكلام حين سألته إن كان تحسّن.

لم تتصل بأمها لتسألها عن علاجات منزلية. لا تريد أن تعلم أمّها شيئًا عن راجي. لا يهمّ أن يحدس الآخرون الحقيقة، ما يريحها هي أن تبقي هذه المسائل مطمورة عميقًا في نفسها. وحين تسألها أمها كما اعتادت عن سرّ وجومها؟ ستخترع حججًا كاذبة تتعلّق بالتعب، بالعمل، بزملاء غير متعاونين، بنادر، أو بصداع الرأس، وبكثرة المشاغل. لا يهمّ ألّا يصدّق أحد.

تبحث على غوغل عن وصفات مفيدة، لا تجد إلّا الماء والحامض متوفّرَين. لا زنجبيل ولا عسل عندها. أضحكتها نصيحة الخروج إلى الهواء الطلق لممارسة الرياضة. الرياضة الوحيدة التي يقوم بها راجي هي السير من غرفة إلى أخرى.

حين اتصل بها نادر أخفت عنه أنها ليست في العمل، تركته يكلّمها همسًا ليعلمها بأنه لن يعود السبت إلى البيت. سيرافق خالته وعائلتها إلى البحر. بقيت صامتة على غير عادتها، إذ في العادة تنهال عليه بأسئلة عن أكله وعن راحته وعما إذا كان معه ما يكفي من مصروف، وإن كان يحتاج أي شيء.

كان يحيّرها نادر باختلافه عمن في عمره، لم يطالب يومًا بمصروف.

والمال القليل الذي تعطيه إياه يرفضه أحيانًا بحجة أنه لم يصرف ما أعطته إياه سابقًا. لا ترتاح للأمر، وتشعر أنها حمّلته مسؤولية مبكّرة دون أن تعي، رغم حرصها الشديد في إخفاء مشاكلهم المادية عنه. حرص وهميٌّ لا ينطلي على أحد.

غاب راجي ليومين عن العمل. في اليوم الأوّل لم يشرب نقطة كحول واحدة. كان عاجزًا عن النهوض، الدوخة تمسك به ما إن يقف على رجليه. كانت تسنده متبعة خطواته الوئيدة. في يومين كبر أكثر من عشرين سنة. في المطبخ كانت تبكي وحدها وهي تعدّ له اليانسون أو حساء من خضار ذابلة في البراد. الدواء أعاد ضغطه إلى حدود مقبولة، لكن ما كان يقلقها هو حالات النسيان التي زادت لديه. يسألها عشرات المرات إن اتصلت بالغاليري وماذا قالت لتبرير غيابه. تعيد دون أن تخبره إنها سبق وفعلت. أو يسألها عن نادر ولماذا يبقى عند خالته؟ هذا عدا سؤاله المتكرر عن اليوم. تجيب إنه الأربعاء. كان صوته خافتًا لا يطلع منه إلّا بجهد. لا تزال حتى السوائل ثقيلة على معدته. يقول حين تصرّ عليه لشرب القليل من الحساء، إنه يشعر بالامتلاء والتخمة. انتفاخ بطنه كان ملحوظًا أكثر من العادة. لم تنفع لا المشروبات الساخنة ولا أدوية المغص في التخفيف منه. كانت هي الأخرى تعيد عليه توسّلاتها ذاتها بأن يرافقها لزيارة الطبيب. كان يرفض قائلًا إن لا حاجة للطبيب هو يعلم ما به. إنه سندويش الشورمة اللعين الذي أكله ظهرًا في شغله. يكرّر: «ماذا سيقول الطبيب؟ تسَمّم؟ أعرف ذلك، لا نحتاج لأن ندفع له مئة دولار ليخبرنا بشيء نعرفه». يلهث كأنه كان يركض مسافة.

كانت قلقة بشأن غيابها، حتى في حالات المرض تذهب إلى العمل. كان راجي يسخر من تفانيها متسائلًا ماذا يفيدها ذلك، لن تكسب لا تقديرًا ولا ترقية، ستمرض أكثر. وحين تجيب إنها شخصيتها ولا تستطيع أن تغيّرها، يردّ: «ليتك تذكرين أن المصرف ليس ملك والدك. لا تملكين منه حتى نصف سهم. هم يثرون وأنت تمرضين».

تعلم أنّه محقّ لكن كيف تغيّر طباعها؟ تحسّ ان هناك أمورًا ستتعرقل إن غابت. كأن الدنيا ستنقلب رأسًا على عقب. المعاملات ستمتلئ بأخطاء لن يكتشفوها إلّا بعد ساعات مضنية من التدقيق.

رغم ضعفه، أحسّت بشيء من السكينة لامتناعه عن الشرب والاكتفاء بالقليل من السجائر. كانت تجلس قريبًا من سريره. تسلّيه بأخبار عن زملائها، بعضها من نسيج خيالها. يضحك أحيانًا، أو يحاول بدوره أن يحكي قصصًا. لا تقول إنه أخبرها إياها مرات عديدة. عيناها معلقتان بشفتيه المشققتين، باللعاب المتجمّع عند طرفيهما. بالبياض الذي تلوّن بالأصفر في عينيه، بالعروق الحمراء في جفنيه المنتفخين. بأصابعه المرتعشة وبأظافره الصفراء.

لكن هذه الحال لم تدم. ظهر اليوم التالي حين صار ينهض دون مساعدتها، وبحجة أنه لم ينم، قال إنه سيشرب كأسًا صغيرة. أراها أنه يخلطها بالماء وبقطعة من الثلج لتخفيفها. يردّد أنه سيشربها على مهل، يحرّك قطعة الثلج يغطّسها في كعب الكأس، يلحس اصبعه كأنه يخشى أن تضيع عليه قطرة ويسكي.

لا تعلم السبب الذي يدفعها لتصديقه في كل مرّة. أتكون ساذجة دون أن تعي ذلك؟ تتساءل في سرّها.

الكأس الثانية لأن الأولى كان فيها نصف الكمية. وعند الثالثة لم يعد هناك داع للتبرير.

في لحظات قليلة انتقلت من الهدوء إلى يأس ملأ خيالها. توقّفت أيضًا عن حركتها الدائمة بين الغرف. كأنّ جلوسها قبالته وتحديقها بيده التي ترفع الكأس تحدٍّ له. تململَ وسألها بعدائية: «ما بك لماذا تنظرين هكذا؟». عندما استمرّ صمتها، سألها: «يبدو أنك مستاءة، تريدين أن أُحرم من النوم لتسعدي حضرتك؟». شغّل التلفزيون ورفع الصوت إلى أعلى درجة. عندما نهضت لتخرج قذف الريموت كونترول. صوت

ارتطامها بالبلاط وتبعثر بطارياتها أجفلها. انحنت لتجمع البطاريات التي سقطت من الآلة.

هي لا تريد إلّا مكانًا بعيدًا، لا تكون فيه مضطرة لفعل أو قول شيء. مكان تضع فيه رأسها جانبًا. كانت دائمًا ملتصقة ببيتها، يبقيها فيه خوفها الدائم على راجي. تفكّر أنه في غيابها سيهمل أكله وسيبالغ أكثر بمشروبه. حتى الاستحمام هي من يدفعه إليه بطرق ملتوية. كأن تقول إنها حضّرت له ثيابه ومنشفته. تتجاهله حين يجيبها بنفاد صبر إنها ليست أمّه ولا وصية عليه. تضع ثيابه المتسخة بنفسها في سل الغسيل. تعجب كيف لا ينتبه لرائحة العرق التي تفوح من قمصانه ولا يزعجه أن يتسخّ شعره كأنّ طبقة زيت تغلّفه. المنفضة أمامه تختنق بأعقاب السجائر دون أن يخطر له إفراغها. في جيوبه قصاصات ورق من العمل، فواتير من السناك، منشورات توزّع في الطرقات. محارم ممزّقة ومستخدمة، أرقام هاتف مكتوبة على عجل. لا تجرؤ على رميها منذ أضاعت له على حسب زعمه رقم هاتف أحدهم. زعلت من نفسها حينها، وقالت إنها تستطيع أن تحصل على الرقم من ترو كولر. لكنه إمعانًا في قهرها أجاب إنه لا يعرف الاسم كاملًا وإن الرجل أراد تشغيله في مشروع ضخم بدل أن يفني عمره في غاليري تافهة. من حينها قبل غسل ثيابه ترتّب كل ما في جيوبه. حتى المحارم تقلبها من كل الجهات لترى إن كان كتب عليها شيئًا. كذلك تفعل بعلب السجائر الفارغة. القصاصات تضعها أمام عينيه فوق الطاولة الكبيرة في غرفة الجلوس. من مرة إلى أخرى كانت تزداد وتتكدّس. عندما تسأله أن يلقي نظرة عليها، يجيبها أن تدعها وإنها لم تترك له زاوية تخصّه في بيته اللعين.

الليل حلّ ثقيلًا عليها، لو أن نادر هنا لما تركت نفسها على سجيّتها، تغرقها الأفكار السوداء. تسمع انسكاب المشروب في الكأس وقرقعة مكعبات الثلج تتردّد في رأسها أشبه بقذائف ثقيلة مدوّية. تعلم أنه سيبقى

على غضبه حتى تتظاهر بالنوم. نومها سيحرّره من رقابتها الخفية. حتى لو لم تقل كلمة، يحسّ أنها تلومه.

نامت في سرير نادر. دفنت وجهها بوسادته، رغم الحر رفعت غطاء القطن وأخفت رأسها تمامًا. شمّت رائحته. رأته صغيرًا يتمسّك بساقها لتحمله بين ذراعيها مكررًا اسمها «لالا» تتشبّث بصور نادر، لا تريد غيرها في رأسها. لكنها لا تنجح. تسمع تعثّر راجي بعتبة الحمام، تتهيّأ للنهوض، لكنها لا تفعل، تنصت إليه يتجشّأ مرّات متتالية، تخشى أن يتقيّأ مجددًا. تنهض بحذر وتمكث في العتمة إلى أن يخرج من الحمام. حتى بعد أن تتأكّد من نومه، تعجز عن الاغفاء. تقف قرب جسده المكوّم على نفسه، تضع يدًا على ظهره كي يبدّل وضعيته، علّ الشخير يخفّ. يتحرّك مغمغمًا نافضًا يديه كأنه يصارع مهاجمًا خفيًا. كثيرًا ما كانت توقظه من كوابيسه وتضمّ ظهره ليغرق في النوم مجدّدًا. في أوّل زواجهما تذكر أن الكوابيس كانت توقظه مفطور القلب تمامًا. كانت تهدهده كطفل ليعاود نومًا هانئًا.

لم يستطع في الصباح أن ينهض من الفراش، قال إنه متعب وأراد أن تبلّغ الشغل باستمرار مرضه. حين رآها تفتح الخزانة لإخراج ثيابها، سألها إن كانت ستتركه وحده وهو مريض هكذا؟ أجابت إنها دون تقرير طبي سيُحسم من راتبها مبلغ كبير. أجاب: «بالطبع عملك أهمّ. يا حضرة المديرة». أجابت إنها لا أحد لكن دون المعاش ماذا تفعل. توقّعت ردّه قبل أن يتلفّظ به «النغمة نفسها معاشي ومعاشي أنا أعمل، أنا أتعب. أنا أيضًا أعمل كالحمار». كانت نبرته الساخرة أقسى عليها من الكلمات بكثير. يقلّد صوتها ويمغطه. لا تجرؤ على أن تقول إنه لا يعرفها اصلًا ولا يجيد حتى تقليدها.

كانت تحتاج أن تخرج من البيت، لم تكن تفكّر بالمعاش كما ادّعت ولا بالعمل، أرادت أن يأخذها الانشغال إلى حدّ تنسى فيه كل شيء. لا

تريد أن تواجه أفكارها. لا تهرب من احد. تهرب فقط من نفسها. تهرب من خوفها المرضيّ عليه، تهرب من التفكير بمستقبل فيه مسؤوليات ما عادت قادرة على تحمّلها وحدها. تهرب من شيء يفتّتها من داخل.

لكن حتى أكثر المعاملات تعقيدًا لا تلهيها عن قلقها على راجي. أرسلت له رسالة صوتية، بقيت تتفقّد هاتفها دون جدوى. كتبت رساله نصية تشدّد فيها على ضرورة أن يطمئنها. لكن الظهر حلّ دون أي ردّ. عند استراحة الغداء اتصلت بهاتف البيت الثابت، وظلّت تسمع عشرات الرنات دون أي جواب. الصور في خيالها تفزعها، ماذا لو أصابه عارض خطير، من ينجده. تتخيّل أنه تقيّأ وسقط في أرض الحمام ضاربًا رأسه بحافة المغطس. أو ارتفع ضغطه وغاب عن الوعي. في لحظات تصبح تصوّراتها حقيقة، تعميها عن الأرقام أمامها. أصوات زملائها تتحوّل إلى ضجة غير مفهومة، لا تميّز لا الوجوه ولا تنتبه لأسئلة المتدرّب.

تتّصل به من خط تابع للمصرف. إن لم يعرفه قد يجيب فكّرت. حين رفع السمّاعة أخيرًا خفضت رأسها مسحت دموعها، ولم تتمكّن من الردّ على «آلو من معي؟» كرّرها مرّات قبل أن يقفل السماعة بقوّة. استرجعت تركيزها واستغرقت في متاهة الأرقام والمعادلات المتشابكة. لولا الجلبة المفاجئة حولها لما انتبهت لحلول وقت الانصراف. كانت تقريبًا آخر من استقلّ المصعد برفقة نائبة المدير. ما إن دخلت حتى ملأت المصعد موجة من العطر شبيهة بالياسمين. تبادلتا تحية سريعة بهزّة من الرأس وبعدها انصرفت ليلى للتحديق بصندلها الذي أخفت اهتراء جلده وكعبه بالكثير من الدهان. من يراهما لا يستطيع أن يحزر أنهما تعملان في المكان نفسه. كل واحدة من كوكب. تركتها تخرج قبلها. تمهّلت في مدخل البناية، كي تفصل مسافة بينهما. لا تريد أن تلتقي بها ثانية في موقف السيارات.

لم يردّ عليها حين سألته إن كان تحسّن. كان عاري الصدر منبوش

الشعر، يحدّق من خلف نظارته بواحد من تلك الكتيّبات الفنية. تعلم أنه لا يقرأ لكنها طريقته في إظهار زعله منها. كان أزيز المروحة في سقف الغرفة يقطع صمت البيت، على الشاشة مباراة خرساء لكرة القدم. سألته ثانية إن أكل شيئًا، ردّ بلؤم: «فجأة هبط عليك الحنان؟». رأت القنينة شبه الفارغة قرب قائمة الطاولة الصغيرة. فكّرت أنه بعد قليل سيضطرّ لسؤالها إن اشترت مشروبًا في طريقها إلى البيت.

في المطبخ فتحت خزانة المونة ولم تعلم هل تعدّ باستا نباتية أم فولًا مدمسًا. الفول مفيد أكثر. أكيد لم يأكل شيئًا منذ الصباح. فكّرت بينما تعد صحنًا من الخضار والزيتون. نادته لم يجب. تركت كل شيء فوق طاولة المطبخ. هي أيضًا فقدت كل رغبة بالأكل.

صداع رأسها لم تُشفِه حبّات الأدفيل التي داومت على ابتلاعها طوال اليوم. تعلم أنّ ما يعوزها هو نومة قصيرة. نومة دون أن تفكّر في شيء. ثبّتت المروحة قبالة وجهها وأغمضت عينيها. لا تدري كم دامت اغفاءتها، حين فتحت عينيها كان الظلام قد حلّ. فمها جافّ فيه طعم المرض. وضعت رأسها تحت ماء الحنفية البارد، الحرّ ثقيل يزيد من خفقان قلبها. نشرات الأخبار تتشابك أصواتها المتصاعدة من البيوت المحيطة بهم وتتمنّى لو أن بمقدورها إخراسها جميعها. هكذا بكبسة زرّ تطفئ الزمامير وأصوات الناس والتلفزيونات، والأهمّ تلك الأصوات في رأسها.

كان جالسًا إلى طاولة المطبخ يقضم بندورة دون أن يقطعها بالسكين، سألها مبتسمًا ما إن تجاوزت العتبة إن أكلت. رغم علمها سرّ الابتسامة لكنها فرحت بها وسألته إن أحبّ الفول، شكرها مرددًا «تسلم يداك كنت جائعًا لم آكل شيئًا طوال اليوم». وحين سألها كأنه يطرح سؤالًا عابرًا بريئًا إذا اشترت مشروبًا. أجابته إنها فعلت.

في آخر الليل استولى عليه تعب شديد، استغربت منه أن يوافق

حين سألته أن ينام، أمسكت بيده، كان في ترنّحه يجرّها فتكاد تقع لولا استنادها إلى جدران الممرّ الضيّق. غفا بينما تنتزع المشاية من قدميه. أما هي فلم تفلح بالاغفاء. ظلّت تأوي إلى السرير وحين تعجز عن النوم تقوم ثانية. تدخن سيجارة واقفة في العتمة ناظرة إلى الشارع الذي يقفر مع تقدّم الساعات.

في الصباح حين أيقظته ليذهب إلى عمله، طلب منها أن تتركه قليلًا. قبل أن تخرج من البيت سألته إن كان يريد أن تربط له المنبّه. قال إنه سينهض من تلقاء نفسه. حدست أنه سيبقى نائمًا ولن يذهب إلى الغاليري. كان غيابه المنتظم يقلقها، لا تستطيع أن تتخيّل كيف سيكون الوضع إن خسر عمله. لذا ربطت المنبّه دون علمه. إن لم يقم بالخطوة الأولى أي النهوض، لن يكون هناك خطوات أخرى تقوده إلى العمل وبعيدًا عن المشروب.

سمعت الرسالة الصوتية من سارة مرات عدة وهي في طريقها صباحًا إلى العمل. لا لأنها لم تفهم محتواها، بل لأنّها أفرحتها على نحو مفاجئ. صحيح أنها لن تلبي الدعوة لكن لا شيء يمنعها أن تتخيّل نفسها في ذلك المكان البعيد. قالت سارة أن تأتي برفقة نادر بما أن ندى أيضًا ستصحب ولديها. فكرة تواجد راغدة في المكان تفسد تخيّلها. تعلم أنها تقسو عليها، وأن أحكامها على الآخرين قد لا تكون عادلة دائمًا. كم مرّة أساءت تفسير لطف سارة وكم قاومت تقرّبها منها، وكم كرّرت على مسامع ميرا إنها لا تحبّ صديقتها الفرنسية المجاملة. أسمتها الفرنسية إمعانًا في السخرية منها. كانت تغار دون أن تعي من كل الصداقات التي أنشأتها ميرا بمعزل عنها. لكن السنين أثبتت لها أنها مخطئة بشأن سارة وحتى راغدة. حين تتذكّر ذلك تخجل من نفسها.

لو أن بمقدورها أن تترك راجي وحده. طوال يومها كانت أفكارها تتأرجح بين قبول الدعوة ورفضها. إلى أن انشغلت بعمل معقّد يستلزم

منها وقتًا طويلًا وتركيزًا، حين انتهى الدوام كان جزء كبير من هذا العمل المستعجل لم ينجز بعد.

علمت أنه في البيت قبل أن تفتح الباب، سمعت صوت موسيقى ما إن خرجت من المصعد. تسارعت دقات قلبها، لم تعرف ما ينتظرها.

وجدته برفقة وديع زمّار. كان سعيدًا إلى درجة أنه بادر بسؤال ليلى وهي لا تزال في الرواق «أرأيت أية مفاجأة أحضرت لك؟». كان وديع صديق راجي أيام الجامعة. باستثناء مروحة التجاعيد حول عينيه لم يتغيّر كثيرًا. كان رفيقهما قبل وبعد زواجهما. بسفره انقطعت أخباره. لم يعلما سوى أنه في أستراليا يعمل في تجارة التحف واللوحات. عانقته دامعة العينين، جزء هانئ وسعيد من حياتها مرتبط به. عرفته قبل زواجها من راجي وخلال السنة الأولى بعد الزواج كان ينام عندهما ويشاركها حتى أعمال البيت ويضحكها بلهجته العكارية. كان حينها ينتظر ردًّا من السفارة الأسترالية على طلب الهجرة. وعدهما بأن يراسلهما وأن يدعوهما متى استقرّ. لكنه لم يكتب إلّا رسالة واحدة، وصف فيها جمال مالبورن وكثرة اللبنانيين فيها. لم تكن قادرة أن ترفع نظرها نحوه. خافت أن تخونها دموعها. رؤيته أعادت إليها ذكريات كثيرة، جعلتها تدرك كم تغيّروا وكم كبروا. رؤيته جالسًا قرب راجي، أحزنتها. رغم الودّ الظاهر تراهما يتشبّثان بوهم مضى. لا شيء يجمعهم الآن. سوى صورة أبهتتها المسافات والوقت. كلما همّ بالانصراف كان راجي يبقيه، ساكبًا له كأسًا أخرى.

قال إنه لا يقوم بهكذا سفرات بل شريكه الأسترالي. يسافر إلى الهند وإلى باكستان وإلى المغرب وإلى طاجاكستان وإلى حيث يجد بُسطًا وسجادًا وفضيات ومنحوتات ومطرزات يدوية ولوحات وأشياء حرفية لا تُحصى. لكن مرض شريكه أرغمه على أن يسافر هو، لذا فكّر بلبنان. هناك مواهب فنية كثيرة، ثم التفت إلى راجي وسأله لماذا لا يبيعه بعض

لوحاته. ارتبكت ليلى وحاولت تبديل الحديث، لكن جواب راجي فاجأها، تحمّس وقال «لم لا، يلزمني فقط أسبوع لتهيئتها والانتهاء من بعضها أيناسبك؟». ردّ وديع بلسان ثقيل «أكيد لن أسافر قبل آخر الشهر». لم يبدُ أن الوعود التي أطلقها راجي أقلقته لحظة. وحدها ليلى من قلق. حتى عندما انصرفت إلى إعداد شيء من الطعام ظلّت فريسة أفكارها. ليس لديه إلّا أدوات رسم قديمة علاها الغبار. هذا إن تبقّى شيء منها. كثيرًا ما كانت تزوّد نادر بما يلزمه لحصص الفن المدرسية من مرسم والده القديم. مرسم تحوّل إلى مخزن لأشياء عتيقة ومنسية. وبأي مال سيشتري ألوانه وريشاته؟ كانت كحالها دائمًا تحسب ما تبقى من مالهم، بدأت في عقلها تحذف البنزين لسيارتها. سوف تستقلّ سيارة أجرة صباحًا، وفي المساء تعود سيرًا. ثلاثة أرباع الساعة من السير ستفيدها. لن تشتري لحمًا أو دجاجًا حتى آخر الشهر. لن يؤثّر ذلك على نادر بما أنه عند خالته. لكنها مبالغ واهية أمام ما يحتاجه. ربما سيطلبها على حساب الغاليري. أو ربّما سيبتعد عن الألوان الزيتية الباهظة الثمن. هكذا حسبت حتى يرتاح بالها وتتوقّف الأفكار عن التلاطم داخل عقلها. الأطعمة التي حضّرتها قد لا تكون طيبة بالضرورة لكنها كالعادة تبتكرها معتمدة على ما تجده في برادها وفي خزانة المونة. معكرونة بالحليب وباذجان مع بطاطا وبيض.

تذكّرت أول سنوات زواجها عندما كان راجي يبقي الزوار مهما بلغت أعدادهم إلى العشاء. وكان عليها أن تكون الساحرة التي تحوّل أشياء قليلة إلى مأدبة تُشبع الجميع. حينها اعتادت أن تتسوّق آخذة في الحسبان عشاءات مفاجئة بما في ذلك قناني مشروب كانت تخفيها عن راجي.

كان السكر واضحًا عليهما وكان حديثهما عن أصدقاء قدامى، كلما ذكر إسمًا كان راجي يردّ إنه لم يره منذ سنوات أو يسخر من تحوّله إلى شخص ممل أو موظّف تافه الاهتمامات. كان وجود وديع قد أثّر فيه

إلى درجة أحزنت ليلى. تعلم في قرارتها أن وديع لم يتقصّد لقاء راجي. أراد شراء لوحات والحصول على حسم في هامش أرباح الغاليري. لذا كان حديثه يعود إلى تجارته، يريد لوحات لفنانين موهوبين لكن غير معروفين. يعِده راجي بالاتصال بفنانين مميّزين رغم أن الغاليري رفضت عرض أعمالهم. يحكي عن السذاجة والسخافة التي يضطرّ للتعامل معها يوميًا. لا ينتبه إلى انصراف وديع إلى هاتفه مكتفيًا بتكرار «معك حقّ».

لم يبق من وديع الذي تعرفه إلّا لهجته. حين خطر لها ذلك تساءلت أليس هذا حالها وحال راجي؟ ماذا بقي من الشخصَيْن الحالمَيْن، من الفتاة التي ظنّت أنّ العالم في راحة يدها لأنّها تحبّ راجي؟ ماذا بقي من الفتاة التي لا يسكتها لا خوف ولا حساب؟ من تكون الآن؟ أي شخصين يتطلّع إليهما وديع الآن؟ راجي العجوز قبل الأوان كاره العالم؟ بم يشبه راجي الرقيق، الذي أراد أن يرسم عالمًا آخر بأنامله الدقيقة؟

وقف وديع مغطّيًا كأسه براحته ليمنع راجي من سكب كأس أخرى له، قال إنه منذ سنوات لم يشرب بهذا المقدار، وأن عليه أن ينصرف. الوقت تأخر وهو سيتوجّه صباحًا إلى عكار. ثم قال إنه سيتّصل قريبًا لإنهاء ما اتّفقا عليه.

زيارة وديع تركت راجي في حالة من التحفّز الدائم. كان يستمرّ في استعادة حديثهم، يسرده مرارًا كأنّها لم تكن حاضرة أثناءه. ثمّ صار يزيد عليه أشياء لم ينطق بها وديع «لا يجوز أن تدفن نفسك في عمل كهذا». أو «كنت أفضلنا موهبة». تهزّ رأسها مخفية ألمها وهي ترى عينيه المتورمتين غارقتين في عالم وهمي. لم ينس أن يحمّلها مسؤولية امتناعه عن الرسم. ألم تملأ مشغله بكل أنواع الخردة؟ استكثرت عليه ركنًا صغيرًا. كان يكرّر ذلك بغضب متناسيًا أنه هو من هجر مرسمه. أو يقول إنه انشغل بتأمين عيشهم ونسي نفسه.

في اليوم التالي، دون أن تأكل انصرفت لحظة عودتها من العمل إلى

إفراغ المرسم. أرادت أن تفاجئه لحظة عودته من العمل. لكنها شيئًا فشيئًا أدركت أنّ مهمتها طويلة. لم تتخيّل أن مكانًا ضيّقًا كهذا يحوي هذا العدد من الصناديق والأكياس. تسارعت الحشرات خارجها ما إن فتحتها. كانت تقفز مقشعرة البدن وتلاحقها كي لا تتسلّل إلى بقية غرف البيت.

كانت تُخرِج كتبَ نادر ورسومه ودفاتر علاماته تتأمّلها ماسحة الغبار عنها كم من الذكريات تعود إليها. تضعها جانبًا لتوضّبها في مكان آخر. أما الكاسيتات القديمة والأدوات المعطلة أو المكسورة فكوّمتها لترميها لاحقًا.

في الحقيبة القديمة، هدية راجي الأولى لها حين تعارفا، وجدت ألونًا مائية وأقلام شمع وريشات لا تزال في أغلفتها. في إحدى الجيوب وجدت تذكرتَي سينما، الحبر زال وحاولت عبثًا أن تقرأ فلم تميّز إلّا التاريخ 28 - 6 - 2002.

لمّعت شبابيك الزجاج. الأرضية التي كستها طبقة غبار دبقة استعادت شكلها بعد أن فركتها بفرشاة ومسحتها بالماء والخلّ. رائحة خل وصابون ملأت المكان الصغير. جلست على الأرضية تدخّن سيجارة متأملّة الأضواء المنعكسة على الزجاج. قلّبت ثيابًا بالية لم تعلم لمن أبقتها وهي بهذه الحالة من الاهتراء.

يصعب عليها دائمًا التخلي عن أشيائهم العتيقة. التتخيتة فوق المطبخ مليئة بأغراض لا تصلح لشيء. طاولة انكسرت إحدى قوائمها. مغطس بلاستيك ومقعد سيارة كانا لنادر، ألعاب، لم تفكّر بإعطائها لأحد. ربّما حان الوقت لتتخلّص منها. هكذا لن تصطدم عيناها كلما رفعت نظرها بهذا الركام.

لم تسمعه حين فتح الباب، كان أوّل ما قاله حين رأى المرسم وقد استعاد شكله كما كان قبل أثنتي عشرة سنة «بم ينفعني إذا كنت عبد الوظيفة». رغم الخيبة التي أحسّتها راحت تعدّد له أوقات الفراغ ونهايات

الأسبوع والسهرات. ردّ كأنّها من يسرق وقته «تظنّين الابداع الفنّي يأتي بكبسة زر من يدك؟».

لم تعلم إلى أي شيء ينصرف وهو جالس أمام لوحته. كان يبقى أسير غرفته الزجاجية لا يخرج منها إلّا لجلب مكعبات الثلج أو قنينة مشروب أخرى. امتنعت عن مناداته للأكل أو حتى لرؤية نادر الذي جاء ليقضي نهارًا معهما قبل العودة مجددًا عند خالته. قال إنها تربكه ولا تدعه يعمل بسلام.

كانت تختلس النظر إليه علّها ترى شيئًا مما يرسمه. لكنه كان رغم سكره في آخر الليل لا ينسى أن يقفل باب المرسم. وحين تستدرجه ليخبرها شيئًا، كان يشتكي من استمرارها في الضغط عليه. تخيّلت أن السعادة ستغمره، لكنها كانت ترى كل يوم شخصًا صامتًا يجلس قبالتها صباحًا يشرب القهوة دون أن يراها. الأحاديث التي تختلقها لا تجرّه إلى الكلام، بل إلى الغضب والحنق. مهما كان مرهَقًا ما عاد يغيب عن العمل، كل مساء يتأخّر في العودة أكثر من اليوم الذي سبقه. منذ صار يقضي وقتًا في مرسمه وهو يبحث عن ذرائع تبقيه بعيدًا عنه. يعرض عليها شراء البقالة والخضار وهو الذي لم يقم بذلك إلّا في أسبوع واحد تلا إنجابها لنادر. يذهب لزيارة أهله، هو الذي ما كان يراهم إلّا مضطرًا في المناسبات المتباعدة. يتبرّع لغسل سيارتها في المحطة. كانت مشوشة بحق لا تملك تفسيرًا لحاله. ظنّت أن اقتراب لقائه بوديع يقلقه ربّما. الحكم على رسوماته، الخوف من رأيه.

أرادت أن تفعل شيئًا يخالف مبادئها تمامًا. لم يسبق لها أن حاولت قراءة شيء يخصّ نادر أو راجي. لم تبحث خلسة في أغراض أيّ منهما. فكّرت إن رأت هي رسوماته التي أخفاها، قد تستطيع أن ترفع معنوياته، تذكر كم كانت تحبّ كل تلك الأشكال النابضة بالمشاعر. ويده الخفيفة التي تخلق بلحظات عالمًا مليئًا بالألوان والعاطفة. كان أخواها يحبّان أن

يريهما كيف بلحظات يرسم لهما سيارات وجرافات وأبطالًا آليين. كأنّه ساحر تملك أنامله قدرات خارقة.

لم تستصعب أيجاد المفتاح. كانت تراه تحت وسادته كلما رتّبت السرير. دخلت المرسم على رؤوس أصابعها، مع علمها أنه لن يعود قبل ساعتين على الأقل.

كانت قماشة اللوحة بيضاء تمامًا. حيّرها ذلك لأنها كثيرًا ما كانت تلمحه مستغرقًا وفي يده الريشة. قلّبت دفاتر الرسم الموضوعة أرضًا، أوراق بيضاء اصفرّت زواياها مع الوقت. لا شيء عليها. خواء أبيض.

أعادت الأشياء إلى موضعها. أغلقت الباب وضعت المفتاح مكانه.

جمود سمّرها أمام شباك غرفة الجلوس. كانت تنظر شاردة الذهن، كأنها خارج نفسها. رأته قادمًا باتجاه البيت، يعبر الشارع حاني الكتفين، في يده سيجارة توجّ جمرتها. يتعثّر بحافة الرصيف، تجفل وتنبّهه كأنّ صوتها سيصل مسامعه.

الفصل الثالث

قوّة الحجارة

«هل قوّتي قوّة الحجارة.
هل لحمي نحاس.»

(أيوب 6: 12)

المكيّف أيقظ سارة من نومها، تسحبّت من السرير كي لا يفيق مارون. صفعها هواء الغرف الساخن. فتحت نوافذ غرفة الجلوس ودون أن تغسل وجهها. تناولت رزمة الأوراق لتكمل التصحيح. البارحة غفت وهي تعمل عليها. منذ سنوات وهي تحسّ أنها عالقة في مكانها. ما تكاد تفرح لانتهائها من تصحيح اختبارات حتى تعلق بغيرها. لم يفدها بشيء تنظيمها وعدم تأجيلها ما عليها. لكن أكثر ما يغيظها هو طول العام الدراسي الممتدّ من بداية أيلول حتى آخر حزيران. تلتفت ناحية الكتاب على الطاولة. لا تذكر حتى متى بدأت بقراءته. سيكون عليها أن تعاود قراءة فصوله الأولى مجددًا.

لا يزال بعض المحتفلين من ليلة أمس يصرخون أغنية بأصوات مبحوحة. فكّرت أنهم قريبًا سيرتاحون. ربما سينتقلون وينسون ما عانوه من ضجيج الحانات والمطاعم. مع أنها لم تعد متأكّدة من حصول ذلك. لم يبد مارون حماسًا مثلها. قال إنه كبر في هذه الأحياء وشراء بيت بعيد عن بيروت، يعني قضاء ساعات في السيارات. كما إن للبيت قيمة معنوية عنده. تعب في تسديد أقساطه التي لم تنته إلّا منذ سنة. تزعل عندما يقول إنه دفع. هل ينسى أنهما شريكان. الشيء الوحيد الذي لم تسهم فيه هو الدفعة الأولى.

تظلّ تبحث عبر مواقع الوكالات عن بيوت منعزلة لها حدائق. قلّما تجد بيوتًا بهذه الأوصاف. البحث بحدّ ذاته يعطيها إحساسًا بالراحة كأنها انتقلت حقًا وتروح تتخيّل حياتهم هناك.

تنهض من جلوسها عندما تؤلمها رقبتها. تقوم بالحركات التي نصحها بها الطبيب، لا تريد أن تضطرّ إلى وضع الطوق مجددًا. تدخل إلى غرفة ابنيها جوزيف ووليم. ترتجف من البرد، تطفئ المكيّف. تنظر إلى فوضى أشيائهما. حزمها لم يدفعهما إلى الامتثال لما تطلبه. حين كانا صغيرين، كانت الأشياء أسهل. كان جوزيف أكثر استقلالية واعتاد أن يدرس دون اشرافها منذ صار في الصف الثالث الابتدائي. يجيد تحضير حقيبته والاستحمام دون مساعدتها منذ بلغ الرابعة، يطوي ثيابه ويعيد كتبه ودفاتره إلى رفوف المكتبة. حين تؤنّبهما يقول إنّ أخاه هو سبب الفوضى ويطالب بغرفة مستقلة. كانت تلك الحجة القوية التي أعتمدت عليها لإقناع مارون بالانتقال. تقول متى كبرا لا يجوز أن يبقيا في غرفة واحدة، يحتاج كل ولد إلى حيّزه الخاصّ. يذكّرها بغرفة الغسيل الملاصقة للمطبخ، يقول إن بإمكانهم مع اقتطاع جزء من الرواق تحويلها إلى غرفة صغيرة. تعترض متسائلة أين تضع الغسّالة.

في كل مرة يجري هذا الحوار بينهما تسترجع طفولتها في بيت مؤلّف من غرفة جلوس وغرفتي نوم. واحدة لأهلها وأخرى لهم أربعتهم. لاحقًا جاءت جدّتهم لأبيهم لتسكن معهم بعد موت الجد.

كانت تضطرّ للدرس متنقّلة بين المطبخ وغرفة نوم أهلها. تعارُك أخوتها وصوت التلفزيون العالي مضافًا إليهما صخب حيّهم جعل لديها قدرة على التركيز ونسيان ما يحيطها. بإمكانها أن تدرس في أي مكان. تطوير هذه الميزة سهّل عليها التصحيح مهما كانت الضجة في غرفة الأساتذة. صحيح أنها تفضّل الهدوء لكنها تستطيع التأقلم مع أي وضع. في الباصات التي كانت تستقلها للذهاب إلى الجامعة اللبنانية كانت تقرأ

وتراجع محاضراتها كأنها ليست محاطة بعشرات من العمال الجالسين والواقفين.

حين سافرت إلى فرنسا، كانت تقرأ في كل الأمكنة حتى وهي جالسة في المطعم الجامعي. تأقلمت مع المال القليل الذي كانت تحصّله ومع الطعام القليل أيضًا. كانت تكتفي بوجبة كبيرة واحدة هي تلك التي تتناولها ظهرًا أو مساء حسب جدول الأعمال الصغيرة التي كانت تتوفّر.

عملت حاضنة أطفال بشكل أساسي، وخلال السنة التالية وفّقت في ايجاد ما يشبه الوظيفة الثابتة. معلّمة خاصّة تشرف على تدريس ثلاثة أولاد لعائلة لبنانية الأصل. والفضل في ذلك إلى أحمد نابلسي. طلبوا منها أيضًا ان تبيت عندهم حين يسافر الأهل خلال العام الدراسي. كثيرًا ما وجدت نفسها وحيدة مع الأولاد والطبّاخة لفترات كانت تتجاوز العشرين يومًا. حتى صارت تنوب عن الوالدين في اجتماعات ألمدرسة. وتحوّلت إلى رفيقة لعب للأولاد تصحبهم في العطل إلى حدائق التروكاديرو. تعجب أنهم ما زاروها طوال حياتهم. يعرفون سويسرا وألمانيا واليابان وأقاموا صيفًا في أميركا وفي الجزر اليونانية ولا يعرفون ما يبعد عن بيتهم دقائق سيرًا على الأقدام. قربها منهم ذكّرها بشوقها لأخوتها. وكثيرًا ما أبكتها المقارنة. لذا ما إن توفّر القليل حتى تسارع إلى شراء أشياء لأخوتها، ولأمها. تبتسم بسعادة وهي تتخيّل فرحتهم بما اشترته. تكدسّ الأشياء في حقيبتها كأنها عائدة إليهم بعد أيام.

صارت تأكل دون أن يعصرها الجوع ليلًا ودون أن توقظها قرقعة بطنها. كما أتيح لها أن تأخذ هدنة من العيش مع تلك النسيبة الغريبة الأطوار.

الآن تغيّرت. ربما الرفاهية أفسدتها. لا يمكنها أن تغفو في أي مكان، ولا أن تبدّل عاداتها اليومية. إن شربت قهوة أقل مما اعتادت يؤلمها

رأسها طوال النهار. إن أكلت أطعمة غريبة عنها كما حصل عندما تذوّقت التوتياء البحرية والأصداف، تصاب بعسر هضم.

منذ البارحة تحسّ بأعراض رشح وبآلام شديدة في بطنها. لا تعلم إن كان سببها قلة النوم والتعب. لا تأخذ قسطًا كافيًا من النوم أبدًا. إن نامت باكرًا توقظها أفكارها ليلًا. أو قلقها من أن تكون متأخّرة في منهاج الدراسة، فتهبّ من غفوتها لتراجع كم بقي لديها من ساعات قبل موعد امتحانات الشهادة. وفي العطلة تنصرف إلى كل ما أجّلته بسبب العمل.

تسمع مارون يدخل الحمام. تترك أوراقها وتسارع لوضع ركوة القهوة فوق النار.

يلزمه ساعة قبل أن يكون قادرًا على الكلام. تبقى أسئلتها الصباحية دون ردّ منه. تشكّك بسماعه لها.

في بداية زواجهما كانت تغضب منه وكان يقول لها إن معظم الناس لا يستيقظون من نومهم بقابلية على الكلام كما تفعل. تعرّفت على مارون وقد قاربت الثلاثين من عمرها، هو كان في أواسط الثلاثين، كان دائمًا محاطًا بمعلمات عزباوات ما جعلها تنْفر منه، وحين يأتي أحد على ذكره تسأل «الدنجوان؟». خلال الاجتماعات، كانت تردّ على كلامه بجفاء حتى حين يؤيّد رأيها بخصوص تلميذ ما. كانت إضافة للآراء التي كوّنتها من بعيد عن شخصيته تعتبر أن أساتذة الموّاد العلمية سطحيون. تعميم غير صحيح، لكنها في تلك الفترة كانت تكره المعاملة المميّزة التي يحظون بها سواء من الأهل أو حتى من الادارة. كأنهم في مرتبة أعلى. زاد شعورها ذاك ما تسمعه عن المبالغ التي يتقاضونها في الساعات الخصوصية.

عندما سجّل اسمه ليكون مساعدًا لها في المشروع السنوي لطلاب البكالوريا، سألته بسخرية إن كان سيدع العمل على عاتقها؟ وماذا يعرف هو عن أوضاع المخيمات الفلسطينية؟ ردّ بتواضع، إنه يعرف القليل لكنه

مستعدّ لقراءة كل المراجع المتوفّرة. سألها «بأي مرجع تنصحينني أن أبدأ». أجابته متحاشية النظر إليه إنها ليست معلّمته وليست مرغمة أن تضيف تلميذًا آخر على عدد تلاميذها الثلاثين. ثم توجّهت إلى مكتب المديرة مطالبة بمساعد أكثر اطلاعًا. ردّ المديرة أغضبها أكثر إذ أثنت على ثقافة مارون داعية إيّاها

إلى عدم اعطاء نفسها الحقّ بالحكم على الآخرين.

كان حنقها الدائم عليه ظاهرًا في كل تصرفاتها. يحلو لمارون أن يسترجع تلك الفترة مبالغًا في وصف تكبّرها. اتّضح لها خلال السنة أنه لم يكن فقط مستعدًا لتوسيع معرفته والاعتراف بنواقصه، بل كان يحصل على مصادر من أرشيف الصحف ويقضي الكثير من الوقت باحثًا في فهارس المجلات الأجنبية عمّا يفيد موضوع الدراسة. يسألها عن الكتب التي تنشغل بقراءتها، وتعجب لاحقًا أنه قرأها بدوره. علم أنها الطريقة الوحيدة لتبادله حديثًا عاديًا دون أن تعقد حاجبيها أو تتظاهر بعدم سماع أسئلته. الآن وهي تتذكّر كل ذلك تسأل نفسها إن كان رفضها له هو ما حفّزه على الاستمرار بملاحقتها. لم تكن سارة ترى نفسها جميلة أو تملك ما يجذب أحدًا. لا ترى في المرآة إلّا فتاة قصيرة، نحولها يقرّبها من هيئة غلام، عيناها مخفيتان بنظّارات طبية على الدوام وشعرها الكستنائي الطويل تبقيه مربوطًا. لا تجيد التبرّج، الأمر الوحيد الذي تفعله في المناسبات هو رسم الكحل داخل عينيها. حياتها العاطفية تختصر بتجربة واحدة حصّنتها ضد كل الرجال.

لذا كانت تطرد من بالها احتمال إعجاب مارون بها. حين سألها إن كانت تريد أن يمرّ ببيتها ليصحبها إلى حفلة عيد المعلّم. هلعت على الفور، وادّعت أنّها مشغولة ولن تحضر الحفلة. لم تستطع أن تتخيّله في حيّهم وسط المباني المتداعية.

طبعها يدفعها ألّا تأمن لأحد بسهولة. ميرا شذّت عن تلك القاعدة، لا

تعلم إن كان السبب هو إحساسها في تلك الفترة بالوحدة وبالندم لإقدامها على هكذا مغامرة. مضطرة للعيش عند شخص غريب عنها تمامًا. كانت ميرا الملاذ الذي يُشعرها أنها إنسانة. كم من تضحيات قاسَتها لدراسة الماجيستير. حوّلتها هنرييت إلى ما يشبه الخادمة، تشتري سارة الأطعمة دون أن يكون من حقها أن تأكل منها. تنزّه كلبًا في البرد الصباحي، يظلّ ينترها كأنه هو يجرّها لا هي. لكن الأصعب عليها أن تجمع برازه. الكيس لا يخفي الرائحة التي تستمرّ في استذكارها بقرف. عندما يقترب أحد المارة لمداعبة الكلب، كان العجب يتملّكها. قبل ذلك كانت محبّة للحيوانات. لذا رفضت بحزم مطالبة ابنيها بكلب. اشترت لهما عصافير حُبّ، وفئران بيضاء لكنها لم تكن مستعدّة أبدأ لكلب يعيد إليها أيام القهر. مارون الذي يرضخ أحيانًا لرغبة أبنيه كان يسألها ما قصتك مع الكلاب ألا تحبينها؟ حجج كثيرة كانت تذكرها منها صعوبة الاهتمام بكلب وهم خارج البيت معظم الأحيان أو لا مكان له، أو مسائل تتعلّق بالصحة. لم تكن مستعدة لإخباره السبب الفعلي. هناك أشياء كثيرة تبقيها مدفونة في أعماقها. على عكسها، مارون كان شخصًا تلقائيًا يحكي عن نفسه ببساطة، وفي بداية علاقتهما كانت هي الشخص المنصت. عندما يصرّ أن تخبره عن نفسها أكثر كانت تردّ إن حياتها بسيطة لا أشياء مميّزة ترويها. وتروح تخبره عن كتب قرأتها.

لم تعلم أنه كان يبذل مجهودًا لإرضائها، إلّا بعد الزواج. رأته يمتنع نهائيًا عن القراءة، باستثناء مجلات يقلّبها متفرّجًا على صور لا تهمّه لكتّاب لم يسمع بأسمائهم. الدعايات فيها تستوقفه خاصة إن كانت عن السيارات. تقبّلت ذلك، لكن ما لم تتقبّله هو فشلها رغم كل ما حاولته في دفع جوزيف إلى القراءة. في سن مبكّرة جدًا كانت تقرأ له يوميًا. قرأت له الكثير من القصص. هديتها له سواء في عيد مولده أو أعياد الميلاد والفصح عبارة عن قصص. تذكر نظرة الاحباط على وجهه حين يفضّ

الأغلفة اللامعة ويرى الكتب، يشيح بوجهه دون أن يقرأ عناوينها. يدعها مكانها متراصّة، وينطلق بحماس إلى فضّ غلاف آخر. عندما يلحظ مارون خيبتها، يقول إنّ بإمكان الناس أن يعيشوا سعداء وأن يكونوا أسوياء حتى لو كانوا لا يحبّون الكتب. لكنّها لا ترتدع عن محاولاتها. بإمكان جديه أن يخالفا تعليماتها ويشتريا له جهازًا خليويًا أو بلاي ستياشن أو أي من تلك الألعاب التي تسمّره ساعات دون أن يتحرّك من مقعده. لكنها هي لن تفقد إصرارها. تختلف مع مارون كثيرًا بخصوص ابنيها، كانت ضد أن يتابعا هذا الكم من النشاطات. تسأله: «متى يكون لهما وقت خاص، كاراتيه وفوتبول وتنس والآن دروس غيتار؟». خاصّة أن وليم لا يحتاج مزيدًا من التشتت. كل اتفاقاتهما السابقة حول عدم الاختلاف في التربية، لم تفد. كانا يختلفان على كل شيء. ما إن انجبت جوزيف حتى صار للجميع رأي بطريقة إرضاعه وفطمه ومتى يجب أن يأكل أطعمة جامدة، وكل تفصيل، حتى اسمه لم تكن هي من اختاره. حمل اسم جده لأبيه.

كانت أمها الوحيدة التي لم تبدِ رأيًا. كانت توافق على كل شيء. حتى بعيدًا عن بيتها الزوجي وتسلّط زوجها المقعَد بقيت تحت رحمة زوجها الخفيّة. تخاف أن تعارض رغبة أي كان. رغم حبّها لأمها، لم تحتمل مكوثها عندها. كم حاولت أن تزيل عن وجهها ذلك الانكسار ولم تفلح. لا الهدايا التي أغدقتها عليها ما إن صارت تعمل ولا مرافقتها إلى المحلات لجعلها تختار ما حُرمت منه طوال حياتها. كان جوابها الدائم «لا تصرفي مالك وتعبك عليّ، لا أحتاج شيئًا». أو تسأل متى ستلبس هذه الأشياء الغالية، وابنة من تكون لتصرف هذه المبالغ على خرق بالية؟ كانت تحضِّر الطعام وصحون المغلي للضيوف وتنسحب إلى المطبخ. عبثًا تناديها سارة. لذا في اليوم الثالث وما كانت سارة بعد قادرة على الحركة بسهولة، قالت لها: «ماما عودي إلى البيت، أبي يحتاجك أكثر مني».

أخوها فادي ورث الخجل ذاته. عندما يزورها يجلس عند حافة الكنبة. كان يخفض رأسه مرتبكًا من ثرثرة زوجته. لمسه ركبتها لردع سيل كلامها ما كان يسكتها. زيارته كانت تؤلمها على الدوام. تعليمها العالي وخروجها من فقر متوارث رسم حدودًا بينها وبين أخوتها ثلاثتهم. مهما حاولت سارة أن تكسر تلك الحدود كانوا يتّصرفون معها كأنها تفوقهم مرتبة. كان ذلك يعزلها، وحين تسترجع صورهم تبكي بحرقة. يرتبكون من الضيافة التي تقدَّم إليهم كأنّ هناك قواعد لأكل الكاتو أو شرب العصير والقهوة. يختار فادي متى تكلّم أن يحكي لها عن ابنه البكر وعن تفوّقه وكيف أنه يشبهها في حبّه للكتب. فادي الذي يصغرها بسنتين لم ينجح في تخطّي المرحلة المتوسّطة، وكان عليه أن يسمع طوال سنوات مقارنة بينه وبين أخته ساره. جهدها في مساعدته لم يسفر عن شيء. كان ما إن يرى ورقة امتحان حتى يطير من رأسه كل ما شرحته له وحفّظته إياه. رسوبه الدائم مصدر قلق عندها منذ كانت صغيرة. عندما دخل مدرسة مهنية تبدّلت نظرته إلى نفسه، خاصة عندما بدأ لأول مرة في حياته ينجح في كل مواده. اختياره للكهرباء لم يسهّل حياته تمامًا لكنه أمّن له مصدر رزق. بعد فادي صارت المدرسة المهنية خيارًا طبيعيًا لأختيها بريجيت وأيفون. درستا المحاسبة. بريجيت توقّفت عن العمل في محل للألبسة ما إن تزوجّت عريفًا في الجيش. أما أيفون فلا تزال تعمل في قسم المحاسبة في مدرسة راهبات. فادي هو الأخ الأقرب إلى قلبها. لذلك كان يجرحها سلوك ابنها جوزيف مع ابن خاله. لا تعلم كيف لابنها الذي ربّته أن يتعالى ويتصرّف بهذه الطريقة. وحين تعترض على سلوكه بعد رحيل عائلة أخيها، كان يردّ متأفّفًا بأنها لا تستطيع أن تجبره على صداقة لا يريدها. وقاحته تزداد كلما اقترب من المراهقة. وعندما تطلب من مارون أن يحكي معه كان يردّ أن تدعه، وأنها مرحلة عمرية صعبة عليها تفهّمها. على عكسه كان ابنها وليم منذ صغره رقيقًا شديد التعلّق بها. لم يألف المدرسة بسهولة وما إن

بدأ يتعلّم القراءة حتى ظهرت مشكلة الديسلكسيا. بدءًا من الصف الثاني الابتدائي صارت ترافقه عند مختصة وتنفّذ كل تعليماتها.

كانت سارة صبورة في تدريسه، في أن تعيد مرارًا وتكرارًا دون أن تبدي ضجرًا أو نفاد صبر. عندما قال إنه لا يحبّ لا دروس الكاراتيه ولا دروس التنس امتنعت عن إرساله ما أغضب مارون. لكنها لم تكترث، بالنسبة إليها لا تريد أن تزيد الضغط عليه. حين يأتي ليلًا إلى فراشهما باكيًا من كابوس كانت تفسح له لينام قربهما متجاهلة اعتراضات مارون. يكفي أن ترى تلك الدمعات العالقة في أهدابه كحبّات ندى حتى ينفطر قلبها خوفًا عليه. اعتادت أن تسمعه يحكي عن كل تفاصيل يومه وهم حول طاولة الغداء، بينما جوزيف لا يجيب عن أسئلتها إلّا منزعجًا. دائمًا لا شيء مميّز يخبره، هو ردّه الدائم. الأشياء التي تحصل مع جوزيف تعرفها من معلميه، زملائها. تعلم أن ليس عليها أن تراقبه هكذا، يكفيهما ضغطًا أنها معلمة في مدرستهما. بالإجمال لا تسأل أبدًا عنهما إلّا في أوقات محدّدة للأهل. جوزيف يبرع في كل مواده ويتميّز كما والده في المواد العلمية، مرة في السنة تذهب لاجتماع أولياء الأمور. وحده وليم يشغلها ليل نهار. بينما تدرّسه تعود إليها صورة أخيها فادي جالسًا على الصوفا قربها. والدها ينظر نحوه بعينين غاضبتين، مكرّرًا ركّزْ يا حمار. تذكر تأتأته ورعبها من أن يُقذف بمشاية أو بأيّ غرض إن أخطأ. كانت تخترع حججًا لتدرّسه بعيدًا عن رقابة والدها. ينسحبان إلى غرفة النوم ويجلسان على سرير، حتى يتعالى أزيز عجلات كرسيه قادمًا إليهما فيزداد تلعثم فادي وتعرّقه. كثيرًا ما كانت تهنّئه على اجابات خاطئة فقط كي تبعد عنه شبح والدهما. والدها في كل الأحوال لن يعلم أو يفهم شيئًا من دروس الرياضيات والعلوم واللغة الفرنسية.

لم يكن والدها العسكري ليّنًا ومتسامحًا في تربيتهم. عندما يعود في مأذونية، عليهم أن ينسوا أمر اللعب أو الشجار، أو حتى مشاهدة

التلفزيون، والويل لمن كانت علاماته غير جيدة. ما كان العقاب الجسدي يخيفهم بمقدار تلك النظرات القاسية والألفاظ غير الرحيمة. الحرمان من عشاء أمر يتحمّلونه والصفعات فوق الوجه أو البقاء وحيدًا في غرفة، لكن ما كان يعزلهم إلى أبعد نقطة في أعماقهم هو نعتهم بالحمير وبالأولاد السذج الذين لا يقدّرون كم يتعب من أجلهم. لا يسترجعون حياتهم إلّا حين يغيب عنهم، وكثيرًا ما كان الحجز في الثكنات هو بمثابة عيد غير معلن بالنسبة إليهم. وحدها أمهم كانت تبقى على حالها. تتلفّت حولها كلما ارتفعت أصواتهم وتُسكتهم كأنّ زوجها حاضر دائمًا ولن يفوته رسوب فادي هذا الشهر أيضًا. مع أنه الصبي الوحيد لكنه لم يلقَ أي معاملة خاصة، كانت الضربات القاسية من نصيبه دائمًا. حين تسترجع طفولتهم تحاول أن تتناسى كم كان تفوّقها يُشعِرها بالذنب. كان يبعد عنها الأهوال التي يتعرّض لها أخوتها. المرات القليلة التي تلقّت فيها ضربًا كأخوتها كان قبل أن تبلغ التاسعة. تذكر الحزام الذي لسع رجليها حين أوقعت ابريق الماء وكسرته. والصفعات العنيفة التي تلقتّها على وجهها لأنها أفسدت فستانًا جديدًا أثناء اللعب. لم تتمكّن من الخلاص من حذَرِها وهي تكبر. غالبًا ما تطلب من ولديها الانتباه والحذر أثناء ركضهما أو فعلهما لأي شيء، كأن والدها بالمرصاد دائمًا قابعًا في زاوية خفية من عقلها. الحذر طبع شخصيتها وكانت في كل علاقاتها، يلزمها وقت طويل لتسمح للآخرين بدخول عالمها.

في حرب الإلغاء عندما غيّبت الاصابة والدها شهورًا عن البيت ليعود بعدها مشلولًا من جذعه حتى أخمص قدميه، ساد بيتهم سكوت وحزن. كل منهم شعر أنه ساهم في مصير والده، ألم تكن أكبر أمنياتهم غيابه عنهم؟

في ملازمة أمهم لوالدهم في المستشفى شعروا أنهم كبروا سنوات. تشاركوا دون أي شجار أعمال البيت والطبخ وشراء الأغراض. فجأة

ما عادوا أطفالًا، بغياب والديهم هجروا ألعابهم ولهوهم. المدارس كانت مقفلة، والطرقات المؤدية إلى منطقتهم قطعها القنص. حين يشتدّ القصف كانوا يتكوّمون في ركن من الرواق، يقطعون أنفاسهم لتضليل القذائف كأن لها آذانًا تهديها إليهم. يصيرون كتلة من الفزع. يسمعون الصفير ويتوقّعون أن تهوي فوق رؤوسهم تمامًا. كان على سارة التي لم تتجاوز الحادية عشرة حينها أن تتظاهر برباطة جأش وتحاول إلهاءهم بألعاب وحزازير أو بأغانٍ ينشدونها لطمس أصوات الحرب. كان بعض الجيران يتفقّدونهم حاملين صحن طعام أو مطرة ماء للشرب. في غيابه تغيّرت صورة والدهم في مخيّلتهم، صار الأب الذي أرادوه. وحين عاد استقبلوه بالعناقات وبالدموع. عاد واهنًا وقد خسر وزنًا كثيرًا جعل كلامه خافتًا أشبه بالهمس.

حين استعاد بعض القوة عاد صوته ليبثّ الرعب في قلوبهم أكثر من أي وقت مضى. الشلل النصفي جعله حاقدًا على الحياة التي لم تقدّم له على حسب زعمه إلّا الفقر وأولادًا بلا أي منفعة وزوجة غبية. صار شديد الانتقاد لكل ما تفعله زوجته. الطبخ بلا أي طعم، لا يعلم أين تذهب بحجة شراء الأغراض. تبادلت حديثًا أطول من اللازم مع جارهم. غيرة عمياء تسلّطت عليه وجعلته يعنّفها في حضور الزوار من الجيران والأقارب. بينما يكبر فادي بات يتجرّأ على مواجهة والده فيقول إن عليه شكر ربه صبحًا ومساء لأن لديه زوجة صبورة ومحبّة كأمه. كان والده يردّ بلعنات وشتائم يسمعها كل سكان حيّهم. ما يدفعهم إلى تجنّب من حولهم، كأنّ تلك اللعنات التصقت بهم وصارت هويّة يراها الآخرون كلما التقوا بهم. صحيح أن سبابًا أقذع يتعالى من البيوت المجاورة لكن ذلك لم يخفّف من شعورهم الدائم بالذلّ والمهانة. كان فادي يقول لأمه إنه سيكبر وسيكون له بيت ولن يتركها أبدًا تحت رحمة هذا الظالم. عندما جاءت الجدة لتعيش عندهم بعد أن مات زوجها. ظنّوا أن وجودها

سيهدّئه أو سيردعه بعض الشيء. صار لها نصيب هي الأخرى من لعناته. حين تحاول تهدئته واصفة زوجته بالقديسة، كان يسكتها متّهمًا إيّاها بالخرَف. أو يحلو له أن يكرّر «أعلم كنتم تفضّلون أن أعود في تابوت لترتاحوا مني». قول يعلم أنه سيسكت كل من يحاول أن يتطاول عليه. لا تذكر سارة أن أمّها تمرّدت على ارادة زوجها إلّا مرّة، عندما أصرّت على العمل في مشغل خياطة لا يبعد إلّا خمسين مترًا عن البيت. قالت إنها تريد أن يستفيد أولادها من مال تستطيع أن تجنيه. وما فائدة تعلّمها الخياطة إن لم تمارس هذه المهنة. حين سخر من القروش القليلة التي ستحصّلها على حسب زعمه. ردّت «البحصة قد تسند خابية» أو تسأله «هل لا سمح الله ستفعل عيبًا؟ هي ستقوم بعمل شريف». كانت المرّة الأولى التي تحسّ فيها سارة أن لدى أمّها قوّة ما وقدرة على أن ترفع رأسها أخيرًا. هكذا صارت تخيط لهم ثيابهم مستفيدة من بقايا أقمشة أو من أخرى تشتريها بسعر الجملة. كانت تخيط لهم أيضًا حقائب قماشية يتباهون بحملها لاختلافها عن حقائب الجلد الشائعة. كانت حقائب بناتها مبهرجة الألوان زيّنتها لهن بمطرزات وبخرز ملوّن.

لم يتعرّف مارون بأهلها إلّا بعد أن قرّرا الزواج. ظلّت تؤجّل زيارته وتهيّئه بالتقطير إلى ما سوف يراه. اصطحبته في سهرات إلى بيت ليلى، تعرّف على ميرا وتغدّيا عدة مرات مع أهلها. لكن زيارة أسرتها ظلّت مؤجلة إلى شهرين قبل الزواج.

نشأ مارون في بيئة مختلفة عنها تمامًا. لحظة قدَّمها لأهله أمسك بها خجل زادته نظرات والدته المتفحّصة، وأسئلة والده عن عائلتها. كانت كأنّها تخوض امتحانات لم تتهيّأ لها كتلك الكوابيس التي تراها في نومها. كان بيتهم من تلك البيوت القديمة المحاطة بحديقة فيها أشجار ليمون وأكي دنيا تحجب أغصانها الشبابيك العريضة، والستائر الثقيلة تشيع فيها عتمة حتى في عزّ النهار. إضافة لخجلها كانت الكنبة ذات المخمل

الكحلية اللون تزيد من شعورها بالحرّ. داومت على مسح عرق تصبّب من وجهها وشعرها، التصقت القميص الجديدة بجسدها. كأنّ نارًا اشتعلت فيها.

عندما بدأت ترتيبات العرس زعلت أم مارون من سارة، متّهمة إياها بحرمانها من أن تفرح بابنها الوحيد. لم ترِد فستانًا أبيض ولا مدعوّين ولا حفلة. زواج في الكنيسة يضمّ الأهل والأصدقاء المقرّبين. كانت تلك المشاحنات بداية لعلاقة متوتّرة ستظل قائمة بينهما رغم مرور السنين. عندما تخالف سارة حماتها الرأي تردّ عليها بزعل «أنت أعلم مني، ما أدراني أنا؟ مجرّد عجوز». الفترة التي سبقت زواجهما كانت مشحونة بالبكاء إلى درجة كادت فيها أن تتراجع عن الارتباط، لكن مارون علم كيف يراضيها ويتحايل عليها لاجئًا لأمها لتقنعها أولًا بالحفلة إكرامًا لأهله ولأختيه المهاجرتين وعائلتَيهما، وثانيًا بارتداء فستان عرس. كانت أمها السعيدة بإعطائها دورًا تكرّر على مسامعها إن أختَيْ مارون قادمتان من آخر الأرض لمشاركة اخيهما الوحيد فرحته. كان ما تحمّلته حينها كابوسًا تكره استرجاعه. حين يقلّب أحد ألبومات الزواج تتحاشى النظر إليها. في الأخير لم تفعل أي شيء كما أرادته. لبست فستانًا أبيض وكانت فيه كدمية زينة، خاصة بتلك الأصباغ التي لوّنت وجهها. كانت عيناها محمرَّتين بسبب عدسات لاصقة لم تعتدها. مشت كالعمياء بحذر خشية أن تتعثّر وتقع. صافحت وابتسمت وحادثت أناسًا لا يربطها بهم شيء. لم تغضب من نفسها كما فعلت في تلك الليلة. لم تشعر أنه عرسها بل جنازة لسارة التي ألفتها طوال ثلاثين عامًا. حتى بعد أن خفّت لاحقًا حدّة تلك المشاعر ستبقى في رأسها ذكرى زواجهما أليمة.

السنوات التي مضت لم تقرّبها من أهله، ولا إنجابها حفيدين ذكرين. لا ترتاح إلّا حين يسافران إلى استراليا عند ابنتَيهما. لشهور ترتاح من تلك الزيارات الأسبوعية الثقيلة. كأنّها خلالها مرغمة على تأدية دور في

مسرحية تافهة. مع تقدّمهما في السن عوّدت نفسها على قبول الكثير مما يقولون أو يفعلون دون أن تتأثّر كما كانت تفعل سابقًا. تتظاهر باستساغة آرائهم في التربية وفي إدارة شؤون المال والبيت والمصاريف، وفي أمور الحياة كافة. ثمّ شيئًا فشيئًا صارت شفقتها عليهما تدفعها لتبرير أقوالهما.

كلّ شيء تغيّر مع الوقت حتى والدها. الأمراض والعمليات أضعفته. حوّلته إلى شخص صامت كأنّه فارق الحياة. لم يكن الشلل إلّا بداية لسلسلة من المضاعفات سترغمه على الخضوع لعمليات في الظهر، ولجلسات علاج فيزيائي لن تخفّف من آلامه. ولن تعيد بناء عضلات ماتت إلى غير رجعة. حين تزور أهلها تحاول ألا تطيل النظر إليه. رغم ذلك تبقى صورة وجهه المتغضّن الهزيل وجلد رقبته المترهّل، وفمه الخالي من الأسنان عالقة في رأسها. تمنعها من النوم وتبكيها بصمت. الراديو هو رفيق يومه وليله. كان أفضل هدية قدّمتها له على مدار السنين. في البداية اشترت أجهزة معقّدة ومتعددة الاستخدامات، لكن ما أفرحه هو جهاز بحجم كف اليد بإمكانه حمله دائمًا ووضعه فوق ركبتيه أو قرب وسادته. حاولت أن تقنعه بوضع طقم أسنان. إذ ما كان يأكل إلّا الأطعمة اللينة أو المطحونة. وحين استسلم لإرادتها أخيرًا، ورافقته إلى كل جلسات القياس، وضع الطقم لفترة ثم انتزعه بحجة الألم الذي يشعر به أو صوت الأصطكاك الذي تحدثه الأسنان حين تحتكّ ببعضها. صار يضعه كزينة عندما تزورهم. لاحقًا امتنع حتى عن ذلك وظلّ يكرّر إنها دفعت هذا المبلغ الكبير على طقم لا يستخدمه فلماذا لا تهديه إلى حموَيها علّ أحدًا يستفيد منه. كانت تشتري أشياء كثيرة لأمّها أيضًا. عندما آلمتها قدماها اشترت لها حذاءً طبيًا. أخبرتها ابنتها إيفون عن سعره، فما عادت قادرة على انتعاله. لمّعته ووضعته في كيس قائلة لسارة أن تنتعله هي لأنه لم ينفعها أو أن تردّه للمحل وتستردّ ما دفعته. الهدايا الوحيدة التي يقبلانها هي التي لا تكلّف مالًا كثيرًا. أو تلك التي يحصلون

عليها عندما تقرّر هي التخلي عنها، كالسجادة أو البوتاغاز الذي تعطّل فرنه، أو خزانة باتت صغيرة بالنسبة إليهم. الفراش المائي الذي اشترته بعد العملية الثانية في ظهر والدها كذبت بشأنه. قالت إن صديقة لها استخدمته بعد عملية في ظهرها وحين تعافت أرادت التخلّص منه. لكن أمها ظلّت تتحايل عليها بأسئلة مبطّنة لتعلم من هي تلك الصديقة التي لم تسمع باسمها. أو تبادرها بأسئلة مفاجئة كيف صار ظهر صديقتك؟ أو هل بيتها بعيد عن سكنك؟ سارة التي تعلم طباع والدتها، هيّأت في رأسها ردودًا ثابتة تبعد الشك عن رأسها. حتى أختها ايفون التي تتقاضى الحدّ الأدنى من الأجور تربكها الهدايا. حين تدعوها سارة إلى مناسبات عائلية، كانت تمكث ساكتة مكتفية بالابتسام كأنّها سترتكب خطأً لا يغتفر إن تفوّهت بكلمة. تذكر عندما اصطحبتها معها في مشوار جمعها بصديقاتها. شربت كأس نبيذ، فتحرّرت من حرجها. ورأتها سارة لأول مرة متخفّفة من انكماشها وخجلها المرَضي. كانت تحكي مع ليلى عن الراهبات وصعوبة التعامل معهن، وكيف أنها طوال هذه السنين لم تحصل على اية علاوة. شرحت لها طبيعة عملها وليلى نصحتها ببعض البرامج المعلوماتية المسهَّلة. لكنها في اليوم التالي اتصلت بسارة وكانت كمن نزلت به مصيبة. اعتذرت لأنها ربما ثرثرت، ما كانت واعية تمامًا خاصة إنها غير معتادة على المشروب. عبثًا حاولت سارة تطمينها، لكن ذلك لم ينفع. أيفون لم تتجاوز آثار طفولتها. ما إن يرفع أحدهم صوته حتى يرتسم الفزع على وجهها حتى لو كان ذلك تلاسنًا بين سائقين، أو خلافًا بين الجيران. تبكيها أي ملاحظة من الراهبة المسؤولة، ولا تزال حبيسة البيت كأنها لم تكبر، لا تخرج إلّا للعمل وفي بعض أيام الأحد ترافق أمها إلى الكنيسة. الرجال الذين تعرّفت إليهم كانوا في معظمهم إما عن طريق الكاهن، وإمّا عبر جارة ما. لم يرُق لها أيّ منهم، لا لأنهم أرامل أولادهم أكبر منها، ولا لأنهم عوانس يريدون من يخدمهم في كبرهم، بل

لأنها حزرت أن من كان مثلها سيبقى غريبًا برفقة رجل تمقت كل تفصيل فيه. كان رفضها يُنزل همًّا عن كاهل سارة التي كانت تدعى لتكون شاهدة على زيارة العرسان. أكثر ما كان يثير عجبها هو موقف أهلها المؤيّد دائمًا لإيفون. كأنهما غير متشوّقين لتزويجها. بلوغها السابعة والثلاثين لم يدفعهما إلى الضغط عليها. لم تعلم إن كان سبب موقفهما هذا هو خوفهما من البقاء وحيدَيْن أم أنهما فعلًا قلقان من زيجات محكومة بالفشل والتعاسة.

وضعت الأوراق أمامها وهي تسكب فنجانًا ثانيًا من القهوة. سألها مارون كيف لديها تصحيح ولم يمضِ أسبوع على بدء العام. لم تردّ، لا رغبة لديها في الخوض في جدال تكرّر بينهما على مدى اثنتي عشرة سنة. هو رغم الدروس الخصوصية التي يكرّس لها أربع ساعات يوميًا وحتى أكثر قبل الامتحانات، لا تراه يحرم نفسه من النوم إن كان لديه تصحيح. يسألها «لماذا العجلة؟». في البداية كانت تحتدّ نافية أن تكون طريقتها في التدريس هي السبب. الآن تسمعه دون أن تكلّف نفسها عناء التبرير. كما إن عليها ايقاظ ابنيها. جوزيف ينهض ما إن تطبع قبلة على جبهته. كأنه يخشى تماديها في ضمّه وتدليله أو الغناء له كما تفعل مع أخيه وليم. أمّا وليم فترتسم ابتسامة على وجهه ما إن تجلس على سريره، لا يفتح عينيه إلّا بعد أن تقبِّله وتدغدغه أو تغنّي له واحدة من أغاني ألّفتها من أجله في صغره. مع أنه أصغر من أخيه بسنة لكنه يبدو مستمتعًا بطفولته غير متعجل على مغادرتها. هي تختار له ثيابه، أما جوزيف فيعتمد على نفسه منذ صار في الرابعة. كان عنيدًا ولا يتراجع عن ارتداء ثياب لا تناسب الطقس. الكنزة التي تحملها رغمًا عنه لا يقبل بأخذها عندما يترجّل راكضًا باتجاه المدخل.

منذ أول يوم في المدرسة تحفظ روزنامة العطل، وتزعل مصادفة بعضها يومي سبت أو أحد. كم تختلف الآن عن المعلمة التي كانتها سابقًا. عندما تخرّجت من الجامعة اللبنانية، حالفها الحظ أن يُقبل طلب

توظيفها في مدرسة جيدة. بدأت معلمة في الابتدائي للصف الرابع كانت تدرّس كل المواد باستثناء اللغة العربية. بعد الظهر كانت تعطي دروسًا خصوصية. لم تكن تصرف إلّا القليل مما تحصّل. كل قرش جنته وفّرته. وكانت تحسّ شهرًا بعد شهر أن سفرها إلى فرنسا اقترب. في تلك الفترة كانت لا تزال تحلم بالكتابة، أشعار ملأت دفاترها منذ صغرها. بعضها حفظته في المدرسة وبعضها الآخر مستوحى منها. في صف البكالوريا رغم تعلّقها بمعلمة الأدب لم يخطر لها أبدًا أن تعرض عليها كتاباتها الأولى. كانت العالم الذي يخصّها وحدها.

الآن لا تذكر متى كانت المرّة الأخيرة التي كتبت فيها شيئًا في تلك الدفاتر المنسية في قعر جارور. فات الأوان على الأحلام. كل شيء تغيّر. كانت تظنّ أنها تحدث فرقًا في عقول أولئك الذين يجلسون على المقاعد قبالتها. لكنّ الوهم زال. ترى الضجر في عيونهم وانتظارهم أن يحّررهم الجرس من بودلير وموليير وغيرهما. ترى أصابعهم المخفية تحت الطاولة. تتحرّك بسرعة فوق شاشة هواتفهم. ترى عيونهم المغضية. تختار ألا ترى فلا قوّة عندها للمحاربة. كانت تظنّ حين وافقت على تدريس مادة في اليسوعية أنها ستسترجع حماسها، لم تجد فيهم إلّا جهلًا يفوق تلاميذ الثانوي.

ما تفعله هو مغالبة نفسها. تهرب إلى أشياء أخرى، كأن تبحث عن بيت، أو تنشغل بمشاكل ميرا وليلى، أو تزور ندى التي تفرح بالكلام معها عن الكتب. تحسدها على عملها أمينة مكتبة، رغم تأكيد ندى أن عملها ليس الجلوس طوال النهار والقراءة. هناك صفوف تأتي للعمل. وعليها المشاركة بإرشادهم إلى طرق البحث عبر الكمبيوتر أولًا، وشرح نظام الاستعارة والردّ، وشراء الكتب وأرشفتها، وغيرها من الانشغالات التي لا تبقي لديها أي فراغ خلال دوام العمل. كل هذا لا يمنعها من الظنّ أنها إن قامت بعمل ندى لن تتأفّف طوال حياتها.

تزعل كلّما خطر ببالها المرة الأخيرة التي دعتهم فيها إلى بيت حماتها الجبلي. كان المبيت فيه كارثة حقيقية حتى إن لينا ابنة ندى رفضت أن تنام بعد أن أفزعتها عقربة تراكضت فوق الكنبة. غادروا كلهم ليلًا متظاهرين أنهم في الأصل كانوا عازمين على قضاء النهار فقط. لا تدري هل السبب هو نفورهم من النوم على أفرشة متحاذية فوق أرض الصالون، أم أن الصمت غير المألوف حولهم أرهقهم. مغالاتهم في وصف اليوم السعيد لم تقنعها.

وحدها ليلى لم تأت. راغده جاءت بصحبة صديقة لها. أما ميرا فبقيت طوال النهار تمشي وسط حقول الزيتون. وعندما فرشوا الحصير تحت الصفصافة أمام الدار تمدّدت فوقه مستغرقة في تأمل الغيوم البيضاء السارحة، ولم تستيقظ من شرودها إلّا حين اجتمعوا للأكل. لينا ابنة ندى كانت زعلانة طوال الوقت، لم تستجب لطلبات أمّها في مراقبة أختها الصغيرة أو في ملاعبة جوزيف ووليم، أو اصطحابهم إلى ساقية الماء القريبة. لم تتخيّل سارة أن المشوار سيفشل على هذا النحو.

منذ وفاة خال مارون وتسلّم أمه للبيت، وهم يقومون بإصلاحات فيه. الخال قام بتغييرات بنفسه بما أنه كان نجارًا. أنشأ حماماً جديدًا وغيّر كل ما في المطبخ، لكن السقوف احتاجت إلى اصلاح وكذلك الجدران المتقشرة الطلاء والمصطبة التي تفسّخ الباطون في أرضيتها. الأثاث صنعه هو في معظمه. صحيح أنه قديم الطراز ولا ينسجم مع الذوق السائد، لكنه متين وتحبّ ساره فيه الأقمشة المقلّمة وألوانها الهادئة. خيّل لسارة أن بإمكانها الاستفادة من البيت في غياب حمَوَيْها. لا تعلم لماذا لم يسحرهم المكان مثلها. ما إن رحلوا حتى صار جوزيف يطالب بدوره بالعودة إلى بيروت. أرادت لإبنيها أن يستمتعا بالركض خارجًا وباختراع ألعاب في الهواء الطلق. وكانت النتيجة جلوسهما على الكنبة واستغراقهما في ألعاب على الهاتف. لكنها لم تردّ على توسّلات

جوزيف لا بل صرخت به على غير عادتها. وليم التصق بها حاشرًا رأسه بخاصرتها، وكان ينظر مثلها إلى القمر شبه البدر في السماء ويسألها عن أسماء النجوم، وحين تجيب إنها لا تعرفها يبدأ بتعدادها. هكذا يفعل دائمًا، لا يثق بمعرفته إلّا أن ادّعت هي الجهل التام.

حين ناما، جلست على المصطبة، تتسمّع إلى صرير الجنادب في الصنوبرات. على التلة بيوت تُسمع أصوات ساكنيها وطرطقة الصحون والأواني التي تُجمع بعد العشاء. وفي الجهة الأبعد ترى أضواء السيارات تسير في طرق تتعرّج حتى تغيّبها العتمة والمسافة. الهواء محمَّل برائحة الصمغ والأعشاب.

على خلافها يكره مارون المبيت في بيت جَدَّيه. مرّة بحجة صعوبة القيادة لأكثر من ساعة، وأخرى بحجة الضجر في مكان معزول. أو يقول إن البيت غير مريح. النوم على أسرّته يعقر ظهره، وأفواج البرغش تنغّص عليه نومه والأعشاب تسبّب له الحساسية. يظلّ يذكّرها بالورم الذي أطبق جفن عينه لعشرين يومًا لا لشيء سوى لتنزّهه في الحقل برفقتها. أو يقول إنها لا تعرف مثله ما يعني العيش في قرية، بما أنها طوال حياتها لم تعش إلّا في بيروت. ويستذكر الفترات التي قضاها مع أهله عند جَدَّيه سواء بسبب الحروب أو في المناسبات كالأعياد والاحتفالات. اعتادت خلال الصيف الذهاب بداية برفقة ابنيها إلى الجبل وحين باتا يرفضان، كانت تذهب وحدها. لكن شعورها بالذنب كان يدفعها للعودة وهي في منتصف الطريق.

في بداية الزواج كانا يقومان بكلّ شيء معًا. ترافقه لسهرات عند أصدقائه وتتعلّم قبولهم رغم بعدها التام عن عالمهم واهتماماتهم. باتت تفهم في دوري الفوتبول وأنواع السيارات، شاركت بأحاديث السياسة، كلمات جوفاء تملأ ساعات الليل. استمعت للزوجات ولحديثهن عن المشتريات أو لشكواهنّ من العمل أو من العاملة المنزلية أو من مشاكل

الأولاد أو فقط يتحدثن عن مصفف جديد للشعر وعن حمية غذائية جديدة. كانت حين تعود إلى البيت يرافقها الانزعاج أيامًا. كأنها أُفرغت من الداخل. وعندما تحكي مع مارون كان يسألها باستغراب لماذا تبالغ هكذا وأن فلانًا أو فلانة بغاية الودّ. لاحقًا اختلفت الكلمات وصار يقول إن عليها أن تتبدّل وإنه لا يجوز أن تكون عدائية هكذا. بعد الإنجاب، امتلكت الحجج كي لا تلبي إلّا نادرًا تلك الدعوات. مع الوقت قبل مارون أن يخرج وحيدًا أو أن تلتقي صديقاتها دون أن يرافقها، إذ كثيرًا ما كانت مرافقتها إلى سهرات مشتركة كالعقاب بالنسبة إليه.

على مرّ السنين، رأت مارون بعينين مختلفتين. كانت تتساءل في سرّها، أين رحل الشاب اللطيف الذي أغرمت به. أين الرجل الذي كان يستمع إلى حديثها ويتعاطف مع ما يؤلمها أو يجرحها. الآن ردّه الدائم: «أف كم تبالغين».

هكذا طوّرت لديها قدرة على الصمت. لكن هذا لم يمنع اختلافهما في كلّ شيء. أكثر ما كان يوتّر الجو بينهما هو تربية جوزيف ووليم. صارت تعجب كيف يمكن أن يكون لهما رأيان متناقضان تمامًا بخصوص الناس أو بكل شأن من شؤون حياتهما. عليها أن تكون أقوى، هو جوابه على ما تمرّ به من هبوط معنوي أو إحباط من العمل أو قلق على ولديها أو حتى في حالة المرض. أو يقول إنها امرأة معقّدة، حتى الله يعجز عن فهمها. في البداية أرادت أن يعرفها حقًا وتذكُر ساعات من الجدال تبقيهما مستيقظين حتى ساعة متأخّرة. وكان النعاس هو ما يدفعه إلى انهاء الحديث بالاعتذار منها. وحين تردّ إنها لا تنتظر اعتذاراَ يجيب: «ماذا تريدين إذًا، تعذيبي؟ أريد أن أنام».

يتبرّع مارون لإيصال جوزيف ووليم بما أن دوامها لن يبدأ قبل التاسعة. تعود إلى طاولة المطبخ وتسكب ما تبقى في الركوة. تشرب التفل المترسّب في قعر الفنجان. ترتاح للوقت الذي تكون فيه وحدها

تمامًا. تشغّل المروحة حتى تغيب عنها أصوات الشارع. بينما تستحمّ أصابها تشنّج في ظهرها أبقاها في وضعية الانحناء، وجدت صعوبة في تجفيف جسمها، كأن بروقًا تضرب خاصرتها جهة اليمين. تعالت صرخات الألم رغمًا عنها. ابتلعت قرصين من دواء سبق ووصفه لها الطبيب. الأمراض التي استبدّت بها مؤخرًا زادت من إحساسها بالضعف وبالعمر. منذ نصحها الطبيب ببعض الرياضة وهي تخرج مساء للسير. في العطل تفضّل القيام بذلك صباحًا. تحبّ الوقت الذي ينسيها فيه المشي نفسها فتسرع إلى حدّ الركض وتحسّ أنها تحلّق عاليًا وتتلاشى الزمامير ولا يبقى في أذنيها سوى الموسيقى. مهما كان الطقس تخرج حتى حين تكون الأوجاع في أسفل ظهرها قوية. تمشي، كمن يحذر كل خطوة. تقوم بتمارين التنفس تدخل هواء المدينة الملوّث إلى اعماق رئتيها ثم تزفره على مهل. لكن الوجع يعود أقوى ما إن تنتهي من رياضتها. شكّكت بالطبيب عندما قال إنّ سبب ألم ظهرها نفسي. قصدت آخر وقامت مجددًا بكل صور الأشعة. أمراضها كثرت بعد الإنجاب. شكلها تغيّر أيضًا،مع أنها ما كانت تكتسب وزنًا كبيرًا خلال الحمل، تشقّق جلد بطنها وترهّل، وتكدّست الدهون عند ردفيها وبطنها. صارت تخجل أن يرى مارون عريها. وإن فاجأها وهي تبدّل ثيابها تسرع لتغطية نفسها بأي شيء بمتناول يدها. كان يزعل بداية ويسألها لماذا تعامله كالغريب. حين أكتسبت وزنًا، ما عادت تنظر في المرآة. باتت لا تدري من هي تلك المرأة. فرضت على نفسها ما يشبه الصيام على مدى شهور. خسرت ما اكتسبته لكن الخوف من الطعام لم يفارقها منذ ذلك الحين. في البيت تبدّل مذاق طعامها، دون سمن ولا ملح كثير ولا طعام مقلي، البطاطا المقلية لا تحضّر إلّا يوم الجمعة. يوم تسمح فيه لجوزيف ووليم باختيار أي من الأطعمة السريعة كالهمبرغر والبيتزا. كانا يعترضان على أنها معَدّة في البيت وأن مذاقها مختلف. تراقب ما يأكلانه من شوكولا وبسكويت

وتحاول أن ترغّبهما بالفاكهة. كانت ثورة جوزيف دائمة على قوانينها الغذائية، يسألها إن كان أهل رفاقه لا يحبونهم؟ وإلا كيف يشربون البيسي ويأكلون ما يشاؤون من الشوكولا؟ حين خفّت اعتراضاته حدست أنه يشتري ما يشاء خاصة بعد النشاطات الرياضية. تظاهرت بالجهل، وضيّقت عليه في مصروفه طالبة منه أن يشتري من الآن وصاعدًا ما يريد من ألعاب معتمدًا على ماله. كان وليم يقلّد جوزيف ليثبت أنه كبر هو الآخر، لكن يكفي أن تجلسه لإفهامه حتى يرفع عينيه المحبَّتَين، ويبدي قبولًا تامًا. كانت تخفي في أعماقها هذا الضعف الذي تشعر به تجاه وليم. قربها منه ما كان خفيًّا كما اعتقدت. غيرة جوزيف برزت منذ ولادة وليم. رغم اعتماده الكلي على نفسه في دروسه، كان يقاطع تدريسها لوليم بأسئلة يعرف أجوبتها. أو يدّعي ألمًا ما في رأسه أو بطنه. كان مارون ينتقد دائمًا التصاقها بوليم ومنعه من الاستقلالية، وكان ردّها أنها لا تفعل سوى ما نصحتها الأخصائية به. هي تعلم أن ليس ذلك صحيحًا. لم تطلب منها الأخصائية أن تحضّر له ثيابه وأن تجلس قربه حتى ينام، ولا أن تقوم بدلًا منه بتوضيب حقيبة المدرسة، ولا بمحاصرته بكل أنواع الأسئلة حتى يحكي لها تفاصيل يومه وأحلامه وكوابيسه. لكنّها مهما حاولت تجد نفسها مدفوعة إليه وكثيرًا ما كان يشقّ عليها ألّا تصحبه معها في مشاويرها.

بعد إنجابها لم ترد إرسال لا جوزيف ولا وليم إلى الحضانة. لم يكن تركها الوظيفة خيارًا متاحًا. كان جوزيف لم يبلغ بعد شهره الرابع عندما بدأ العام الدراسي. وشهد بيتهم خلافات يومية وصراخًا بينها وبين مارون. هو مصر على الحضانة. استمرّ يسألها «ما الحل؟ أمك لا تستطيع أن ترعاه فلديها والدك». وهي تجيب إن أيجاد حلّ ليس مسؤوليتها وحدها. كانت أمها مَنْ اقترحت عليها أن توظّف ناديا. قالت إنّهم يعرفونها منذ عشرات السنين، إضافة إلى إن لديها أربعة أولاد وعندها خبرة، وزوجها بلا عمل

منذ فترة. لم يكن قرارًا سهلًا، لكن أمها هوّنت عليها بزياراتها اليومية أثناء غيابها. رغم غيرتها من ناديا التي تحوّلت إلى الشخص الأهمّ في حياة كل من جوزيف ثم وليم، أراح قلبها أن تجد شخصًا لديه كل هذا الحبّ في قلبه. اعتبرت أنها محظوظة، خاصة وهي ترى بؤس زميلاتها حين يرسلن ابنًا مريضًا إلى الحضانة أو حيرتهن في إيجاد من يرعاه أيام تطول الاجتماعات وتكثر الدورات التدريبية الإلزامية. من تلك السنوات تذكر عيشها في ركض دائم، ما عادت ترى لا أصدقاءها ولا كانت تشارك في أي مناسبة. طوال سنوات لم تلبِّ دعوة واحدة. اعتاد مارون أن يخرج وحده. وحين نظّم أصحابه رحلة إلى مصر لم ترافقه. كان المكان الذي تحنّ للسفر إليه هو باريس. كثيرًا ما كانت تسترجع مع ميرا تلك الأيام، حتى البرد الذي نخر عظامها في غرفة سيئة التدفئة تشتاق إليه. وحين علمت بموت هنرييت بكت بحرقة كأنّها فقدت شخصًا أحبّته رغم بخلها ورغم قسوة ما فرضته عليها لقاء إيوائها.

في باريس أكتشفت الحدائق وكانت كثيرًا ما تقترح على أصحابها في العطل أن يقضوا يومهم فيها. ما كانت تملّ منها، بهرتها الأشجار والبحيرات الصغيرة. في بيروت النبات الوحيد هو شتول الزينة في البيوت وما كانت تحبّها، تراها شبيهة بزهور البلاستيك الموجودة في بيتهم منذ صغرها. زهور كانت أمها تداوم على مسحها من الغبار ولا تغسلها كثيرًا بحجة أن ألوانها سوف تبهت. اكتشفت المكتبات العامة، وكانت تتأمّل الرفوف مكتفية أحيانًا بقراءة عناوين الكتب وأسماء المؤلفين. أمّا السينمات بصالاتها الصغيرة فكانت الاكتشاف الرائع بالنسبة إليها. وحين عادت إلى لبنان، حاولت أن تقصد نوادي السينما، لكنها لم تشعر بالسعادة نفسها. هناك كانت حرة كأنها غير مرئية. تجلس في عتمة الصالة وتنتقل بروحها إلى حياة أخرى. رافقتها ميرا إلى ناد للسينما في جامعة الألبا، وإلى المركز الفرنسي والمركز الألماني. لكنهما سئمتا سريعًا،

حتى الأفلام التي سبق وشاهدتاها معًا في باريس فقدت هنا سحرها وبهتت، ولم تتمكّنا من استعادة ما فقدتاه.

لا تجد مكانًا لركن سيارتها إلّا بعد أن قامت بثلاث دورات حول المدرسة. وعندما ركنتها أخيرًا، أسرعت راكضة باتجاه المدخل. دقائق قليلة كانت كافية لجعلها تتصبّب عرقًا. سيكون عليها الآن أن تقف بمواجهة تلاميذها محاذرة أن ترفع ذراعها.

بداية العام تقلقها دائمًا، حتى لو سارعت في حفظ أسماء التلاميذ ووضعت برنامجًا دقيقًا للانتهاء من البرنامج، تشعر أنها أمام غرباء. وأن السنة ستنقضي دون أن تتمكّن من إنهاء المنهاج. مارون يسألها لماذا الأمور معكوسة في رأسها. ويذكرّها أنها هي المعلمة صاحبة القرار والسلطة. لا يفهم أن المسألة لا علاقة بالسلطة. صعب عليها أن تفسّر له.

كما صعب أن تشرح له الكثير مما تشعر به. على مدار السنوات زادت الهوّة ولم تعد تبذل أيّ جهد حين فهمت أن ما تسعى إليه لن يتحقّق. ستبقى في نظره امرأة مستعصية. وحالاتها النفسية لها وصف واحد عنده «عقد». هي أيضًا سئمت من البحث عن الشخص الذي أحبّته. قد تكون جمّلته دون أن تعي. ما عادت تلومه عندما تجرحها كلماته، فهمت أنه لا يقصد ايذاءها. لكنّ هذا الفهم لم يبدّل شيئًا من واقع عيشهما. من أنها لا تفعل سوى الهروب.

قبل أن تدخل الصف سمعت رسالة صوتية من مارون يخبرها إنّه سيتأخّر ولن يأكل في البيت، ويسأل إن كانت تريده أن يحضر أغراضًا في طريقه؟ تطلب منه اصطحاب جوزيف عند انتهائه من درس التنس. تنظر بطرف عينها إلى البقع تحت إبطها وتدخل الصف بحذر فيما عيونهم تلاحقها دون أن يردّوا على تحيتها. تعلم أنهم حين يكبرون أول شيء يفعلونه هو الامتناع عن قواعد سلوكية فرضت عليهم. لا يقفون عند دخول الأساتذة، ويواصلون ثرثرتهم كأنهم وحدهم.

اعتادت أن تتحايل على تعبها فتفكّر بمكافأة تنتظرها في يومها. قد يكون كتابًا أو مشوارًا ما، أو تستأجر فيلمًا لتشاهده وحدها بعد أن ينام الجميع. أو تجرّب وصفة صحية لإعداد الحلوى. كثيرًا ما استفادت من راغده في هذا المجال، استعارت منها كتبًا وتعلّمت كل البدائل الصحية للزبدة والسكر. تعلّمت إعداد الخبز الصحي وبسكويت الشوفان وغيرها من الأطعمة التي تقرأ عن فائدتها الصحية. ما كانت تخسر حماسها حتى حين يقول ولداها إن الطعم كريه أو غريب، وحده مارون أحبّ تجاربها، خاصة بعد أن أجبره الطبيب على إنقاص وزنه وعلى ممارسة الرياضة. قال له إن تناول دواء للكوليسترول لا يكفي لحماية شرايين قلبه. اشترى آلة مشي احتلت حيّزًا كبيرًا من غرفة نومهما. داوم على استخدامها حتى نسي خوفه. ثمّ فضّل الانتساب إلى ناد كان يقصده مساء برفقة صديقه أحمد بدران، لكن السأم ما لبث أن أصابهما وصارا بدلًا من الرياضة يسخران من الرجال الذين يدفعهم العمر إلى تقليد المراهقين بما في ذلك تنمية العضلات.

في الآونة الأخيرة كانت تخرج برفقة ندى. تصحب وليم الذي يفرحه أن يلعب مع صونيا دور الأخ الأكبر. يعلّمها الألعاب ويخبرها أشياء تسمعه ساره يختلقها فتضحك من مخيلته الطريفة. يقول لها وهما واقفان قبالة البحر، إنه رأى ذات مرة دلفينًا وسبح معه وعاد إلى الشاطئ ممتطيًا ظهره.

الزيارة التي تحاول دائمًا تأجيلها هي لأهلها، يلزمها وقت طويل حتى يعتدل مزاجها بعدها. في شهر يصدمها مقدار ما يتغيّرون. تنصت لوالدها يخبرها شيئًا طريفًا سمعه على الراديو، تشاركه الضحك دون أن تفهم كلمة واحدة. دون أسنان يستحيل أن تفهمه. يشقّ عليها أن تنظر إليه. أن ترى الزبد الأبيض عند زاويتي شفتيه وتجاعيده التي حفرت وجهه الهزيل وهذا الانحناء الذي يجعل رأسه شبه ملتصق بركبتيه. العمليات

لم تفعل سوى زيادة آلامه. لا تدري سرّ تحوّله. لا تذكره إلّا غاضبًا. الآن يبدو لها أكثر سكينة لا يبين غضبه إلّا حين يضطرّ لاعادة كلامه غير المفهوم. لا أحد يجرؤ على مصارحته أن كلماته تسقط في أسماعهم كالغمغمة. مهما حاولت أن تكون مبتكرة في ما تشتريه لهما، لا شيء يسرّه كالبطاريات، يقول إنها لا تفرغ بسرعة. يحبّ أيضًا راحة الحلقوم، لكن إصابة أمها بالسكري جعلتها تبتعد عن الحلويات. أحيانًا يتحدّثان معها في الوقت نفسه ولا تدري كيف ينتظران أن تتمكّن من سماعهما معًا. أمها تسارع لإحضار أوراق الفحوصات والأدوية. رغم أن سارة تقرأها بتأنٍّ، لكنها لا تفهم الكثير من المصطلحات الطبية. امتنعت عن تنبيهما إلى العوارض الجانبية لأن ذلك لن ينفع إلّا بإخافتهما أو دفعهما إلى التوقّف عن الدواء. تعاني أمها من آلام في ظهرها يزيدها اضطرارها إلى رفع زوجها مرارًا لدخول الحمام والاستحمام والنوم. حين تنظر إلى ذراعَيْ أمها ترى عضلاتها التي يتدلّى من حولها جلد مجعد ومترهّل. معاناة أمها من أمراض كالسكري والكوليسترول والضغط العالي وتآكل في عدد من فقرات ظهرها لا يقلقها بقدر البقع البنية التي بدأت تظهر فوق حاجبيها. تظلّ تشير إليها وتسأل سارة ماذا تفعل لتخفيها خاصة أن لونها يغمق. اشترت لها سارة كريمات لكن لا اللون فتح ولا البقع اختفت، ظهرت أخرى على وجنتيها.

تخاف وهي ترى والديها، تحاول أن تقنع نفسها أنها لن تشبههما بالضرورة مستقبلًا. بحضور أخوتها لا تحسّ بالثقل نفسه. يستعيدون قصص طفولتهم التي تتخفّف من جانبها المأساوي وتصبح بغاية الطرافة. كلّ شيء يحوّرونه. الجوع، الرسوب، العقاب، حتى شتائم والدهم وغضبه. مثل هذه الاجتماعات العائلية تباعدت كثيرًا.

في بداية زواجها كان مارون يحضر معها في الأعياد. الآن لا يفعل، وحين تعود من الزيارة ثقيلة القلب، لا يسألها عنهم ولو على سبيل

المجاملة. حتى خلال زيارة أخوتها لها لا يجلس معهم، إن كان في البيت يكتفي بمصافحتهم ثم التحجّج بمشوار اضطراري أو درس خاص لا يؤجَّل. وهي تعويضًا عن برودته تحتار ماذا تفعل كي تطرد تحرّجهم. لا تطالبه لاحقًا بشيء ولا تعاتبه. لكن ذلك ما كان يمنعه من انتقاد أخوتها، كأن يقول إن أخاها يخاف زوجته البلهاء وأختها بريجيت بسيطة وتحكي كأنها غير متعلمة وأيفون بلا شخصية. أقوال كانت تجنّنها، لكنها تعلّمت ألا تردّ عليها. كانت معزولة داخل نفسها. ما عادت تخبره عن حادثة قرأتها أو قصة واجهت أحدًا تعرفه. كي لا تسمعه يقول إنها تبحث عن الهم لتجلبه إلى نفسها من أقاصي الأرض. سابقًا كانت تعترض وتسأله إن كان ينتظر أن تكون كالحجر. الآن لا تشاركه أيًا مما تقرأه أو تسمعه أو تعيشه. الحديث الوحيد الممكن هو عن ابنَيْهما والأغراض والمشتريات. كما يشتركان أيضًا بالحسابات المالية، وتترك لمارون حرية تحديد المصاريف الشهرية والمدّخرات، بحجة أنها تضيع بالأرقام.

اعتادت أن تبحث عن متنفّس لها خارج البيت. وحين تجد فراغًا لديها تلجأ إلى ميرا أو إلى أيٍّ من صديقاتها. لا يهمّها أن يحلّ الصمت على لقائها بهن، لكن برفقتهن تشعر أنها ليست وحدها. حتى عندما تواجَه بانتقاد لا تزعل. لا يهمّها الفيلم الذي تشاهده برفقتهن أو المقهى الذي يقصدونه، معهن تضحك أو تحزن أو حتى تضجر، لكنها تشعر أنها غير ميتة.

جلست خلف طاولتها تراقب تلاميذها وهم يكتبون دون أن يتوقّفوا عن التذمّر. حاولوا التملّص من الاختبار الكتابي مرة بحجة الحرّ الشديد وأخرى بحجّة أنهم لا زالوا في بداية العام. لكن ملامحها الصارمة أسكتتهم. كانت تراقبهم وهي تحسب في سرّها الوقت اللازم لتصحيح هذه الاختبارات. كانت رقبتها تؤلمها وتحسّ بيباس في كتفيها يصعّب عليها تحريك رأسها. ويندّ عنها تأوّه رغمًا عنها. تكبته محاولة الالتهاء

عنه، لكنها ما عادت كالسابق قادرة أن تسرح بأفكارها. كأن رأسها أشبه بجرة فارغة، لا فكرة فيه ولا حلم. ظلمة وخواء.

المروحة في السقف تثقل أجفانها بالنعاس، لذا تقوم عن الكرسي لتمشي بين التلاميذ، يخفون بأيديهم أوراقهم عن ناظريها. يظنّونها متلهّفة لقراءة كل هذه الحماقات.

دائمًا تستغرب كيف تبدّل العالم حولها في أقل من عشرين عامًا. التغيّر من طبيعة الأشياء لكنه صادم بالنسبة إليها كأنها انتقلت بغتة إلى كوكب آخر. وعليها أن تألف كائناته الغريبة وأن تتعلّم لغة كانت تجهلها. ليس السبب أنها كانت في بداية مهنتها مليئة بالحماس والأوهام. الناس، بمن فيهم التلاميذ، لا يشبهون بشيء تلك الأجيال الأولى التي علّمتها في بداية مهنتها. وحين تقرّر لهم كتابًا أُعجب به من سبقوهم، يكون سؤالهم الأول إن كان هناك فيلم مأخوذ عنه، أو كم عدد صفحاته. ليُجمعوا لاحقًا على أنه ممل أو سخيف. وحين تُستفزّ وتَسأل لماذا هو سخيف، يجيبون إن لا أحد يفكّر مثل شخصياته، أو يختارون مصائر أخرى تبدو لهم أكثر منطقية. لكن المشكلة بالنسبة إليها أن معظمهم لا يقرأ حتى الكتاب، بل يبحث على الأنترنت عن ملخّصات له لا تكون دقيقة. وهكذا تجد في امتحاناتهم التحاليل نفسها والأخطاء تتكرّر كما لو أنها تقرأ الورقة نفسها أكثر من خمسين مرة. تسألها زميلتها المقرّبة منها لماذا تهتمّ هكذا؟ تجيبها إن عليها أن تحاول التأثير فيهم. لكنها سنة بعد أخرى تجد أن جهودها تسقط في العدم. وأنها مهما تفعل لا تجرّهم للمناقشة أو التفكير الحرّ ولا تغيّر شعرة فيهم. أكثر من كان يستغرب شكواها هو مارون، يسألها ألا تشرحين جيدًا؟ ألست تصحّحين بالسرعة المطلوبة؟ ماذا تريدين أكثر؟ أتظنّين نفسك نبيًّا أو مصلِحًا؟ أنت مجرّد معلمة. قوله كان يجرحها أكثر من لامبالاة تلاميذها. لذا الآن لا تشكو إلّا لزميلتها ريما. في المدرسة هي الأقرب إليها. صحيح أنهما تقضيان معظم الفراغ

معًا وتحسّان بنوع من الألفة بينهما، لكن علاقتهما لا تتجاوز أسوار المدرسة. رغم السنوات التي قضتاها زميلتين مقربتين جوانب كثيرة تجهلها الواحدة منهما عن الأخرى. لا تعلم لا أين عاشت ريما ولا إن كان لديها أخوة ولا مهنة زوجها ولا اختصاص أولادها الجامعي. ولا ما تفعله في عطلها. حتى عمرها تقدّره بناء على سنوات التدريس. تترافقان لحضور الدورات التدريبية، تتشاركان الرؤيا نفسها في ما خصّ النشاطات المدرسية، والكتب المقرّرة، وتكوّنان الآراء نفسها بخصوص الآخرين. طوال هذه السنين لم تحاول أية واحدة منهما أن تتجاوز هذه الحدود. كأن هناك قانونًا سريًا اتفقتا عليه دون كلام. قانون يريح سارة. تستطيع أن تلقي محاضرة جامعية وتحكي لثلاث ساعات متواصلة عن بروست ولكن إن أرادت أن تخبر عن نفسها، تختار قشور حياتها. كالشكوى من الضجيج أو قسوة المدرسين في معاقبة ابنها جوزيف، أو تنتقد الدولة على التلوث والفساد وعجقة السير وأشياء تافهة أخرى، تشعرها بالخواء والزعل من نفسها.

كان مارون رفيق روحها. ما كانت تحتاج إلى صديق غيره. ينتظران نوم جوزيف ووليم الرضيع ويجلسان متلاصقين يحتضن أحدهما الآخر دون كلام كأنهما كانا مسافرين أو محرومَيْن من بعضهما. لا تدري من المسؤول فيهما عن هذه البرودة وهذه الغربة؟ الأزواج حولها يختلفون على أشياء، الخيانة أو القمار أو الإسراف في الشرب أو قلة المال. هما لم يختلفا على أي من تلك الأمور. فلماذا يعيشان تحت سقف واحد كأنّ سجّانًا وضعهما قسرًا في مكان واحد. منذ متى بدأ ذلك؟ لا تعلم. ربما بدأ عندما أصابها اكتئاب بعد ولادة وليم. تذكر أن كلامه كان يؤلمها أكثر من الحالة التي غرقت فيها. ليس فقط وصفه تشخيص الطبيب بالطق حنك بل استمراره في تجاهلها، كأنها غير موجودة. رغم ذلك بذلت جهدًا وبرّرت له في سرّها إذ من أين له أن يقدِّر ما تمرّ به. هكذا حين

عاد تقاربهما إلى سابق عهده طردت كل التجربة السابقة، تناستها. لكن لا شيء حقًا عاد إلى سابق عهده. كل كلمة منه كانت تحفر ثلمًا في قلبها. وأسوأ ما في الأمر هو عدم انتباهه. كان العجب المرتسم على وجهه من زعلها أو معاتبتها يعزلها كل مرة أكثر.

حتى حين يجلسان لمشاهدة التلفزيون لا يمكن أن يتفّقا على فيلم يتابعانه معًا.

حين رنّ الجرس سارعت لجمع الأوراق، انتزعها انتزاعًا من بعض التلاميذ. لا تفهم كيف لا يسقط عليهم الوحي إلّا في الدقيقة الأخيرة.

انتظرت جوزيف ووليم أمام البوابة الكبيرة. جوزيف بقي على مسافة منها، أما وليم فتهلّل وجهه وركض نحوها كأنه لم يرها منذ زمن. لا تحاول أن تكلّم جوزيف الذي يحرجه كل شيء، أن تقبّله، وأن يركب سيارتها بدلًا من الأتوكار، أو أن يذهب برفقة سائق خاص. كثيرًا ما كان يسأل عن سبب اختلافهم عن رفاقه، بيتهم صغير لا خدم عندهم ولا سائق ولا يقومون بسفريات في العطل. حبّه لجَدَّيه لأبيه لم يكن بريئًا بالنسبة إليها. الهدايا التي يحملانها له سواء من استراليا أو في الأعياد، تدفعه لمجالستهما والتباهي بعلاماته أمامهما. بالمقابل يدير خده لتلقّي قبلات أمها ممتعضًا. يسخر من هداياها دون مراعاة لها. ومنذ بلغ العاشرة يرفض رفضًا قاطعًا مرافقتها في زيارتها لأهلها. لا قولها إن جديه اشتاقا له ولا وعدها بأن تصحبه بعد الزيارة إلى ماكدونالد. أما محاولتها في جعله يتعالى عن أشياء تعتبرها تافهة دفعه إلى الابتعاد عنها. كما دفعه إلى تكرار آراء تؤلمها بالعمق. لا يخفّف عنها كونه لا يزال صغيرًا. تعلم أن جوهر الانسان وشخصيته يتكوّنان في عمر مبكّر. عندما يرفض ارتداء ثياب اشترتها له بحجة أنها ليست ماركات كالتي يرتديها رفاقه، تعود رغمًا عنها إلى طفولتها. أكثر الذكريات التي تتجنّب سردها حتى برفقة أخوتها هي حين كانوا وحدهم لشهور. الجيران كانوا يتجنّبونهم. باستثناء

بعض العجائز. الحي بأكمله كان يوجّه لهم نظرات كلها بغض. بعضهم كان لا يمتنع من تمنّي الموت لوالدهم يلعنه هو وخلفته ما إن يلمح واحدًا منهم. كلما زاد عدد صور الشبان فوق الجدران كان خوفهم يكبر. حين تتعالى ولولة الأمهات أو صراخ زوجة شابة كانت تحكم إغلاق الأبواب والنوافذ، وتأمر أخوتها بالصمت ليبدو أنّ لا أحد في البيت. لا يتحرّكون من مكانهم إلّا بعد ساعات حين تخرج الجنازة وتسكت الأعيرة النارية. قصص القنص كانت أكثر ما يرعبها. ماذا لو أصيبت أمها وهي عائدة من المستشفى، من سيرعاهم؟ امتلأ ليلها بكوابيس ترى فيها أمها ميتة. النقود التي أعطتها إياها أمها حين تفقّدتهم آخر مرّة، كانت تقلّ وكذلك أرغفة الخبز التي حملتها معها مخبّأة مخفية عن أعين شبان الحواجز.

ماذا تفعل إن انتهت. كيف تطعم أخوتها. قبل إصابة والدها لم تكن فعلًا تجيد إعداد الطعام، لكنها عندما تُركت معهم حاولت اعتمادًا على تقديرها أن تطبخ المجدرة ولا يهمّ إن تحوّلت معها إلى ما يشبه الحساء. أو أن تخترع أكلة، حين يحول القصف دون خروجها إلى بقالة الحي. المشكلة الاكبر كانت تأمين الخبز والماء. لا تدري كيف صمدوا وحدهم، رغم الجوع والخوف. لولا انتهاء تلك الحرب لبقي والدها بعيدًا غير قادر على العودة إلى البيت. لكثرة ما تؤلمها طبيعة جوزيف، تشكو رغمًا عنها هواجسها بشأنه إلى مارون. وتعجب من كونه لا يرى فيها إلّا واقعية وفهمًا للحياة، قبل أن يضيف «أليس ذلك أفضل من أن يكون غارقًا في مثاليات تافهة؟».

كلما كبر يومًا زاد بعدًا عنها، انسجامه مع والده، كان يشعرها بغيرة تحاول أن تخفيها. قبل أن يستقبل رفيقًا في البيت، لا ينسى أن يطلب منها، إبعاد وليم. لا يحبّ أن ينحشر بينه وبين رفيقه، كما يسألها إن كانت ستبقى في بيجامة الرياضة؟ وحين تردّ عليه بغضب إنها حرّة في ارتداء ما تشاء في بيتها، يردّ إن أمهات أصدقائه لسن مثلها أبدًا. لا تذكر عدد

المرّات التي أبكتها فيها كلماته. يتدخّل أيضًا بالطعام الذي ستقدّمه، وكثيرًا ما تختلف معه وينتهي الأمر برضوخها وطلب بيتزا أو أي شيء آخر من المطعم له ولرفيقه. يقول إن البيتزا التي تعدّها في البيت لا تشبه البيتزا، كأنها سندويش من الجبنة والبندورة، ولحم الهمبرغر كأنه من الكوسى لا اللحم وبلا ملح، والبطاطا المقلية كأنها مسلوقة.

رغم كرهها لمفهوم العقاب تلجأ عندما تفشل بمحاورته إلى حرمانه من المصروف أو مصادرة هاتفه، أو منعه من ألعابه الألكترونية. ويدهشها في كل مرة بصلابته وعناده. لا يتوسّل إليها كما يفعل الأولاد عامة. ويستطيع أن يظهر لامبالاة، ولا يحاول أن يغيب عن ناظريها أبدًا. يرفع صوت التلفزيون بموسيقى صاخبة، يحتلّ غرفة الجلوس ويصعب حينها أن تجد ركنًا ترتاح فيه. وهكذا تحسّ أنها لم تفعل سوى معاقبة نفسها. منذ صغره استطاع أن يحزر كيف يحصل على مراده، حين ترفض تنفيذ رغبة له، يجيبها بتحدّيه إن والده وافق فهل هو لا يفهم؟ وجدت نفسها هي الأخرى يقودها غضبها إلى قول وفعل أشياء منافية لمفاهيمها في التربية. كأن تقارنه بوليم، أو تنعته بقلة الأدب وبالغرور. كثيرًا ما بكت وحدها كلما استرجعت فوران أعصابها. ولا تستطيع أن تنسى عندما صفعته بقوة ودفعته واستمرّت اليوم بطوله ترتجف. تلك الحادثة محفورة بوجدانها، وتعلم أنها ستندم عليها العمر بطوله. كل كتب التربية التي قرأتها لم تنفعها. وحين استشارت زوج ندى، قدّم لها نصائح تعرفها. أجابته أن ليس مهمًا أن تعرف هذه المبادئ المهم كيف تنجح بتطبيقها؟ للتخفيف عنها تكلّم عن ابنتيه وكيف أن تربيتهما كانت مختلفة. ما نفع مع لينا فشل مع صونيا. «الأولاد لا يأتون إلى العالم مع كتيّب فيه ارشادات»، قال.

لا يدعها جوزيف تنسى أخطاءها معه، يستطيع أن يسترجعها للتلاعب بعواطفها، ودفعها لقبول طلباته التي بدأت تزداد سنة بعد سنة. كان يكسر كل القواعد فلم يعد الخروج أيام المدرسة ممنوعًا، ولا السهر إلى ما بعد

التاسعة. ولا الكلام مع رفاقه ساعات، ولا موافقتها على الأصدقاء الذين يعاشرهم ضرورية. مارون بدوره يضيق بشكواها ولا يردّ إلّا بعبارة «دعيه يكبر، صار شابًا كفّي عنه»، أو يستغرب أن تكون بهذه المحدودية وهي المعلمة منذ عشرات السنين.

تحقد على مارون في أعماقها وتحسّ أنه سعيد بإقصائها بعيدًا عن ابنها البكر. تراهما جالسَين يتفرّجان معًا على هاتف جوزيف ضاحكَين من الفيديوهات الطريفة وغرائب على اليوتيوب. تسألهما رغبة في أن يشركاها في إلفتهما عن سبب ضحكهما. يسكتان كأنها أفسدت لحظات مميّزة بينهما. يردّان «لا شيء» وما إن تبتعد حتى يعاودا ما كانا عليه من قرب وتواطؤ.

كان وليم الملجأ الذي تهرع إليه بعد كل خيبة. تضمّه فيصير صغيرًا ويتلألأ البريق في عينيه الذهبيتين. كثيرًا ما كانت تخرج برفقته بعد انتهائه من دروسه، تمسك يده، ويسيران في الشارع، رأسه مرفوع نحوها يحكي بنبرته المعسولة عن اعجاب معلمة الرسم بلوحته، أو يخبرها عن عدد الأهداف التي سجلها وهو يلعب الفوتبول خلال الفرص، وأحيانًا يسألها دون مقدمات: «ماما أنت زعلانة من بابا؟». يفطر قلبها سؤاله وتسارع إلى طمأنته وتخبره كم هما يحبّانه هو وجوزيف. تطمين لا يعيد الفرحة إلى عينيه اللتين تظلمان فجأة. وتحسّ حينها بحركاته التي تضطرب ولا يعود قادرًا على السير قربها، يتحجّج بدخول الحمام أو بالنعاس أو الجوع أو الوجع ليعود إلى البيت.

هناك أيام يرهقها فيها. حين يعجز حتى عن الجلوس على كرسي لكتابة فروضه. تجلسه، يهدأ لحظات ثم يقف من جديد متململًا. تقول إن هناك أخطاء في فرضه، عليه أن يكتشفها بنفسه. يبكي مردّدًا أنه تعِب. تحكي له قصة ليرتاح ويعود لفروضه. وبدلًا من الإنتهاء بساعة، يطول جلوسهما إلى ما قبل التاسعة بقليل، موعد نومه. في قرارتها تشعر بالذنب

لأن وليم يواجه كل هذه الصعوبات. لا بدّ أنّه ورث ذلك من عائلتها. لم تكتشف مشكلته إلّا عندما بدأ يتعلّم القراءة، لم تُعر في طفولته أي اهتمام للصعوبة التي كان يواجهها في حفظ الجهات، كانت لا تضجر من إعادة تعليمه. حركته التي لا تهدأ وتأخّره حتى في الكلام لم ينذراها بوجود مشكلة، وحين واجه صعوبة في قراءة الحروف، فكّرت أن ليس عليه أن يكون كأخيه الذي قبل دخوله المدرسة كان تعلّم كل الأبجدية الفرنسية والعدّ وكتابة اسمه كاملًا.

مارون بقي بعيدًا عن محاولة تدريس وليم، ولم يشاركها حضور الاجتماعات مع الأخصائية وحجّم المشكلة كأنها عابرة. علاماته ما كانت تعكس الجهود التي يبذلها والساعات التي يقضيها خلف طاولة الدرس. كم آلمها أن ترى يومًا بعد آخر هذا النعاس المترسبّ في جفنيه واغفاءه أحيانًا فوق دفاتره. حرمان دائم أيام المدرسة من وقت للعب أو الراحة. حتى حين تدعوه للتوقّف واللعب معها، تكون اللعبة حزازير تتعلّق بتهجئة كلمات بشكل صحيح، أو معلومات علمية وجغرافية.

كانت تحسّ أنها بإصرارها وصبرها تستطيع أن تجعله يتجاوز هذا العسر. اخترعت ألعابًا لتعليمه الجهات، كالكرة التي لا يجب تلقّفها إلّا باليد اليمنى، أو الكلل التي يجب نقفها إلى جهة الشرق مثلًا. لكنّها في اليوم التالي كانت تكتشف أنه عاد إلى ارتباكه. وحين تسأله أن يدلّها إلى شمال أو جنوب خريطة البلد الذي يتعلّم عنه يرتبك ويرتسم الفزع على وجهه. كأنّه تاه في مكان مجهول. أن تقرأ أن العديد من العباقرة عانى من بعض هذه الإعاقات لا يخفّف عنها، ولا يهوّن عليها. وحين لم تجد من يشاركها هواجسها بخصوص وليم غاصت في عالم من المخاوف وبدل أن تعتاد كبرت المشكلة في رأسها وصارت تؤرقها وتنغّص عليها. رفضت بشكل قاطع أن تعطيه دواء للحدّ من حركته. وكان ذلك سببًا لشجارات يومية مع مارون لم تهدأ إلّا بعد أن يئس من إقناعها. رفض

أن يقرأ مقالات عن تأثير مثل هذا الدواء بحجة أنها ليست أوسع معرفة من الطبيب. قالت إنها لا تريد أن يحوّله الدواء إلى طفل متلاشي القوى وبطيء الاستجابة. كما إنها لا تجد أي مبالغة في حركته، إن كان معلموه فاشلين فليس عليه أن يدفع الثمن بتناول دواء يؤثّر على نفسيته وصحته. وكان ردّ مارون قاسيًا دائمًا كاستغرابه أن يصدر هكذا كلام عن معلمة، أو يسألها ما الفرق بينها وبين الأهالي الجاهلين الذين يلومون المعلمين على أخطاء لا علاقة لهم بها.

حين أوصلت جوزيف إلى النادي، ترجّل من السيارة وأسرع باتجاه رفاقه دون أن يردّ على تنبهيها له بشرب ماء كاف. تأمّلت مشيته الرياضية وعجبت كيف طالت قامته هكذا في صيف واحد. صار يحلو له أن يقف قربها ليريها أنه تجاوزها بكثير. وليم كان مستغرقًا بتصفّح كتاب مصوّر اشترته له هدية بمناسبة بدء العام الدراسي. تحاول أن تجعل من أشياء يكرهها مناسبات سعيدة. وتقرنها بهدايا أو احتفالات. لا تدري إن كانت تنجح. وحين تعلم أن ساعات أطول من المعتاد بانتظاره، تبدأ بتعداد الأمور التي سيقومان بها بعد الانتهاء. ألعاب الفيديو التعليمية التي نصحتها بها الأخصائية، لم تخدعه، زعل وقال إنها دروس، لا يريدها ليست ألعابًا.

كانت عالقة في زاروب فرعي منذ أكثر من عشرين دقيقة. الزحمة اعتادت عليها لكن ما لا يمكن أن تتحمّله هو الضجيج الهائل، هدير جبّالات الباطون والشاحنات والورش المنتشرة كالفطر السام في كل شارع. كأنّها تذرع رأسها وتطلق أبواقها المفزعة فيه، يرتجّ دماغها وتتشوّش رؤيتها. أولاد صغار يدقّون على زجاج شبّاكها لبيع العلكة أو قناني الماء، تنظر إلى أقدامهم الحافية المسودّة، وإلى وجوه حرقتها الشمس. تعجب كيف اعتادت مشهدًا بائسًا كهذا.

يزيد من عصبيتها خلو يومها من أي شيء مفرح. حتى في بداية العام

لدى وليم دروس. التصحيح بدوره زاد، والكتاب الذي تقرأه مخيّب للآمال. تعجب من المديح الذي قرأته بشأنه. لا بارقة فرح في الأفق. حين وصلت أخيرًا اضطرّت لأن تركن سيارتها بعيدًا، ورغم ألم رقبتها حملت حقيبة وليم، وقد هالها ثقلها.

لا تذكر أنها تركت مثل هذه الفوضى في البيت. كانت تحبّ لو أن مارون يشاركها بعض أعمال البيت كما يفعل زوج ندى، لكن الأوان قد فات، وهي تخجل من مطالبته بذلك. تنتظر لو يبادر بنفسه. كأنّ هناك قواعد خفية، يرسو عليها الزواج منذ البداية. اعتاد أن يراها تقوم بكل شيء، ولا توكل إليه إلّا شراء بعض الأغراض أو إيصال الأولاد. حتى ثيابه تجمعها وتوضّبها. وخلال العام الدراسي، تتعبها رؤية الثياب المرمية لا فقط في غرف النوم بل أيضًا في غرفة الجلوس. وتجد الأشياء في أماكن غريبة، كالريموت كونترول فوق رف المغسلة وفنجان القهوة فوق أرضية الشرفة، وكتب ودفاتر المدرسة تحت السجادة أو طراحة الكنبة. ولا تدري كم أضاعت من وقتها وكم توتّرت لتجد دفترًا لوليم أو مفاتيح السيارة أو نظارتها أو حافظة نقود أحدهم.

تسأل وليم إن كان جائعًا، لا يردّ بل تبقى عيناه مسمَّرَتَين بشاشة التلفزيون. تبدّل ثيابها وتهرع إلى الحمام وتبدأ بجمع مناشف الاستحمام المكوّمة منذ الصباح في ركن، وفي كومة أخرى ثياب داخلية وجوارب. يملؤها الغضب وتتساءل ما الذي يمنعه من وضعها في سلّ الغسيل. هل وقته أثمن من وقتها؟ تطفر الدموع من عينيها وهي تفرك كرسي المرحاض، كأنّها وحدها، وكل ما تفعله لقهر هذا الشعور يزيد من غربتها. عندما مسحت أرض الحمام، شعرت بنقمة جعلتها تغلي، قالت إنها ستترك الأسرّة منبوشة وثياب النوم والمشايات وكل شيء على حاله، وستدع المجلى يغصّ بالأواني المتسخة. لكن لم تمض لحظات على غضبها حتى نهضت من جديد تعمل بسرعة.

جلست ترتاح قرب وليم وراحت تكتب لميرا تسألها إن كان لديها مانع أن تلتقيا في ستارباكس مساء. أرادت فسحة تبعدها عن هذا الركض المحموم. أرادت أن تكون مهملة لمرة فلا يشغلها لا عشاء ولا تصحيح ولا تحضير دروس. جاءها ردّها سريعًا كتبت أنها ستتأخر في المكتب، ثم سألتها «ما رأيك السبت صباحًا؟ اتفقت أن أذهب برفقة ليلى للسير». وافقت واقترحت أن يلتقين أبكر، عند السادسة قبل أن يقوى الحر.

نهضت عن الكنبة بثقل، وقامت لتحضّر غداء سريعًا. مع أنهم جميعهم يحبّون المعكرونة مع كريات اللحم، لم يأكل منها إلّا وليم، جوزيف ادعى أنه غير جائع ومعنى ذلك أنه أكل مع رفاقه ومارون عاد عند الثامنة وأخبرها أنه أكل سندويشات شورما. أما هي فتتجنّب النشويات، تخشى على وزنها أن يزداد، اكتفت بأكل البيض المسلوق. لكن ذلك لم يزعجها، فكّرت أنها لن تكون في الغد مضطرة للطبخ.

فتحت عينيها. كان القلم الأحمر بيدها قد رسم خطًا أعوج فوق الورقة أثناء اغفاءتها، البيت ساكن باستثناء صوت المكيّفات. عدّت الأوراق المصحّحة، خمس فقط.. قرأت المقطع عدّة مرّات، فقدت همّتها بعد أن امتلأت بالأحمر والملاحظات في الهامش. لا تدري لماذا تتعب نفسها ولا أحد منهم يقرأ التصحيحات. والملاحظات لا قيمة لها عندهم إلّا إذا تضمنّت مدحًا. يلقون نظرة على العلامة وبعدها يأتون مستغربين سوء نتائجهم، يقولون إنهم كتبوا لها ما أرادته، تصحّح لهم أنهم لا يكتبون لها. ثم تدعوهم لقراءة الملاحظات لأن فيها ردًا على استفساراتهم. ولا تذكر كم من استراحات أضاعتها لتشرح مجدّدًا أمورًا ملأت بها هوامش امتحاناتهم. وكم سمعت اتهامات ظالمة بحقّها كالقول إنها تتقصّد ايذاء تلميذ محدّد وإلا كيف تحوّل من تلميذ ناجح إلى راسب في صفها؟

الساعة قاربت منتصف الليل. تتردّد في الايواء إلى فراشها. تعلم أن هذا النعاس سيطير ما إن تتمدّد في السرير. تظنّ أنّ أرقها صيفًا سببه النوم

في غرفة مغلقة الأبواب والنوافذ. تحسّ أنها تختنق فيها وأن لا هواء يدخل إلى صدرها. تقوم متسلّلة على رؤوس أصابعها. تستلقي على كنبة في غرفة الجلوس، تشغّل التلفزيون ومروحة السقف، تختار قناة تبثّ الموسيقى والأغاني وتحاول النوم. شتاء لا تنام إلّا ساعات قليلة وبعدها تلوم الحانات والمقاهي التي تملأ حيّهم بالضجيج. عندما زاد إلحاحها على بيع البيت لشراء آخر، كان يسألها مارون لماذا ينامون جميعهم دون أي أرق؟ قبل أن يضيف إنها على حدّ علمه معتادة على الضجيج، الحي الذي نشأت فيه ليس جنة عدن. هذه التلميحات الساخرة ما كانت تؤلمها لأنها تخجل من نشأتها بل لأنها عكس كل ما ادّعاه في الماضي. كان يقول إنه يفخر بها، أو يبدي عجبه من قدرتها على الكفاح من أجل أن تتعلّم، وأن تخرج من قدَرٍ محتوم. أو يقول إنه حين يرى أخوتها يعلم الطريق الشائك الذي سلكته بقوّة، وأن أولادهم سيفخرون مستقبلًا بأمهم. صحيح أنها لم تكن ترى الأمور على هذا النحو. إن حالفها الحظ في علمها فلأنّ جملة صدف جعلتها تتفوّق، أولّها أنها لم ترث ما ابتلي به شقيقها، ثانيها أنّها أحبّت أن يفخر بها والدها وألا يعيّرها بالغباء كما يفعل مع أخيها. لم يفشل في تعليمه فقط بل استمرّ يبلل فراشه حتى الثانية عشرة من عمره. لا تزال حتى الآن ترى وجهه الشاحب وخوفه من مغادرة فراشه. وكانت أمها تهمس له ألّا يهتمّ لكن دموعه كانت تجرح صباحاتها. تعلم ما ينتظره إن رأى والدها ملاءة السرير. كأنها جرم يتآمرون على اخفائه عن أعين والدها، لكنه كان يترصّد هذه اللحظة، ليجلده بعدها بحزام أو ليهدّده بنشر الملاءة على الحبل ليرى الجميع عاره.

الصدفة وضعت الكتب في دربها، في الصفوف الابتدائية حين كانت تُهدى قصصًا لحلولها في المرتبة الأولى كانت تعيد صيفًا قراءتها حتى تبلى صفحاتها وتبهت ألوان رسومها. الصدفة أيضًا جعلتها تُعلّم في مدرسة جيدة، حتى سفرها إلى فرنسا. مجموعة صدف، هكذا كانت ترى

حياتها، تعلم أن وليم لم يختَرْ هو الآخر هذا العسر ولا المعاناة الطويلة التي عليه أن يتحمّلها طوال سنين دراسته.

كثيرًا ما أشعرها ذلك بالذنب. كم بكيت في البداية، كانت ذكريات عن أخيها مطمورة في طبقات خفيّة من نفسها، تعود واضحة إلى وعيها وتعذّبها. تحوّلت حياتها إلى كابوس وكان مارون يحاول أن يكبح جنون تخيّلاتها فيقول إن وليم لم يصَب بمرض قاتل، عسر يعاني منه كثيرون. كما ينبّهها إلى انصرافها الكلي إلى وليم متناسية أن هناك ابنًا آخر يحتاج إلى اهتمامها.

الصدفة وضعت في دربها حبيبًا كانت مستعدّة لتلحق به إلى أقاصي الأرض. لو لم يكن مهتمًا مثلها بتعليمه لنسيت الدرس والطموح. لم تتعرّف عليه لأنه يسكن حيّهم. لمحته في الجامعة وكان في صف أعلى. ثم رأته في الباص الذي تركبه وبعدها لاحظته مارًا في الحي. أما هو فلا يذكرها إلّا بعد حضورهما لصف مشترك. كان عليها أن تقدّم عرضًا نقديًا لكتاب. ليست إشادة المحاضر هي ما لفته بل خجلها واحمرار وجهها وهي تردّ بصوت مخنوق على استيضاحات الأستاذ وخوفها من النظر إلى التلاميذ في القاعة. بعد انتهاء الدرس سألها أن تعيره الكتاب فأخبرته إنها استعارته بالأصل من الأستاذ.

هو نسي لاحقًا حديثهما أما هي فبقيت تذكر كل كلمة دارت بينهما في تلك الدقائق القليلة. كان أكثر منها انكبابًا على التحصيل، أرادت أن تنال الليسانس ولم تفكّر بأبعد من ذلك، لكن كلامه الدائم عن الدراسات العليا، زرع في عقلها هذه الفكرة. كانا صديقين لأكثر من ثمانية شهور يترافقان إلى الجامعة وينتظران بعضهما إن تأخّرت محاضرات أحدهما. كان الحبّ الذي تشعر به مخفيًا في أعماقها تداري ألّا تفضحه اللهفة في عينيها ورعشة يدها إن لمسها بغير قصد. كان حين يحيط كتفيها بذراعه أثناء سيرهما يعذّبها وتصبح عاجزة عن ايجاد الكلمات. تتلعثم وتنسى

ما كانت بصدد قوله. تحمرّ ما إن تقترب فتاة منه لممازحته أو لتسأله أن يعيرها المحاضرات. مقارنتها نفسها بالأخريات لم تكن لصالحها. تتأمّل الفتيات حولها، وتجد كم هي مختلفة. ليس هناك أي شيء لافت فيها، وهي لم تفعل شيئًا لتحسين مظهرها. تلبس ما تخيطه أمها حتى لو كان من موضة قديمة. لذا ارتبكت عندما صارحها بحبّه. ظلّت تتهيّأ خلال السنتين التاليتين، أن ينفصل عنها، صوّرت لها مخيلتها سيناريوات فراق كانت تدمي قلبها وتبكيها. أخفت غيرتها، وكانت تطرد الأفكار السوداء بعيدًا وتتخيّل أيامًا قادمة سعيدة.

عندما تخرّج قدّم طلبات للدراسات العليا في كندا. قال لديه ابن عم سيساعده لإيجاد عمل. وكان كلما رأى دموعها، خفّف عنها مؤكّدًا لها أنها سنة واحدة سوف تمرّ سريعًا وسوف يقدّم بنفسه طلبات انتسابها إلى الجامعات. كان يقول إنّ كل ما عليها أن تفعله خلال غيابه هو أن تتفرّغ لتدرس أكثر، هكذا لن تجد صعوبة في أن تُقبل في أي جامعة تريد. كان لديه حلّ لكل شيء، المال لن يكون عائقًا إذ سيتدبر عملًا ما. «المسكن والمأكل مؤمن فما الذي تخشينه؟» كان يسألها. بعد سفره فقدت كل رغبة في أن تنهض من فراشها. وكان عزاؤها الوحيد صفحات تكتبها لتحكي معه.

مات فيها ما يحثّها على النهوض والسعي السابق. عادت إلى الجامعة بخشية، كل ما فيها أرجع إليها صورته وكلماته وضحكاته وتعليقاته الطريفة. تشمّ رائحته في كل مكان. كانت تعيش على أمل رسالة تصلها منه. لكنّ شهرًا مرّ ثم آخر، وكانت تجد الأعذار دون أن تكفّ عن الجلوس لمحادثته ليلًا على الورق.

حين أخبرتها ميرا أنهما عاشتا التجربة نفسها، وافقتها الرأي وهي تنكر في أعماقها. ليس بإمكانها أن تتخيّل أحدًا تعذّب بمقدارها، ولم تبدُ لها ميرا قد أغرمت حقًا بداني.

كانت المبالغة بالدرس والقراءة هي خلاصها الوحيد. صحيح أنها كانت دائمًا متفوقّة لكنها في سنة الليسانس حصّلت معدلًا عاليًا فاق توقّعاتها. حتى بعد أن بدأت بالتعليم، وتوقّفت عن كتابة الرسائل لم تفقد الأمل، وكانت تتقصّد المرور أمام البناية حيث يسكن أهله. تتريّث لحظات وترفع عينيها ناحية الطابق الثاني. لم تزره أبدًا في بيته، هو أيضًا كان يقف في مدخل بيتهم الأرضي، ينتظرها ليترافقا إلى الجامعة. لم يقم بزيارتهم أبدًا، لا لأنّه لم يرغب بل لأنّ سارة كانت تخشى والدها واستجواباته اللاحقة. وحدها أمها كانت تكلّمه حين تصادفه واقفًا في المدخل وتحاذر كي لا يُسمع صوتها. طوال سنين لم يخطر لسارة أن أمّها حدست بما جرى، لم تلمّح لا من قريب ولا من بعيد. كثيرًا ما خطر لها أن تتشجّع وتسأل أهله عن أخباره. كانت تتخيّل حججًا تقولها لهم، كالسؤال عن الدراسة في كندا أو طلب نصحه لها، أو ببساطة تقول إنهما كانا صديقين وأرادت معرفة أخباره. أو تطلب رقم هاتفه الخليوي، لكنّها خافت من أن تغصّ بالكلمات، وأن يخونها الحزن المكبوت في قلبها. مرّة واحدة تجرّأت وسألت صديقًا له في الجامعة، أجابها مستغربًا إن الأخبار عندها أليست الأقرب إليه؟

في فرنسا كانت ترى أشخاصًا يشبهونه سواء في تصفيفة الشعر أو المشية أو الضحكة، وكم كانت تضطرب متيقّنة أنها أخيرًا ستراه وجهًا لوجه وحيث لم يخطر ببالها. في رأسها صورة له لم تكبر، كانت تبهت على مرّ السنين ولكنها تستطيع إلى الآن أن ترى رفة رموشه وحاجبيه المتقاربين وتلك النظرة العميقة في عينيه البنيّتين.

عندما أحبّت مارون كان شعورها مختلفًا، أو أقنعت نفسها بذلك واصفة تجربتها معه بأنها أكثر عمقًا وتعقّلًا. الآن لا تدري إن كان ما أحسّت به هو مجرّد إطراء لأنها وجدت من يحبّها ويريدها إلى هذا الحد. ليس مهمًا أن تضع اسمًا على تلك المشاعر، بما أنها تلاشت ولم تترك

في قلبها شيئًا من ذلك الانجذاب وتلك العاطفة. في كل مرّة تنصاع فيها للنوم معه، تشعر بغربة عن نفسها لا تزول كأنّ شيئًا دنّس روحها. كانت لا تعلم أتلوم نفسها أم مارون. ما الذي تغيّر بينهما؟ هل كان كذلك من البداية أم أنه كشف لاحقًا عن وجهه الحقيقي. وجه لا يشبهها بشيء. من أخطأ فيهما؟ ربّما لا أحد، تفكّر.

تقلّبت في السرير وكان صوت أنفاسها وتململها يوقظ مارون، فيقول لها وهو غافٍ: «ما بك؟ أريد أن أنام». كثيرًا ما كان يأرق بسببها فيقضي نهاره التالي مرهَقًا مشتتًا. ولا يكفّ عن تذكيرها بالساعات الطويلة التي عليه العمل فيها وهو في حالة إعياء شديد. تذكر عندما كان أرقها يزداد خاصّة وهي حامل، كان يخفّف عنها ويضع يدًا حانية على ظهرها، يدعوها لتضبط أنفاسها مع أنفاسه، وكان ذلك يجعلها تغفو مجددًا. وحين تعجز عن الإغفاء وتصرّ على مغادرة السرير كان يغادره معها، يجلس قربها على الكنبة وكثيرًا ما كانا ينامان متجاورَين هكذا حتى الصباح.

قليلة هي الليالي التي تنام فيها في السرير. تتنقّل بين الغرف، تقف إلى النوافذ أو تجلس أيام الصحو على الشرفة الخلفية.

تتسحّب على مهل، وتعود إلى غرفة الجلوس. ترتّب الأوراق وتعيدها إلى الحقيبة، تضيء شاشة الكمبيوتر وتظهر في خلفيتها صورة وليم وجوزيف، الصورة التقطتها هي لهما قبل ثلاث سنوات. تفتح موقعًا إخباريًا لكنها تغلقه بسرعة، وتبحث عن إصدارات جديدة للكتب. تتذكّر شكوى والديها من الأرق في كل مرة تزورهما. تستطيع أن تتخيّل أمها جالسة إلى شباك المطبخ، تنظر إلى البورة الصغيرة الممتدة أمام مدخل البيت الخلفي. في البورة شجرة تين تذكرها سارة منذ طفولتها الأولى، لم يقتلها لا جفاف ولا حروب ولا أكياس القمامة التي ترشق من بناية مجاورة. حولها أشواك ونباتات برية علقت عليها أكياس من النايلون. كانت البورة مصدر فزع دائم بالنسبة إليها وأخوتها منذ لمحوا فيها حية رقطاء.

وكان يستحيل أن يقبل أيّ منهم أن يفتح الباب الخلفي ليأتي بشيء عن المنشر، حتى لو أنّبتهم أو شكتهم أمهم لوالدهم. يفضّلون أقسى عقاب على تخطّي ذلك الباب. لا تذكر إن كانوا كلهم هناك حين رأوها. لكن هكذا صارت روايتهم مع مرور الوقت، كما تبدّل حجم الأفعى فاستطال حتى باتت من خلال حكاياهم عنها أشبه بتنين أسطوري.

بيت أهلها من الأشياء القليلة التي بقيت على حالها في ذاكرتها. أثاثه، بقعة العفن عند جدار المطبخ والبلاط المتشقق في الحمام، والمغسلة التي اعتم بورسلينها. كلها كما في ذاكرتها الأولى. حمّى الهدم وبناء الأبراج في الحي لم تصل بعد إلى مسكن أهلها. لا تعلم كيف عتقت الأبراج الجديدة بسرعة وصارت تبدو مهملة هكذا، الخزّ كسا جدرانها الخارجية كمرض جلدي لا شفاء منه. ستائر الشرفات سوّدها الوقت ومزّق أطرافها، حتى الثياب المنشورة على الحبال تبدو بالية رثة. كأنّ كل شيء في الحي محكوم مسبقًا بالمصير نفسه. كذلك هم السكان. معظم الشبان من جيرانهم لم يكملوا تعليمهم، تزوّجوا وسكنوا مع أهلهم في تلك البيوت الضيقة. يكرّرون الشتائم نفسها بحق أولادهم ويتشاجرون مع الجيران على أحقّية ركن السيارة أو شطف السلالم. كأنّهم عالقون في زمن واحد، وتحسّ كلما اقتربت سيارتها من بيت أهلها أنها تعود إلى حياة سابقة.

حين تزداد غيبات مارون عن البيت أو حين لا يخبرها عن الأمكنة التي يقصدها، لا يخطر لها أبدًا أن يكون على موعد مع امرأة ما. وحين ترى عينيه تطيلان النظر إلى امرأة مجهولة في الطريق أو في السهرات التي يحضرانها معًا تشيح بنظرها بعيدًا متظاهرة بعدم ملاحظة شيء. ولمّا زاد اهتمامه بملبسه وبوزنه الزائد فكّرت أنّه العمر.

لا تسترق السمع لأحاديثه الهاتفية ولا تسأل لمن يكتب حتى لو أمضى السهرة بكاملها منصرفًا إلى الهاتف. كان ذلك يحرّرها في

أعماقها. تستطيع هكذا أن تكون نفسها دون جهود زائفة، ودون تصنّع. بإمكانها أن تلوم نفسها أقلّ وأن يكون لديها فسحة أكبر لا ينازعها أحد عليها. ولن يقول لها إنه سئم من بقائه وحيدًا في حين لا تفعل هي سوى أن تقرأ أو تصحّح. ما عادت تكلّف نفسها عناء التبرير، لا أن تؤكّد له اختلاف تدريس الرياضيات عن الأدب ولا أنه منذ تعرّف عليها كانت تقرأ الكتب. تردّ عليه في سرّها منذ باتت مجادلاتهم تسبب الكوابيس لوليم. لكنّ سكوتها وتجنّبها أي حدة في النقاش في حضوره، لم يطمئنه. تحدس ذلك بسبب كلامه الدائم عن رفيقه رمزي الذي تطلّق والداه. كأن يسألها إن كان رمزي ينام كل يوم في بيت؟ مرة مع أمه وأخرى مع والده؟ وفي عيد ميلاد رمزي بدل أن يخبرها عن الحفلة راح يسألها عن سبب غياب والده عن الاحتفال، هل نسي عيد ابنه أم أنه صار يكرهه لأنه يعيش مع والدته. كما يسأل عمن يرافقه إلى الطبيب ومن يقابل أساتذته وهل أقارب والده ما عادوا يعتبرونه قريبهم؟ تتظاهر أنها لا تعلم سبب أسئلته وتختار له أجوبة تريحه من قلقه الداخلي. من أجله صارت تنتبه للطريقة التي تأتي فيها على ذكر مارون، ووجدت نفسها تستعيد قصصًا تعرفها من طفولة زوجها وكان يضحك بسعادة لا لطرافة مشاغبات والده بل لطريقتها في سردها. لكنها لا تستطيع أن تغشّه طويلًا، كثيرة هي الأمور التي تبدّلت في حياتهم. ما عادت طاولة الطعام تجمعهم إلّا في مناسبات متباعدة. وما عادوا يخرجون في زيارات عائلية لا للأصحاب ولا للأهل. وما عاد يرى أمورًا اعتادها منذ طفولته، لا يدها تلامس كتف مارون صباحًا ولا شفتاها تقبّلان قمّة رأسه ولا سؤال منها عن ليلته. صمت صباحي، لا يقطعه سوى صوت رشفات سريعة لفناجين القهوة.

تختار من المكتبة رواية قديمة. أرادت أن تقرأ شيئًا تحبّه.

كان يمشي في مساء خريفي في شوارع أبكاها ذكر أسمائها. أسماء تعرفها وأحياء تذكر بردها وخشخشة أوراق شجرها وأبنيتها المبللة.

وتشمّ رائحة الرطوبة فيها تختلط برائحة الخبز، ورائحة السكر. لم تكن في فرنسا سعيدة، ولم تعِش ظروفًا سهلة. صحيح أنها نشأت في فقر، لكن قلة المال هناك مختلفة. لا يجد الواحد من يسنده، وكانت رؤية المشردين تبكيها وترى بأي بساطة يمكن أن يصير الشارع هو المأوى الوحيد. لكنها الآن تحنّ إلى تلك الفتاة، إلى عمر كانت تتخيّل فيه أن حياتها تنتظرها رغم كل ما قاسته. تحنّ إلى عالم مشرع على دروب لم تسلكها. سألتها ميرا لماذا تبكي بعد أن أرتها صورة قديمة. هل الصورة محزنة سألت؟ لم تجب. تأمّلت نفسها واقفة قرب رشا، كم بدت صغيرة. تذكر جيدًا أنهم كانوا في مونبارناس يرافقون أحمد إلى محل لبيع أدوات كهربائية. أراد أن يشتري مدفأة. الفتاة التي في الصورة ما كانت تعلم بعد أن الدروب لن تفضي بها إلى حيث أرادت. ماذا أرادت؟ ما عادت تعرف. لكنها لم تتخيّل أن تكون حياتها على هذا النحو.

رائحة رطوبة تفوح من صفحات الكتاب الصفراء. في داخلها تجد فاتورة قديمة لمشتريات. الحبر امّحى ولم يبق إلّا أسم السوبرماركت في الأعلى. لماذا تحزنها فاتورة وأسماء أمكنة هكذا؟

نهضت وسكبت كأسًا من الويسكي خلطته بماء. يحلو لها أن تشرب كأسًا واحدة أو اثنتين حين تكون وحيدة وعاجزة عن النوم. داومت بعدها على اخراج الأوراق من حقيبتها ثم إرجاعها. عجزها عن التركيز يزداد. تغضب من نفسها كلما فكّرت أنها تهدر وقتًا. في السنوات الأخيرة صوّر لها خيالها أعمالًا تقوم بها بدلًا من التعليم، لكنها أفكار خيالية لا تنطبق على الواقع. أفكارها عن مهنة أخرى يشبه حلمها ببيت بعيد. كلاهما غير موجودين في الواقع.

كانت الساعة قد قاربت الثالثة فجرًا عندما تمدّدت على الكنبة في محاولة لإسكات رأسها والاستغراق في النوم.

وحين تعالى صوت المنبّه في غرفة النوم، رأت نور الشمس قد غمر

الغرفة حولها، سمعت زحزحة الأثاث في الشقة فوقهم. نهضت بألم قوي في رأسها. فمها جافّ. الويسكي خلّف طعمًا مرًا. حين تذكّرت أن لديها خمس حصص، تثاقلت مشيتها. ولم تجد القوة للدخول إليهم. أيقظتهم منادية أسماءهم. وحين سألها مارون ما بها تصرخ هكذا في الصباح، قالت إن رأسها يؤلمها. ردّ «ما الجديد؟ كل يوم هناك شيء يؤلمك».

في المدرسة وجدت تبليغًا إداريًا بموعد دورة تدريبية. كانت نسيت أمرها مع أن لديها علمًا بها منذ شهور. اغرورقت عيناها بالدموع. أخفت رأسها بدرفة خزانتها ريثما تتراجع موجات غضبها. تظاهرت بترتيب أوراقها. لو أنها تكون قادرة على التغيب كغيرها. تخيّلت قيادتها على مدار أسبوع إلى مسافة أكثر من ساعة ونصف لسماع محاضرات مكرّرة تميت ضجرًا. خلال السنوات لا تذكر أنها استفادت من هذه الدورات بشيء. هذا عدا أن عليها أن تحضّر الدروس والفروض لمن سينوب عنها في صفوفها. لا أحد من زملائها سيكون معها في هذه الدورة. لن يكون هناك من تتشارك معه لا الطريق ولا الانطباعات ولا الشكوى.

طوال ساعات يومها بقيت تقلّب في رأسها طرُقًا تتهرّب فيها من الدورة. كانت تشرح دون حماس ولم تهتمّ كما جرت عادتها بإشراكهم، أو بطرح أسئلة لاستدراج فضولهم. الساعة تمطّ، التلاميذ يحرّكون أمام وجوههم مراوح صنعوها من ورق، ويتأفّفون دون مواربة كأنها مسؤولة عن الطقس وعن كل ما يصيبهم.

في الحصة الأخيرة لم يكن لديها صف. بدلًا من أن تصحّح بانتظار وليم وجوزيف، خرجت للسير في الأحياء المحيطة بالمدرسة. دخلت إلى مكتبة واشترت عدة تلوين لوليم واختارت دفترًا لها. دفتر سيبقى فارغًا أبيض أسوة بدفاتر اشترتها سابقًا.

لمحت مارون في سيارته بينما تخرج من المكتبة، كان عالقًا في الزاروب، لا تدري إن كان يحكي على الهاتف أم يغني مرافقًا الراديو.

من خلف رأت دائرة الصلع قد اتسعت في أعلى رأسه. عجبت كيف تراه كل يوم دون أن تنتبه لشيء واضح هكذا، أشّر بيده لسيارة خلفه قبل أن ينعطف باتجاه مكان لا تعرفه. لم ينتبه لوقوفها تواكب السيارة حتى تغيب عن عينيها. ولم يلتفت ناحيتها.

سمعت قرع الجرس وهي تجتاز الطريق باتجاه البوابة الكبيرة. قال جوزيف ما إن لمحها إن رفيقه أدوين دعاه، ويريد أن يراجع معه لامتحان الرياضيات، وأن أم أدوين ستعيده إلى البيت. كان يسألها بنبرة من يتهيّأ لمشاجرة. مردّدًا «كل رفاقي يخرجون مع بعضهم أيام المدرسة إلّا أنا». وحين ردّت «حسنًا»، بقي واقفًا كأنه ينظر لا إلى أمه بل إلى شخص لا يعرفه.

لم ينتبه وليم أنها لا تسلك طريق البيت. كانت تختلق حديثًا كي يرفع رأسه عن هاتفه ويسألها عن وجهتهما. لكن ما يتعلّمه في يوم لا يمكن أن يرسخ حقًا، لا تزال الجهات بالنسبة إليه عالَمًا مبهمًا. ابتكرت ألف وسيلة لتعليمه، دون جدوى. وحين رفع رأسه ونظر من شباك السيارة لم ينتبه أنهما في النزلة المؤدية إلى بيت أهلها. كانت تقاطع لعبه وتسأله أتذكر اسم المستشفى؟ وهذا الأوتيل؟ وحين لاحظت ضيقه وتبرّمه وعجزه التام، بدّلت الحديث وسألته إن كان جائعًا. توقّفت عند محل لبيع الفراريج المشوية.

وقفت عند الباب وقرعت عدة مرات قبل أن تسمع أمّها تقترب لتفتح. وحين غمرتها، أحسّت ساره بغصّة تمنعها من الكلام والردّ. كان والدها في السرير لا على الكرسي. عندما مدّ يده، تراجع وليم مستغربًا كأنه لم يتعرّف إلى جده. دفعته نحوه قائلة ألن تقبّل جدك؟ كان الجلد المترهّل يتأرجح تحت فكيه وفي رقبته كالستارة. سألته «بابا ضعفت؟» كانت أمها من ردّت وحكت عن ظهره المعقور مؤخرًا وعجزه عن الجلوس في كرسيه. عيناه غارقتان في محجَرين أشبه بحفرتين عميقتين. شرايين

جبهته ورأسه نفرت وصار يشبه تلك المجسمات التي تُستخدم في المدارس لشرح الجهاز العصبي. كوّمت أمها على الطاولة الأدوية التي وُصفت لهما أخيرًا. قالت إن أحد أدويتها يسبب لها غثيانًا. أرادت من سارة أن تقرأ لتعلم أي واحد هو. ثم أردفت «مسكينة أختك ايفون كأنها أميّة لم تفدني بشيء». فكّرت سارة بأختها التي تحمّلت طوال طفولتها وحتى هذه السن مقارنة مجحفة بحقّها.

كان والدها ما بين صحو ونوم، يفتح عينيه على اتساعهما فجأة كأن كابوسًا أفزعه للتو. كان واهنًا ولم يحاول كعادته أن يخبرها عمّا يسمعه على الراديو. روائح المرض والاهتراء كانت قوية إلى درجة أحسّت أنها تفوح منها، وعندما انحنت فوق رأس وليم لتمرّغ أنفها برائحة الشامبو المترسّبة بشعره، لم تشمّ إلّا رائحة المرض. بقيت قرب والدها، تسمع أنينًا تلقائيًا يفلت من داخله دون انتباه منه. كان رغم الحر متدثرًا بغطاء ثقيل. وحين أزاحت عنه الغطاء تصاعدت رائحة القروح مختلطة بعرق تشرّبته ملاءات السرير. دخلت الحمام خوفًا من أن تتقيّأ إن بقيت وقتًا أطول قرب والدها. كانت تبكي دون قدرة منها على التماسك، غسلت وجهها مرة ثم أخرى. سمعت أمها تناديها للأكل، متسائلة لماذا كلّفت نفسها، هي طبخت لوبياء بزيت وسألتها «تحبينها ماما أليس كذلك؟».

كان الحرّ شديدًا ولم تدر لماذا تقفل أمها الشبابيك في كل الغرف. حين فتحت ساره شباك المطبخ أخبرتها إن والدها لا يحتمل أي نسمة هواء، يحسّ بها حتى في سريره. قالت إنه يكرّر في نومه وصحوه «يا أمي بردان دفيني» خفضت أمها رأسها قبل أن تخبرها عن أوجاع والدها، عن صراخه في جلسات العلاج، وأنها لا تعلم لماذا عليه الخضوع لها، وتسأل «بجد يا ابنتي ماذا أفادته طوال هذه السنين هل شفته من الشلل؟ هل حمته من أوجاع عظامه وظهره؟». أوجاعه لا تكون أرحم عندما تقلّبه من جهة إلى أخرى. سألتها إن كانت تفعل ذلك وحدها، أجابت «ألم تريه

جلدًا وعظمًا؟ طفل صغير أكثر وزنًا منه». كانت تحكي عنه كأنه ابن لها. تشكو من أكله القليل من عناده وإطباقه لفمه عندما تودّ إعطاءه الدواء. أو احتجاجه كلما أرادت أن تغيّر له حفاضه. عندما لاحظت وجوم ساره التي لم تلمس الطعام، اعتذرت قائلة إنها أفسدت لها شهيتها بهذا الحديث، ثمّ نظرت إلى وليم وسألته إن كان يريد أن يأكل بعضًا من اللوبياء. كانت أمها تغرف بلقم خبز كبيرة اللوبياء ويسيل عصير البندورة على ذقنها دون أن تنتبه، تسمع ساره أصطكاك أسنانها شبيهًا بأزيز الطباشير فوق اللوح. كلما فقدت وزنًا ضمرت لثتها واتسع طقم أسنانها. سألتها لماذا لا تأكل من الدجاج قبل أن يبرد، قالت إن مضغه صعب وسيعلق بأسنانها. ثم أضافت إن أيفون ستأكل مساء منه.

جلستا بعدها قريبًا من سرير والدها، كانت أمها تحاول إطعامه حساء عدس مطحون. رفعت رأسه واضعة وسادة خلفه. شرق بالملعقة الأولى. فزعت ساره وسارعت لمساعدة أمها في رفع جذعه. كان السعال الذي أمسك به يوجعه كأنه يمزّق جوانبه. حتى التأوه يرهقه. حين رأت دموع سارة، همست لها ألّا تخاف هذا يحصل دائمًا معه. ثم ربّتت على ظهره قائلة «ما بك أفزعت ابنتك». التفت نحوها ثم وضع يده اليابسة فوق ساعدها لطمأنتها.

كان الحزن يعميها عن ملاحظة أي شيء جميل حولها. تعلم أن لدى وليم فروضًا وسيلزمه ساعات للانتهاء منها، لكنّها للمرة الأولى لم تكن مبالية. كل الأشياء بلا قيمة، كل هذا الركض من أجل لا شيء. عرجت إلى موقف المجمّع. كان وليم سعيدًا يشدّها من يدها ليسألها إن كان بإمكانه شراء آيس كريم. هزّت رأسها. مارون ترك رسالة صوتية يسألها أين هي فقد مضى عليه أكثر من ساعتين وحده. ثم سأل كيف لم تخبره إنّ لديها مشاريع للخروج مع الأولاد وفي يوم دراسي؟ لم تجبه. فكّرت

أن القليل من الانتظار لن يضيره. ووجدت نفسها تقول له في سرّها أن يسخّن طعامه بنفسه ليس مبتور اليدين.

في المكتبة كانت تقلّب الاصدارات الجديدة وتقرأ المكتوب على الغلاف الخلفي. لكن وليم كان يستحثها للخروج من أجل الآيس كريم، وعندما دلّته على الكتب المصوَّرة ليقلّبها. زعل وقال إنه لا يريد وإنه تعب من الوقوف. في الأخير لم تجد ما يعجبها. كما إن الزحمة أفسدت عليها التفرّج على الكتب. كان هناك الكثير من الأهالي برفقة أبنائهم، يشترون قرطاسية وكتبًا للمدرسة. حسدتهم لأنّ عامهم الدراسي لم يبدأ بعد.

اختارت طاولة بعيدة عن الأدراج، وكان وليم يسألها لماذا تأخّر الغرسون ومتى يحضر الآيس كريم. اقتربت منها فتاة منسدلة الشعر بابتسامة عريضة، التفتت ساره إلى الطاولة خلفها ظنًا منها أنها ليست المعنية بالابتسامة، لكن الفتاة بادرت إلى مصافحتها وتقبيلها مرددة «مدام ساره!». تصنّعت الفرح ولم تستطع أن تذكر لا وجه ولا اسم الفتاة لكنّها تظاهرت بمعرفتها، وراحت تسألها عن اختصاصها وحين أجابت أنها تخرجّت من قسم الاقتصاد وستسافر قريبًا إلى لندن لاكمال الدراسة، أجابتها إنها كانت دائمًا ذكية. جواب أفرح الفتاة ودفعها إلى معانقة ساره بحرارة عند وداعها.

لو علمت انها قد تلتقي بأي من تلاميذها لامتنعت عن المرور بالمجمّع. صحيح أنها تحبّ تلاميذها، لكنهم بينما يكبرون يتحوّلون إلى غرباء لا يختلفون بشيء عن مئات الوجوه حولها. في السنوات الأولى من التعليم كانت تحفظ أسماء ووجوه من علّمتهم. بعدها صار عقلها يمحوهم واحدًا واحدًا. لا تريد أن تبقي أحدًا فيه.

كان الضوء قد انسحب تمامًا عندما عادت إلى البيت.

وجدت جوزيف جالسًا قرب والده يشاهدان معًا مباراة كرة قدم. وحين رفع مارون عينيه وسألها لماذا لم تردّ عليه وإنها شغلت باله. أجابت بجفاء إن والدها مريض.

بينما وليم يستحمّ ألقت نظرة على مفكّرته، قرّرت أن تدعه يقوم بفروضه وحده ولا همّ إن لم يتمّها بالشكل الصحيح.

رائحة اللازانيا نادتهم وحدها. جلسوا حول طاولة المطبخ. قال جوزيف إنه يريد كولا مع الأكل. ولما لم تجب قال وليم أنا أيضًا. في العادة تسمح لهما بشربها مرة في الأسبوع. لكنها ما عادت تحتمل المجادلة، كانت صورة أمها تمضغ الطعام بخجل كأنها في مكان غريب لا جالسة إلى طاولة في مطبخها، تعود إليها ولا تنجح في طرد لا صورة والدها ولا صورة أمها من رأسها.

مع أنها لم تأكل شيئًا طوال النهار عجزت عن الأكل. ظلّت رائحة التحلّل تعود إليها وتشعرها بالغثيان. تشمّها قوية وتطغى على رائحة اللازانيا وعلى رائحة الصابون المنبعثة من وليم الجالس لصقها. لا تذكر متى كانت آخر مرّة اجتمعوا فيها حول مائدة الطعام. في العادة مارون يأكل وحده إذا عاد متأخّرًا. قليلة هي المرّات التي لا يكون لدى جوزيف شيء يقوم به. معظم المرّات تأكل برفقة وليم. لا تشغّل لا التلفزيون ولا الهواتف، تبعد عنه ولو لحين كلّ ما يشتّته. منذ شُخّص العسر لديه، وهي لا تقوم بأي شيء تلقائيًا. الحديث الألعاب الكتب لها هدف واحد بالنسبة إليها مساعدته على التركيز وتجاوز عسره. رغم تململه كانت تعجب من صبره. حرمت جوزيف من السكريات والكثير من الأطعمة لأنها لا تناسب النظام الغذائي الذي تتبعه مع وليم. لكنه الآن يأكل كل ما يشاء بالخفاء عنها.

يسأل مارون وليم إلى أين ذهب. يرفع عينيه ناحية أمه كأنه يفشي سرًا خاصًا بهما وحدهما «عند جدو وتيتا» أجاب وقد أحمرّت وجنتاه. أضحكها ألّا يذكر تجوّلهما في المجمّع وأكله الآيس كريم. لا بدّ يعتبره حدثًا استثنائيًا. حين سأله عن فروضه، توقّف عن مضغ طعامه وانسحب اللون من وجهه. ربّتت على ظهره وأجابت بدلًا منه أن ليس لديه الكثير

وسينجزها قبل النوم. لكن السؤال قطع شهيته وراح يعبث بالطعام بطرف الشوكة، نابشًا طبقات اللازانيا. كم يفطر قلبها أن يكون محكومًا عليه بهذه الجهود. ليس سهلًا عليه أن يرى جوزيف منهيًا واجباته قبل المساء في حين يبقى هو دون لعب دون تلفزيون طوال أيام المدرسة. أحيانًا كانت تضطرّ لإيقاظه باكرًا كي ينهي ما عليه.

يردّ مارون على الاتصال مبتعدًا عن طاولة الأكل. جوزيف بدوره يستغرق بلعبة الكاندي كراش. تسمع خشّة مفاتيح السيارة. تعلم أنه سيخرج. يسألها إذا كانت تريد منه أن يحضر شيئًا معه. تحدس بمزاجه الجيّد من تقبيله ابنيه وممازحتهما قبل الخروج. عندما يكون متكدرًا لسبب تجهله سارة، ينهرهما عند أقلّ حركة، يمنع عنهما الركض في البيت ويأمرهما بملازمة غرفتهما. تدخّلها يزيده غضبًا ويقول إن قليلًا من القسوة والحزم تفيدهما. يكفي أن واحدًا بينهما يربي فيهما الميوعة وقلّة المسؤولية.

مع الوقت تعلّمت أن الردّ عليه في لحظات كهذه سيؤذيها وحدها، لأنه سيبقى على موقفه إن عاتبته مكرّرًا «بربك ماذا فعلت لك؟ ليس ذنبي أن الأوهام تعشش في رأسك» أو يقول إنها تريده «خيال صحرا» في بيته لا كلمة له مع ولديه. لكنّ سكوتها لا ينجّيها من ردود فعله، يسألها ما بك مستاءة لا تعجبك تربيتي؟ هل وحدك من يفهم في التربية؟ أو يقول إنّ عليها أن تخفّف من كبريائها وغرورها، ليس لأنها قرأت بضعة كتب معناه أنها أكثر فهمًا. تحوّلت قراءة الكتب في جدالهما الدائم إلى مذمّة يعايرها بها للتقليل من شأنها. هذا كانت تتحمّله وتفهم دوافعه النفسية. لكن هناك أمورًا كانت تترك جروحًا لا تقدر على نسيانها. أن يسخر من مشاعرها ومواقفها في كل أمر يصادفهما هو ما كان يؤلمها، واصفًا تعاطفها وشفقتها بالسخف والبله المطلق. لا تعلم إن كان ما يقوله هو

لاستفزازها أم لأنه يفكّر حقًا على هذا النحو. وحين تفقد صبرها في مشاحنة ما كانت تصرخ به باكية: «ماذا تريد مني؟ ماذا فعلت لك؟»

هكذا صار جفاؤهما يستمرّ طويلًا. يتخاطبان عند الضرورة مكتفيين بكلمات قليلة. كثيرًا ما كرهت نفسها، لأنها تستمرّ في حياة لا تريدها. لا تعلم إن كان ابناها مجرّد حجة لتبرير جبنها وضعفها.

تنظر إلى وليم مطيلًا جلوسه كي لا يبدأ بالفروض، يقضم التفاحة قضمات صغيرة ومتباعدة. تضع يدها فوق رأسه. يرفع نحوها عينين محبّتين. أكثر ما يخيفها أن يبتعد عنها كما فعل جوزيف. رغم أنه مختلف عن أخيه في كل شيء. دون أن تعي تفعل المستحيل ليبقى وليم رفيقًا لها كما كان منذ طفولته الأولى. بينما تجلي، استمرّ جالسًا إلى الطاولة ينتظر أن تطلب منه كعادتها أن يبدأ بالدرس. لكنها قرّرت ألّا تفعل. وعندما بدأ بتعداد ما لديه للغد في المدرسة حافظت على سكوتها إلى أن سألها: «متى سندرس؟». فاجأتها نبرته القلقة. أجابته أن يبدأ الآن إن أراد. سألها: «وحدي؟»، كما لو أنها ترسله إلى مكان موحش وغريب. قالت أن يناديها إن احتاجها.

يؤلمها أن ينصرف إلى الدرس في وقت يُفترض أن يكون نائمًا فيه. حين تفقّدته وجدته غافيًا فوق دفتره. اقتادته إلى فراشه وغطته باللحاف. خلافها الدائم مع جوزيف حول درجة حرارة المكيف معركة خاسرة. حتى لو رفعت درجة الحرارة يعاود خفضها ما إن تخرج. الشيء الوحيد الذي يمتثل له هو أن يضيء اللمبادير القريب من سريره فقط كي يتمكّن أخوه من النوم. في معظم الأحيان لا تعلم متى ينام.

كانت الأوراق المكدّسة تزيد من ضيقها وما عادت قادرة على تأجيلها. لذا صنعت كوبًا من الشاي وجلست تصحّح. في البدء كانت تتشتّت وتعيد القراءة لكنها استرجعت تركيزها متناسية وخز رقبتها. سمعت مارون وهو يركن سيارته أسفل البناية، تعرف صوت محركها،

تميّز حتى وقع خطواته، وعندما دخل سألها ألا تزال تعمل حتى الآن؟ بدا سعيدًا وراغبًا في الحديث. سألها إن كانت تريد أن تشرب بيرة معه. قالت إنها لا تستطيع سوف تنيّمها.

سمعت حركته في غرفة النوم. ثم صوت التلفزيون. وبعد ساعة ساد الصمت حولها.

ليلة الجمعة عجزت عن النوم جيدًا، في كل مرة يكون لديها أي مشوار أو أي موعد تعجز عن النوم. هكذا كانت أيام طفولتها. اليوم الذي يسبق دخول المدرسة أو توزيع العلامات أو الامتحانات هو يوم بلا نوم. عندما كبرت زادت الأشياء التي تؤرقها. زيارة أهلها، اجتماع أولياء التلاميذ، الاجتماعات المدرسية على أنواعها، ملاقاة صديقة، أو مكالمة مع أهل مارون عبر سكايب. أحيانًا تعجز عن النوم بسبب حديث عابر خلال يومها. قد تقضي الليل في لوم نفسها على الانجرار لأقوال لا تشبهها، أو لأحاديث سطحية لا تهمّها.

ليلًا كانت تتخيّل أنها تخبر ميرا وليلى أشياء دفينة تعبت من حملها وحدها، ثم تعدّل الحكايات لتعبّر عن نفسها أفضل. لم تكن ترضى عنها تستمرّ في نسج نسخ معدّلة تلو الأخرى. تعلم أن الصباح سيمحوها وستختفي قدرتها على الكلام ما إن تراهما. كانت تقوم من الفراش لتتأكّد من أنها وضعت كتابًا ستعيره لليلى، وألبوم صور استعارته من ميرا. مع أن ميرا قالت إن بإمكانها الاحتفاظ به. لكنها لن تفعل. تعلم شغف ميرا بالتصوير. ربّما ما عادت كذلك، بما أن ما تعرفه الواحدة منهما عن الأخرى مستند إلى سنوات بعيدة. بم تشبه هي سارة القديمة؟

عند الخامسة، كانت تحضّر سندويشات للفطور، مع أنها متيقّنة من عودتها قبل أن ينهضوا من نومهم المتأخّر. ثم أعدّت ركوة من القهوة جلست تشربها على شرفة المطبخ بينما تتأمّل اليمامات وهي تقفز فوق أشرطة الكهرباء. حين سمعت حركة في الداخل فوجئت بوليم واقفًا في

المطبخ ينظر إليها ثم يفرك عينيه طاردًا منهما بقايا النوم. كانت وجنتاه محمرّتَيْن والنمش كحبّات رمل متناثر فوقهما. الإسمرار زال تمامًا وعاد بياض بشرته شفافًا كأنه لم يتعرّض للشمس منذ زمن. عندما أنجبته أثارها العجب من أن تكون أمًّا لولدين ليس بينهما أي شبه. جوزيف أسمر وعيناه خضراوان بلون الزيت، أما وليم فأبيض وعيناه عسليتان. عندما كانت تقول إن جوزيف ورث عن خالته بريجيت لون العينين كان يزعل ويقول إن عينيّ جدّه لأبيه خضراوان وحين تصحّح له وتؤكّد أنهما زرقاوان كان يصرّ كأن لونهما سيتبدّل إن عاندها. سألها وليم إلى أين هي ذاهبة وهل تصحبه معها. أحزنها أن ترفض بحجة أن السير الطويل سيتعبه. لم يرضَ أن يدخل ثانية للنوم. حزرت أن كابوسًا أخافه. تحيّرها هذه الكوابيس، ولا تعلم لماذا هو مليء بالمخاوف. في كوابيسه يسقط من أماكن عالية أو يكون وحده في فناء المدرسة والظلمة تحيط به، ينتظرها دون أن تأتي. يرى نفسه غالبًا في أماكن مجهولة، ولا طرق حوله ليسلكها. هناك كوابيس متكررة يكون فيها عاجزًا عن الإجابة عن أسئلة الامتحانات. يخبرها كيف أنه يعلم أنها أسئلة رياضيات دون أن يكون فيها أي شيء ألفه أو سبق وأن رآه. أحيانًا يمتنع عن سرد كوابيسه لشدة الهول الذي يحسّ به إن استرجعها. أمّا رؤيته لها ميتة فكان أكثر ما يقلقها. كأنّه مستمرّ في مرحلة من طفولته الأولى. أتكون سببًا في زيادة مشاكله، أتعوق فعلًا استقلاله؟ هل يمكن لحبّها له أن يؤذيه؟

تدخل إلى المطبخ وتسخّن كوب حليب، تقول له أن يشربه، سيساعده على النوم. قال إنه لا يريد الحليب، يريد أن يرافقها. حاولت إقناعه بأن يفعل شيئًا يسلّيه وإنها لن تطيل الغياب، أجاب إنه يخاف البقاء وحده، ردّت إن والده وأخاه في البيت معه. قال لكنهما نائمان وهو وحده. كان ينظر إلى الحليب دون أن يشرب منه، يقضم أظافره فيما يده الأخرى تعبث بشراريب شرشف الطاولة. أحسّت أنها لو خرجت دون وليم،

سيفسد مشوارها. ستبقى صورته في خيالها، جالسًا وحده في البيت دون أن يؤنسه لا لعب ولا أحد. لكنها طوال أسبوعها وهي تتخيّل تلك الفسحة. قالت له إنه كبير كفاية ليتمكّن من أيجاد ما يسليه بنفسه. هي التزمت بالموعد ولن تبدّله لأن ابنها خطر له أن يعاند كما يفعل الأطفال الصغار. استمرّ واجمًا دون أن يردّ عليها وهي تسارع لملاقاة ليلى وميرا.

في المصعد كتبت له رسالة نصية تعده فيها أن تصحبه لاحقًا إلى أي مكان يريده ثم اقترحت عليه أن يقوم ببعض الفروض ليكون الأحد يومًا للراحة. تعلم أن ذلك مجرّد كلام لأنه حتى لو أنهى كل شيء ستقوم الأحد بمراجعة كل ما أنجزه. وستنتهي العطلة الأسبوعية دون أن يتمكّن من التمرّن على الغيتار. ظنّت بداية أنه سيملّ سريعًا من دروس الغيتار كما ملّ النشاطات الأخرى لكنه فاجأها بحماسه. لا يزال يتعلّم النوتات والايقاع على الطبلة. لم يبدأ بعد بالعزف الفعلي على الغيتار. كثيرًا ما تكتب له رسائل نصية دون استخدام أي اختصارات. تدرّبه دون أن ينتبه على القراءة. كانت تخاف أن يسألها لماذا لا ترسل له رسالة صوتية كما تفعل مع جوزيف. لكنه حتى الآن لم يلحظ ذلك. هو عكس جوزيف الذي لا تغيب عنه أي شاردة. تذكر أنها مرة حكت مع معلّمته لتبدّل له مكانه في الصف، كان يشكو من أنه أُجلس قرب واحد لا يكفّ عن إزعاجه واستعارة أغراضه ووضعها سهوًا في حقيبته. وبدل أن يرتاح ويفرح لتبديل مكانه، زعل وقال إنه ليس صغيرًا واتّهمها بأنها أفشت سرًّا أخبرها إياه وحدها. وحين كان في الصف الرابع الابتدائي عانى بشكل متكرّر من التهاب لوزتيه، ما جعلها تطلب من معلمة الرياضة أن تريحه لأن المضادات التي يتناولها تتعبه، لم يخطر ببالها أن المعلمة ستجلسه على مقعد كأنه معاقب في حين يقضي رفاقه ساعتين وهم يلعبون. هكذا أغلق على نفسه شيئًا فشيئًا كأنه داخل شرنقة لا تستطيع مهما بلغ فضولها أن ترى ما في جوفها. تحبّ أن تتخيّل أن كل هذا البعد وقتي. بإمكان

مارون أن يمازحه بشأن اعجابه بفتاة في صفّه، أما هي فلا تتجرّأ. كما امتنعت عن استدراجه لتعرف ما يحدث معه في الصف، أو في مشاويره لا يجيب حتى عندما تسأله عن رأيه بفيلم شاهده مع رفاقه.

تلفّتت حولها. لم ترهما في المدخل، الزمور نبّهها إليهما جالستَيْن في السيارة. ضحكت متسائلة هل سيقمن برياضة المشي في السيارة! ركبت في المقعد الخلفي، التفتت ميرا إليها وسألتها إن كان لديها مانع من السير جهة الكورنيش. حزرت ذلك مسبقًا لأنه مكان ميرا المفضل. أما هي فتسلك طرقًا مختلفة في كل مرّة ومؤخرًا كانت تفضّل السير باتجاه الوسط التجاري الهادئ في الصباح.

توقّفت ميرا قرب عربة لبيع القهوة اشترت نسكافيه، لم تقل سارة إنها أخذت حصتها اليومية من الكافيين. ما الذي سيحصل؟ بكافيين أو دونه تستصعب النوم. بقين في السيارة يستمعن إلى الراديو يبثّ أغاني صباحية لفيروز. لم تلحظ سارة تبدّل ليلى إلّا حين ترجلن من السيارة. كانت رغم الحرّ ترتدي قميصًا بأكمام، جفنها يرتجف دون توقّف، لوهلة ظنّت أنها تغمزها. السيجارة تتدلّى من أصبعيها كأنّ لها وزنًا. مشت خطوات قليلة مشية ثقيلة ثم جلست لاهثة على مقعد حجري فارغ. قالت إنها متعبة لن تستطيع أن تمشي برفقتهما. ستمكث هنا بانتظارهما. نظرت ميرا طويلًا إلى ليلى، وسألتها إن كانت تفضّل تأجيل المشي إلى وقت آخر. أصرّت عليهما أن تمشيا من دونها. كان سيرهما صامتًا تتخلّله عبارات عن الرطوبة، عن سمكة ما في طرف صنارة، عن كثرة الصيّادين والأكشاك وراكبي الدراجات. لم تمانع سارة من العودة بعد أقل من ربع ساعة على سيرهما. قالت ميرا إنها لا تريد ترك ليلى وحدها، لديها احساس أنها في حالة نفسية سيئة. سألت ساره إن كان للأمر علاقة بالعمل؟ سؤال أرادت منه أن تستدرج ميرا لتحكي أكثر. قالت إنّها لا تعرف بالضبط.

لم تجداها على المقعد كان هناك عجوزان يجلسان مكانها يأكلان

كعكة بالزعتر. نظرتا في الأرجاء قطعتا الطريق إلى جهة المقاهي لكنهما لم تجدا لها أثرًا. تركت لها ميرا رسالة صوتية، جاءها الرد بعد دقائق إنها في السيارة.

كانت متكئة مغمضة العينين، قالت إنها شعرت بالنعاس، فكّرت أن تنام بانتظار عودتهما. ارتبكت معتذرة على افساد رياضتهما. مكثن في السيارة بعد أن شغّلت ميرا المكيّف. قادت السيارة في طرقات شبه فارغة. قالت ساره ما إن مرّت السيارة قرب السوبرماركت إنها عملت فيه أيام كانت طالبة جامعية. أرادت أن تقول شيئًا تكسر فيه الصمت. أجابت ميرا إنها لم تخبرها ذلك أبدًا. حكت عن ذلك العمل الذي كانت تقوم به يومي السبت والأحد منذ الصباح حتى العاشرة ليلًا، ويوم الأربعاء كانت تعمل لأربع ساعات ليلية. أيام العطل كانت تعمل يوميًا من السابعة والنصف حتى العاشرة ليلًا. كانت ظهرًا تأكل غداءها وهي جالسة خلف الصندوق. تذكّرت وحدها كيف كان ينتظرها ليرافقها مشيًا إلى الحي، سعادتها بذلك الأجر الزهيد، بالهدايا التي كانت تقدّمها له. هدايا ما كان يتوقّعها. يكفي أن يذكر مرة اسم كاتب حتى تشتري واحدًا من كتبه. كانا يسيران على مهل ليؤخرا افتراقهما.

كانت تحضر إلى البيت الكثير من الأشياء الخاضعة للتخفيض أو تلك التي عليها عروضات لقرب انتهاء مدة الصلاحية. تعطي أخاها مصروفًا أسبوعيًا. تفرح لأنه صار مثل رفاقه، يذهب برفقتهم إلى السينما أو يتسكّع معهم أيام العطل ويشتري سندويش فلافل أو شاورما. والدها الذي كان يفرك ذقنه بالسبيرتو أو بماء الورد بعد الحلاقة ساءه تبذير أخيها عندما اكتشف الكولونيا التي تفوح منه. أشياء بسيطة كانت تسعده، كأنّ ذلك المصروف حوّله من ولد يتلعثم بكلامه إلى شاب مثل غيره. بدأ يطيل الوقوف إلى المرآة، يوفّر من مصروفه لشراء قميص جديد أو بنطلون جينز. لم يكن ما تتقاضاه يعادل نصف الحد الأدنى من الأجور لكنه

منحها فسحة من الحرية، صارت تدفع نقلياتها إلى الجامعة ومن حين لآخر تخرج برفقته للجلوس في مقهى ليس بعيدًا عن الجامعة. صحيح أنه شعبي لكنه كان أول مقهى ترتاده بحياتها. وفيه شربت لأوّل مرّة أيضًا بيرة. وعندما تخرّجت بريجيت من المهنية، كانت هي من توسّط لها لتحصل على وظيفة ثابتة في السوبرماركت. وظيفة لم تثبت فيها إلّا لشهرين، قالت إنها وجدت محل ألبسة يدفع لها أكثر على ساعات عمل أقلّ.

المقهى الذي دخلن إليه مليء بأشياء قديمة تتدلّى من السقف بحبال أو موضوعة في الزوايا لكنها كلها تتعلّق بآلات موسيقية قديمة. رغم الوقت المبكر كان هناك زبائن، بعضهم بدا من ثيابه أنه قضي ليلته في ملهى، ولم ينم بعد. آثار السكر بادية على وجوههم. رائحة الفول المدمس والحمص والنعناع ملأت المكان. لم يكن فسيحًا، بضع طاولات قليلة. كان هناك شخص واحد يقوم بالخدمة. حين اقترب من الطاولة احترن ماذا يطلبن. لم تكن أي منهن ترغب بترويقة رغم الروائح الطيبة. وحين قرّرت ميرا أن تطلب فتة حمص بلبن اكتفت ليلى وساره بالشاي.

أحد الزبائن سأل أليس هناك موسيقى أفضل معترضًا على أغاني عبد الوهاب. أغاني ذكّرت ميرا بوالدها وبالمسجلة التي كانت ترافقه في محلّه. ساره التي أحسّت بثقل هذا الصمت، بدأت تحكي عن تلاميذها. وكيف أن تلميذًا سألها، احتجاجًا على كتاب للمطالعة، بماذا سيفيده في مستقبله. أجابته إنه محقّ لا شيء يمكن أن يفيده. هكذا كانت تنتقل من حكاية إلى أخرى. الضحك الذي بدأ مجاملًا تحوّل إلى ضحك فعلي، ميرا أخبرت كيف أرسلت لكل من في العمل عن طريق الخطأ ايميلًا كتبته في الأصل لراغده، كانت فيه تشكو من بلاهة وعدم كفاءة من تعمل معهم وكيف أنها مضطرة بسبب خطأ أحدهم أن تتأخر ليلًا لانجاز عمل لم تشترك فيه في الأصل. قالت ليلى للتخفيف عن ميرا، لا مشكلة، من

لا ينفّس بأقوال كهذه تحت الضغط. أجابت ميرا أن الموضوع مرّ دون أي مشكلة، إذ كان كل واحد يأتي لسؤالها إن كانت تقصد فلانة أو فلانًا. وكانت توافق كل واحد، هكذا أرضت الجميع قالت.

قالت ميرا أن أخويها عزما أخيرًا على بيع البيت، حتى أنهما أرسلا لها وكالة عامة، لكن منذ فعلا وهي تتردّد وتخلق العراقيل لتبقى فيه. لا تستطيع أن تغادره وأن تبدأ حياة أخرى في مكان جديد. تحسّ كأنها ستتخلّى عن نفسها وعمّا تبقى لها من أمها ووالدها وذكريات عاشتها. لن تحتمل أن تفتقد ما ألفته من الوجوه والطرقات. منذ قرّروا البيع وهي تنظر إلى كل ما حولها نظرة ألم وأسى. تحدثن عن أن نصف عمرهنّ انقضى النصف الجيد، وكيف يجدن صعوبة في التغيير. أسكتتهما ساره بالقول «تذكّرا أنني صرت قبلكما في المقلب الثاني. لا تزال أمامكما بضع سنوات قبل الانحدار الكبير». كانت كل منهن تحكي عمّا تغيّر فيها. ثم انتقل الكلام إلى راغدة، قالت ميرا إن راغدة ليست بأحسن أحوالها، مؤخرًا تتبادل الرسائل مع ميرا. ميرا لا تعرف بالضبط سبب ما تمرّ به. تشكو من عملها، ومن زبائنها الذين يتصرّفون بلؤم معها كأنهم يقومون بخدمة شخصية لها إن اتبعوا الحميّة. أو يساومونها على برنامج الحمية الذي تحدّده لهم فيسألون إن كان بإمكانهم أكل الكنافة والمناقيش أو البوظة أحيانًا؟ أو هل بإمكانهم تخفيض ساعة المشي إلى نصف ساعة؟ هل صعود الدرج والمشي إلى السوبرماركت يحتسب رياضة؟ ردّت سارة إن راغده تأخّرت قليلًا على الملل من عملها، وإن هذا يحصل للجميع. «لا أظنّ أن العمل هو السبب. هو الحجة فقط في الظاهر، وإلا لماذا فتر حماسها للسفر والخروج، حتى شكلها تغيّر. منذ متى تخرج دون ماكياج؟». أشعلت ليلى سيجارة، سحبت نفسًا عميقًا قالت إنها لا تظنّ أن راغده تواجه مشكلة، كل ما في الأمر أنها نضجت قليلًا. ليس بإمكان الواحد إن كان عاقلًا أن يعيش سعيدًا دائمًا كالأبله. هل الواحد أعمى؟ ماذا نرى حولنا؟

كانت ساره تتجنّب النظر إلى جفن ليلى المرتعش وإلى رقبتها التي برزت فيها عروق كانت تنتفخ وتظهر أكثر كلما تكلّمت، كأنها نبتة رفيعة الساق قد تكسرها حتى النسمة الرقيقة. لا تعلم لماذا توحي بالضعف. هل صمتها أم نحولها أم تلك النظرة المنكسرة. لا تذكرها هكذا أبدًا. لكن لماذا تعجب؟ ألم تتبدّل هي أيضًا؟ حتى ميرا لم تعد تلك الفتاة المليئة بالحيوية. كانت ترهقهم جميعًا وما كانوا قادرين على اللحاق بالنمط الذي فرضته عليهم جميعًا. الدرس الطويل ما كان عائقًا أمامها. كانت تثير عجبهم بتلك الطاقة. تخطّط لمشاوير حتى إلى خارج باريس، وعندما أحسّت أن رفض ساره سببه قلة مالها، باتت تتجنّب المطاعم. كانوا يشترون لوازم طعامهم ويجتمعون أيام المطر عند أحدهم أو يفترشون أرض حديقة ما. يشربون جميعهم من قنينة النبيذ نفسها، ويغنون أغاني عربية ما كانوا سابقًا يستمعون إليها. لكنهم بعيدًا عن بلدهم صاروا يعدّون أكلات لبنانية ويسمعون فيروز في سهراتهم، وتحوّلت الأمكنة التي غادروها إلى أخرى جمّلها الحنين وأخفى بشاعاتها. تذكر كيف كانوا يجتمعون لإعداد الكشك أو الفتوش أو المناقيش. يشترون عجينة البيتزا الجاهزة ويحوّلونها إلى منقوشة. رغم اختلاف الطعم كانت تلك الولائم هي التي يفضّلونها على اللحوم الباردة والأجبان الفرنسية. حتى رفاقهم الأجانب كانوا ينجرّون إلى حبّ طعامهم، ويستسيغون صوت فيروز. وكان هناك دائمًا من يتبرّع بأن يترجم لهم بعض كلماتها.

أصرّت ميرا على أن تتذوّقا بعضًا من الفتّة. ليلى أكلت دون حماس أما ساره فقد تأمّلت السمن الكثير السابح فوق اللبن وتخيّلت الوحدات الحرارية التي ستكسبها إن أكلت. دون أن تنتبه كانت كلما رأت طبقًا ما تقوم بتحويله إلى نسخة مختلفة، دون سمن ولا خبز مقلي والأفضل أن يكون اللبن بلا دسم. شربت شفة من الشاي، وسألتهما لماذا لا يقمن بمشروع. هكذا تنضمّ إليهن ندى وراغده. قالت لهما أن تطمئنا

إنها لن توجه لهن دعوة إلى بيت حموَيها. لم يكن ايجاد مكان يرضين عنه بالسهل. ميرا اقترحت مكانًا تعرفه في اهدن، قالت إن ذهبن لقضاء ليلة في تشرين سوف يحصلن على حسم. تلعثمت ليلى وقالت إنها لا تستطيع النوم خارج البيت. ساره تعلم أن ليلى تخشى الكلفة، وكان ذلك يحيّرها. بما أن هناك موردَي دخل وابنًا وحيدًا. وليست ليلى مبذرة، غالبًا ما تراها في الثياب نفسها سنة بعد أخرى. تقود السيارة ذاتها منذ تعرّفت عليها. لكن كيف لها أن تعلم، ربما يساعدان الأهل. تصلها رسالة صوتية من أختها إيفون. تبتعد عن الطاولة لتسمعها. كان قلبها يخفق كالطبل، توقّعت خبرًا سيئًا. ليست معتادة أن تحكيها لا في مثل هذا الوقت ولا دون مناسبة. حين فهمت أنها مع وليم في بيتها وتريد أن تكلمها، ارتاحت قليلًا دون أن يزول قلقها. نهضت في الحال قائلة إنها مضطرة للعودة. في السيارة سألت ميرا ليلى إن كانت هي الأخرى تود العودة إلى بيتها. أجابت لا. نادر يقضي مؤخرًا عطله مع جمعية كنسية يدرّس أولادًا من عائلات فقيرة ويهتمّ أيضًا بإقامة نشاطات ترفيهية لهم. قالت إنها سعيدة لأنه يقضي وقته في الجمعية مع شبان من عمره. استغربت ميرا وسألت منذ متى تذهبين إلى الكنيسة، ردّت أن ذلك تمّ من خلال مدرسته. ثم تذكرتا معًا هربهما من القداديس ومن الاعتراف، وكيف كانتا تمكثان في أمكنة لا تخطر ببال، رائحتها كريهة، كغرفة خزين مليئة بالعناكب والغبار والمقاعد المحطمة. أو داخل أوتوكار في موقف المدرسة. حكت ميرا عن المرة التي قفزتا فيه فجأة من مخبئهما وكاد سائق الباص يصاب بنوبة، خافتا يومها أن يقود بهما بعيدًا عن المدرسة. توسّلتاه طويلًا كي لا يشكو أمرهما للراهبة. كانت ساره تسمع أطرافًا من تلك الذكريات دون تركيز. حتى قرّرت أن تسأل ايفون عمّا تريده. لا تريد أن تأكلها الوساوس. قد تكون مسألة تافهة كأن تختلف مع أهلها أو تزعل من بريجيت التي تثقل عليها برعاية أولادها. رنّ الهاتف، لم تردّ إلّا بعد وقت. قالت ساره إن

بالها انشغل تريد أن تعلم هل أحد من أهلها به شيء، ردّت أيفون معتذرة إنها لم تقصد تخويفها، لكنها علمت يوم الجمعة أن المدرسة ستقفل نهائيًا. بلّغوا الجميع بالأمر. قالت إنها لا تستطيع أن تبقى دون عمل، وغصّت بالبكاء. قالت سارة إنهما ستحكيان وستصل في ربع ساعة.

حين دخلت كان مارون قد استيقظ لتوّه، بدا ممتعضًا وقال حتى يوم العطلة لا يمكن أن يحظى بنوم هانئ. حين سألته ما يمنعه، ردّ إن جرس الباب أيقظه ثم رنين الهاتف مستغربًا النغمة التي اختارتها ايفون قائلًا: «ألم تجد أبشع من هذه الرنّة؟». خافت أن تسمع ايفون، وضعت سبابتها فوق شفتيها المضمومتين لتفهمه أن يخفض صوته، ردّ بعدائية «هذا بيتي وأنا حرّ فيه». كانت بينما تتوجّه إلى غرفة الجلوس تكرّر بصوت هازئ وغاضب «طبعًا هذا بيتك».

جلست ايفون عند طرف الكنبة كأنّها تحاول ألّا تكون مرئية. بدأت تعتذر عن ايقاظ مارون وافسادها لمشوار ساره، حتى جلوس وليم معها اعتبرته حجزًا لحريته.

حكت بصوت خفيض واضطرّت ساره لجعلها تعيد عباراتها. كانت تبكي ثم تعاود الاعتذار. حين قالت ساره إنها تستطيع أن تسندها ماديًا حتى تجد عملًا. اجابت إنها قليلة المصاريف وقد وفّرت طوال سنين عملها ما يكفيها لسنة دون عمل. سألتها ساره إذًا ما سبب هلعها وبكائها. قالت مطأطئة رأسها ألّا تفهم كلامها بشكل مغلوط. المكوث في البيت مع أهلها طوال الوقت أمر شاق، تخاف ألّا تجد وظيفة. من يوظّف واحدة في عمرها؟ من يرضى بخريجة مهنية في حين هناك آلاف من خريجي الجامعات بلا عمل، وما قيمة خبرتها؟ كان كلامها كالكوابيس تنتقل من صورة إلى أخرى أشدّ قتامة حتى صارت في الأخير أسيرة البيت تغيّر حفاضات والدها، وتساعد أمها في تحميمه، وتكبر وتمرض بدورها وترث أمراض أمها، مع فارق إن لا أحد سيعتني بها. كان بكاؤها يؤلم

سارة. حتى لو علمت أنها تبالغ لكن العيش مع صور كهذه في الرأس ليس بالأمر السهل. قامت ساره لتعدّ لأختها فنجان نسكافيه. في العادة تتبعها إلى المطبخ لكن ليس في وجود مارون. حضوره يزيد من خجلها. كان جالسًا مأخوذًا بشيء يقرأه على تلفونه، ويأكل تفاحته قضمات كبيرة. رفع رأسه وسأل كأنه يحكي عن شخص لا يربطه به شيء: «ما بها؟» امتقع لونها ولم تردّ استمرّت تحرّك النسكافيه بعصبية. قال: «ما بك لا تردّين؟ ما عاد الواحد يجرؤ على الكلام معك ماذا قلت؟ هل شتمت؟». لم تجب لا تريد أن تسمع أيفون أي جدال. أزاح الكرسي بعنف ونهض.

كان وليم جالسًا يتابع برنامجًا عن سيارات السباق. رغم انشغاله عن حديثها مع إيفون لم ترد أن يسمع ما تقولانه عن جدَّيه. لا تزال تتركه حين يمرض عندهما. لا تريد أن يمتلئ رأسه بصور مقلقة عنهما. لذا خرجتا إلى الشرفة وجلستا متلاصقتين عليها. الشرفة ضيقة لا تتّسع في العادة إلّا لمنشر الغسيل. وعدتها ساره أن تساعدها في البحث عن وظيفة جديدة قالت إن لديها معارف تستطيع أن تسألهم، وحين سألت إيفون بخجل ألا يمكن أن تجد لها عملًا في مدرستها؟ لم تدرِ ساره ماذا تقول. أي كلام حتى لو كان واقعيًا سوف يجرحها. بماذا تجيبها؟ تذكر مزاحها مع زملائها حول اعلانات المدرسة للتوظيف، وكيف كانوا يحوّرونها «مطلوب عمال تنظيف لديهم كفاءات وخبرة وشهادة جامعية وحسنو المظهر..»

أجابتها أن لا وظائف في المدرسة متاحة. ردّت ايفون إنها تعمل في أي شيء، ناظرة، موظفة استقبال. كم أحزنها أن تظنّ أختها أن هذه وظائف لا تحتاج لشهادات عليا. كل ما فيها ينتمي إلى الماضي. تنورتها التي تغطي ركبتيها، قميصها، قصّة شعرها، كأنها نسخة أصغر عن أمها، وهذا الخجل الذي مهما حاولت ساره لا تستطيع أن تزيله ولا أن تخفّف منه. وقفت فجأة وقالت إنها أخّرتها عن أشغالها. شدّتها من يدها وقالت لها أن تمكث وإنها ستوصلها، هي في الأصل وعدت وليم بمشوار.

كان وليم سعيدًا بركوب السيارة كأنه ذاهب في مشوار يحبّه لا مجرّد توصيلة. لذا زعل عندما عادت به وظلّ يذكّرها بوعدها له أن تأخذه إلى مكان يحبّه. وحين سألته أي مكان يقصد، لم يردّ بل ظلّ يقول بصوت باك إنها كذبت عليه. كانا يتجادلان، حين رأت مارون. كان يحكي على هاتفه ويضحك ضحكة لم ترها منذ سنين، وقف أمام بناية مقابل السوديكو، وحين تجاوزت التقاطع كان لا يزال مشغولًا بالحديث الهاتفي. كانت تنظر إليه كأنها ترى شخصًا غريبًا عنها. خافت أن ينتبه له وليم ويبدأ بمناداته.

في عطلة نهاية الأسبوع لا تراه كثيرًا. هناك دائمًا دروس خصوصية. أو هكذا يدّعي. ما عادت تشكو من غيابه ومن تحوّلها إلى سائق لا إلى ابنيها فقط بل إلى رفاقهم. اعتاد جوزيف أن يتبرّع بإيصال رفاقه في الفوتبول بعد التمرين. لم ترد أن ترفض كي لا تزيد من بعده عنها. لا تسأل جوزيف لماذا تكون هي فقط دون سائر الأهالي من يقوم بذلك. بما في ذلك عندما يعودون من حفلة ميلاد أحدهم. تتحمّل ساكتة انتقاداته لها ولحذرها وبطئها في القيادة. يقول لرفاقه، كأنها غائبة ولا تسمع، إن والده سريع حتى في عجقة السير. يحكي عنه كأنه شوماخر. لا تدري لماذا لا يجد فيها شيئًا مميزًا يدفعه للتباهي بأنها أمه. دائمًا والده هو الأذكى والأقوى والأكثر معرفة. مع أنها هي من تجيبه عن أسئلته في الكثير من المواد لا والده. هي من كانت ترضي فضوله وتجيب بصبر عن أسئلته التي ما كانت تعرف حدًا في طفولته. علاقتها الوطيدة بزوج ندى عدنان سببها جوزيف أولًا. اعتادت ان تشكو له، وكان الحديث معه متنفّسًا لها. في البدء كانت تخجل وتسأله عبر ندى. حتى شجّعتها ندى على الاتصال به مباشرة. أرادت أن يتابع هو وليم، لكنه رفض قائلًا إنه يحتاج لأخصائي في مسائل العسر يكون غير قريب منه.

لا تملك دائمًا سعة الصدر لتحتمل إعراض جوزيف عنها، لكنّها

تندم ما إن تؤنّبه على قلة أدبه. لأنّ ردوده بعدها تزيد من ألمها. كان ذكيًا وسريع البديهة في أجوبته. إن قالت إنه ابن لا يقدّر شيئًا، يردّ إنها أم تنتظر شكرًا على أي أمر تقوم به كل أمهات العالم. أو يتّهمها بأنها لا تحبّه. أو يسألها لماذا يتشاجر فقط معها لا مع والده؟ أو يقارن بينها وبين أمهات أصحابه. مقارنة تخرج منها خاسرة. لا تدري لماذا دارت تلك الأفكار في رأسها وهي تقود. وليم الذي رضخ أخيرًا لواقع أنها لن تصحبه في أي مشوار، بدأ يساوم على فروضه، قائلًا إنه لا يريد أن ينجزها اليوم. ردّت بلا اكتراث «افعل ما تشاء». ما إن وصلت حتى سألها جوزيف إن نسيت أمره تمامًا، سوف يتأخّر عن تمرين الفوتبول. أجابت بعصبية إنها لا تفهم لماذا لم يطلب ذلك من والده.

طوال يومَيْ العطلة بقي وليم منتظرًا أن تسأله عن فروضه أو تناديه لإنجازها، لكنها لم تفعل. وعندما اقترب مساء الأحد، اضطرب كثيرًا وصار يشكو مرّة من مغص معوي وأخرى من صداع. تظاهرت بتصديقه وحضّرت له كوبًا من اليانسون وتحسّست رأسه واكتفت بالقول إن حرارته عادية. أحزنها رعبه الذي كان يكبر مع تقدّم الوقت، حتى حسم أمره وبدأ بكتابة فروضه، وعندما كان يعود إليها بينما هي منشغلة بطباعة الإمتحانات، كانت توجّهه مرّة إلى مراجعة درسه جيدًا قبل الشروع بحلّ المسائل وأخرى لايجاد معنى الكلمات بنفسه والبحث عنها في القاموس. رغم علمها أنه لن ينتهي من دروسه، حزمت أمرها في جعله غير معتمد عليها. لكنّ قلبها انفطر عليه وهي ترى ارتباكه وانعدام ثقته بأجوبته ومعلوماته.

كان مارون لا يزال خارج البيت حين انتبهت إلى أنها لم تحكِ معه بخصوص الدورة. سيكون عليه هو أن يتولّى أمر الأولاد في غيابها. توصيلهما من وإلى المدرسة. إلّا أذا رضيا أن توصلهما باكرًا قبل التوجه إلى منطقة نهر ابراهيم.

كان عليها أن تتحضّر نفسيًا حتى للحديث معه في أمور عادية كدفع الأقساط في المصرف أو ميكانيك السيارات أو شراء الثياب والطعام أو تصليح شيء تعطّل. أجوبته على أمور بمثل هذه التفاهة تفاجئها دائمًا. كأن يسأل ما الذي ينقصها لتقوم بتلك المهمة أو تلك؟ أو يدّعي أنه يقتل نفسه في العمل ولا وقت لديه. كان يحيّرها ألّا ينتبه لمقدار ما تتعب بدورها. وألّا ينتبه إلى نبرة اللؤم في كلامه معها.

عاد قرابة الحادية عشرة وعندما أخبرته عن الدورة، نظر في وجهها وقال: «الآن تخبرينني؟» قالت هل يجب عليها أن تأخذ موعدًا من الآن وصاعدًا أم تتصل به أو تتواصل معه عبر الرسائل؟ وأضافت إنه معظم الأحيان يكون خارج البيت. هذه الجملة جنّنته. أجابها إنها امرأة كريهة لا تقدّر شيئًا وتشكّ حتى في المسيح نفسه. ثم حملق فيها ووقف قبالتها وقال: «تريدين أن تعلمي لماذا أبقى خارج البيت؟ هل تريدين حقًا؟ أهرب من خلقتك».

تحمّلت الأهانة ورجته ألّا يرفع صوته لأنه سيوقظ الأولاد.

لم تنم ولم تأوِ إلى الفراش. حاولت أن تقرأ عبثًا. جلست في العتمة. العالم نائم حولها، حتى حركة الشارع هدأت. وحدها تبكي ولا يخطر ببالها أحد يمكن أن تحكي معه. حتى دفاترها هجرتها منذ سنين. فكّرت أنها تستحق كل ما يحصل لها، تركت الأمور تصل إلى هذا الحدّ. كان قبل ذلك لا يهينها في كلمة مهما كان الخلاف بينهما قويًا.

كانت الساعة تقارب الرابعة فجرًا عندما بدأت ترتدي ثيابها. كانت تخشى أن توقظه وهي تفتح الخزانة لتتناول منها أول شيء يقع تحت يدها. لأول مرة لن تكون هي من يحضّر طعام أبنَيْها.

تحت البناية كان هناك مجموعة من الساهرين الذين خرجوا لتوّهم من الملهى، حيّاها أحدهم. ما دفع برفاقه إلى الضحك كأنه قال نكتة. تلفتت حولها وهي تركب السيارة. لا تريد أن يراها ناطور الموقف.

جلست خلف المقود. العتمة بدأت تشفّ تدريجيًا وهي كالصنم لم تتحرّك. كان الحرّ ثقيلًا حتى في وقت مبكّر كهذا. أنزلت الشباك. وحين تلاشت العتمة انطلقت بسيارتها. لم تفكّر بوصولها المبكّر ولا ما عليها فعله قبل أن تبدأ الدورة.

قادت على مهل، ماسحة دموعًا كانت تطمس الطريق أمامها.

لم تترجّل من سيارتها، انتظرت بدء توافد التلاميذ حتى دخلت من البوابة. أرشدتها موظفة الاستقبال إلى مكان الدورة. ما كان هناك أحد بعد. الطابق فارغ إلّا من ناظرة، قامت بفتح القاعة لها. المدرسة ليست غريبة بالنسبة إليها سبق وتابعت فيها دورات على مرّ السنين.

وقفت إلى الشبّاك، تأمّلت عشرات من عصافير الدوري تنطنط فوق أغصان شجرة شربين. نسمة ناعمة هبّت ولطّفت الحرّ المترسّب في الداخل. رائحة الغبار والطباشير كانت تزكم أنفها. تحسّ أن الهواء لا يصل إلى رئتيها.

لم تلتفت لترى القادمين حين سمعت الأصوات تقترب من القاعة. تمنّت لو أن بإمكانها تجنّب هذا النهار، لو أن أحدًا من زملائها كان معها لهان عليها الأمر أكثر. الكثير من الوجوه تعرفها، تبادلت معهم التحيّة واختارت مقعدًا في الصفّ الأخير. اقتربت معلمة لا تعرفها وجلست قربها. بدت أشدّ ارباكًا من الجميع. تردّدت قبل أن تسأل ساره من أي مدرسة جاءت، بعدها حكت عن استيقاظها المبكّر كي لا تتأخّر، اشتكت من طول المسافة لأنها أتت من مدرسة في النبطية. لسبب تجهله، اعتبرت ساره الرفيقة بين المجموعة لتسرّ لها بانطباعاتها عن المُحاضر وعن الطرق التقييمية التي يقترحها. كانت ساره لا تحتمل الحماس لنظريات تعلم من خبرتها أنها لن تلبث أن تُستبدل بأخرى. عندما طُلب منهم أن يعملوا ضمن فرق من ثلاثة أشخاص، لم تتحرّك ساره من مكانها

ولم تبادر للبحث عن ثالث ينضمّ إليهما إلى أن اقترب أستاذ في بداية العشرينات سائلًا إن كان بإمكانه الانضمام إليهما.

كانت الكلمات تطلع منها بصعوبة، لا تتفوّه بها إلّا مضطّرة. تركت لهما حرية التوهّم في أن أفكارهما فريدة من نوعها لم يسبقهما إليها أحد. كانت مثلهما في بداية عملها.

عند الاستراحة الأولى سارع الجميع إلى خارج القاعة وتحلّقوا حول طاولة القهوة والشاي والكرواسون. هي بدورها اتجهت دون تخطيط إلى سيارتها. جلست فيها متكئة برأسها فوق المقود. ربما غفت لا تعلم لكن نقرة أحدهم على شباكها أجفلتها، رجل سألها إن كان بها شيء؟ رفعت يدها لتشكره. ثم قادت سيارتها إلى خارج الموقف. لم يكن في ذهنها لا خطة ولا مكان تقصده. ما تعلمه بشكل أكيد هو أنها لن تعود إلى تلك القاعة. ليس بإمكانها أن تتخيّل جلوسها هناك إلى الثالثة بعد الظهر. لم تحمل لا همّ تبرير غيابها لا لمنظمي الدورة ولا لإدارة مدرستها. سئمت من نفسها القديمة، من أنها أمضت عمرها لا تهمل واجبًا ولا تحيد عن الطريق القويم.

رغم بشاعة الروائح المنبعثة من الشاطئ كان صوت أمواج البحر يؤنسها وهي تقود على مهل. رائحة كانت تختلط على امتداد الطريق بروائح الخبز والسكر المنبعثة من الأفران وروائح الكاوتشوك والمازوت. النعاس أبطأ من قدرتها على التنبّه جيدًا. كانت تنتبه في اللحظة الأخيرة لإشارة سيارة تودّ أن تتجاوزها أو لأخرى تريد التوقّف. لكن السير لم يكن كثيفًا. الزحمة كانت في الخط المتوجّه إلى بيروت. حين أخذت طريقًا جبليًا قلّت السيارات وبدأ الهواء المتسلل إليها يلسعها ببرودة حلوة. كأن الخريف حلّ فجأة في هذه القرى الجميلة. لا تذكر أنها سلكت هذا الطريق سابقًا ولا همّها أن تعرف إلى أين هي ذاهبة. أخيرًا أوقفت السيارة في طريق فرعي محاط بحرش من الشربين والصنوبر.

جلست على صخرة ملساء. امام قدميها خطّ من النمال الكبيرة المحملّة بالقش. أنست أصوات الجنادب. ضرب معاول تسمعه في حقول غير بعيدة. تمشّت إلى حيث يشرف الحرش على وادٍ تتدرّج فيه جلول مزروعة بالفاصوليا. حين سمعت الصوت لم تحزر أنه لبجعات تحلّق أسرابها فوق رأسها تمامًا. كانت ترسم أشكالًا مختلفة في طيرانها. تنخفض ثم تعلو. إنها المرّة الأولى التي تسمع فيها صوت البجع. صوت دخل قلبها. رفعت رأسها نحوها كانت تنخفض فترى لمعة الأجنحة وتحسّ أن أصواتها التي باتت أقوى تحكي معها.

عندما عادت إلى البيت، وجدته في فوضى كبيرة. على طاولة المطبخ صحون وأكواب وعلبة بيتزا وقناني ببسي فارغة. في غرف النوم الثياب مرمية فوق الأسرّة. رائحة بشعة تفوح من الجوارب المتّسخة والأحذية الرياضية، كانت تجمعها وهي تسألهما عن يومهما.

حزرت من النظر إلى وليم أنّ شيئًا سيئًا حصل معه اليوم. لكنه لم يُطلعها في الحال على ملاحظة المعلمة التي كتبت أنه لم ينجز فرض الرياضيات. وقّعت الملاحظة، دون أن تكتب شيئًا. هي في العادة تكتب تبريرًا للاهمال رغم ندرة حصوله. لا تدري لماذا يقف خائفًا منها. يشعرها خوفه أنها أم فاشلة. وإلّا كيف تعجز عن إدخال الطمأنينة إلى قلبه؟ كيف لا يتجاوز عثراته؟ قبّلت رأسه، فاغرورقت عيناه بالدموع، سألها إن كانت زعلانة منه. رقة ابنها تقتلها. ضمّته إليها وقالت له إنها اشتاقت إليه اليوم. حين حاول لاحقًا أن يستدرجها لمساعدته، قالت إنه شاطر كفاية ولا يحتاجها. وعندما حان وقت نومه، لم يرضَ أن ينام قال إنه لم ينته بعد.

غفت بينما تقرأ، أيقظها صوت المفتاح في قفل الباب. كان مارون يحمل معه أكياس بقالة وفاكهة. في العادة لا يبادر إلى شراء شيء إن لم توكله به. عاد إلى غرفة الجلوس. جلس قربها، سألها عن الدورة، قالت

إنها مفيدة. أخبرها ما أطعمهما في الفطور والغداء، شكرته. كلاهما تظاهرا بنسيان ما جرى ليلة أمس. أخبرها بعدها إن ابنة أخته ستتزوج. حكى عن زوجها باستفاضة، عن عائلته اللبنانية الأصل، عن أعجاب والديه به، أبدت اهتمامًا مزيَّفًا، تعلم أنه لن ينطلي عليه كما لن تنطلي عليها لطافته. لم تسأله متى كان حديثه مع أهله، إذ جرت العادة أن يشركها في ذلك.

سألها ألا تريد أن تنام، أجابت إنها ستفعل عندما تنتهي من الفصل الذي تقرأه.

خلال الأيام التالية كانت تغادر صباحًا كأنها ذاهبة حقًا إلى تلك المدرسة. تضع في حقيبتها كنزة وكتابًا. في الطريق تشتري ما تأكله. مناقيش زعتر وكشك وتشتري فاكهة من أكشاك عند جوانب الطرقات الجبلية. لا تذكر متى كانت آخر مرّة أكلت فيه هذا الكم من النشويات. تضيع في طرقات لم تعرفها، تجلس عند شاطئ البحر أحيانًا، وتلتقط صورًا لغرباء يطلبون منها أخذ صورة لهم والبحر خلفهم. لم تكن تفكّر لا بالتلاميذ ولا كيف ستبرّر كذبها على مارون. كانت تمحوه من رأسها ما إن تبدأ بقيادة سيارتها مبتعدة عن بيروت. تضع هاتفها خارج الخدمة، ترفع صوت الموسيقى وتنطلق كأنها امرأة مختلفة. حتى حين يتسلّل القلق إليها تطرده، وتنشغل بالتفكير بيومها.

خلال الأيام الخمسة، رأت لأول مرة أشياء كثيرة كقطف الزيتون وسقاية الجلول، وقطف البندورة. كانت توقف سيارتها ببساطة وتتفرّج بفضول على عالم كانت تجهل وجوده. عالم لا عجلة فيه. كثيرًا ما تلقت دعوة من أولئك القاطفين لمشاركتهم غداءهم. كانت تشكرهم وتمضي. في كل يوم يطلع كانت تخترع لنفسها حياة مختلفة. في جبيل تخيّلت لها مهنة جديدة، كبيع التذكارات في السوق القديم، اختارت حتى البيت الذي تسكنه. والحديقة التي ستزرعها هي التي لم تر إلّا من فترة قصيرة

كيف تكون شتول البندورة، وأشجار الخرمة. لن ترسل وليم إلى أي مدرسة ستعلّمه المواد التي يحتاجها، ولن يخاف علامة راسبة، ولن يحرجه عجزه في قراءة نص تمرّن على تهجئة كلماته عشرات المرات.

لماذا لا تبيع معقودات وصابونًا ومونة من صنعها كما تفعل أولئك النسوة في أكشاك عند مداخل البلدات. لماذا تريد راتبًا كالذي تتقاضاه؟ ستستغني عن الثياب وعن الهاتف ومصروف السيارة وأجرة المولد وكلفة الكابل. تعلم أنها تخيلات لا تصادفها إلّا في كتب تقرأها، وأحلام ابتدعتها لتنسى.

لذا حين عادت الجمعة كانت تشبه محكومة بالاعدام. وتلك الأيام الخمسة كانت وجبتها الأخيرة.

الفصل الرابع

أزهار الكرز

الهواء صفق باب غرفة الجلوس بقوّة، العتمة خفيفة في الخارج. خرجت إلى الشرفة لتشعر بنداوة النسمات. رأت عدنان يقطع الشارع. أحيانًا يحدس وجودها ويرفع بصره إلى الطبقة الثالثة ويومئ لها مبتسمًا، يفعل ذلك كأنهما لم يلتقيا منذ دهر. لكنه اليوم يحمل الكثير من الأكياس، لذا كان يمشي بسرعة. فتحت له الباب قبل أن يتوقّف المصعد. خلفها صونيا نادت: «بابا، بابا». كأنه عائد من سفر. تمسّكت بساقَيه، ترك الأكياس في المدخل ورفعها رغم ثقلها. حين بدّل ملابسه، سأل عن لينا قالت إنها تحضّر بحثًا مع مجموعة من رفاقها. استفسر عن موضوع البحث، وعن أسماء رفاقها، وعن البيت الذي اجتمعوا فيه.

حين لا تمتلك ندى أجوبة يزعل ويقول إن على لينا أن تعلِمْهما. ندى معتادة على حرص زوجها على معرفة تفاصيل حياة ابنتيهما. عندما تقول إنهما ربما يبالغان في مراقبة لينا خاصة وأنها مراهقة، يجيب عدنان لأنها مراهقة يجب مراقبتها من بعيد. قول يُضحِك ندى ويدفعها للتساؤل «من بعيد؟ نكاد نخنقها حبيبي»، ثم تضيف «أنت أعلم. أنت الاختصاصي لا أنا».

القصص التي يسمعها خلال عمله تجعله حذرًا وكثير الهواجس. عندما ينصحها أن تفصل ما تسمعه من الأولاد النازحين عن حياتها الخاصة، تسأله وهل هو قادر على تطبيق ذلك على نفسه. هي تحزن كثيرًا حين يتحكّم به هاجس ما. ويجعله فريسة أسوأ الكوابيس.

حضّرا العشاء بانتظار اتصال لينا. وعندما لم تفعل، اتصل بها وقال إنه آت لاصطحابها. كانت ندى تنظر إلى صونيا مستغرقة في حوارات مضحكة بينها وبين دميتيها. تعلم الكثير مما يجري في رأسها من استماعها إلى تلك الأحاديث المتخيّلة. منها علمت خوفها من معلمة في الحضانة، وخشيتها من الأماكن المغلقة والمعتمة. لكن أكثر ما أدهشها هو رعبها من اسم أليكس. ظلّت تتحرّى عما إذا كان هناك رفيق في صفّها أو في مدرستها يحمل هذا الاسم، لكن ما كان هناك أيّ أليكس. سنين وهي تهدّد دماها بأليكس، ولم تكتشف ندى إلّا صدفة أن أليكس هو شخصية شريرة في واحدة من القصص التي لا تذكر حتى متى قرأتها لها. وقعت على الكتاب صدفة بينما تجمع كتبًا للتبرّع بها.

قالت ندى إنها ستذهب لإحضار لينا لكنه أصرّ على أن يفعل هو، بحجة عدم اضطراره مثلها إلى تبديل ملابسه، فهو لا يهتمّ إن خرج مرتديًا بيجامة الرياضة، ردّت إنه لا يهتمّ لكن لينا تهتمّ. قال ممازحًا إنها في هذه الحالة عليها أن تبحث عن أب غيره. ركضت صونيا خلفه تريد ان تذهب معه. سألتها ندى لدفعها للبقاء «أتتركينني وحدي؟». ردّت صونيا «لا. معك تاله وبانه». قاصدة دميتيَها. قالت ندى «لكنهما تريدان النوم». «رودي الدبدوب سيبقى معك». استسلمت لعلمها أنّ لدى صونيا مخيّلة لا تجفّ من الحجج. لا ينفع أن تقول إن وقت نومها اقترب.

عندما أنجبت لينا، بقيت سنوات تجرّب أن تحبل ثانية. لم ترِد لابنتها أن تنشأ وحيدة. رغم تأكيد الطبيب أن ليس هناك موانع للحمل، لم تحبل إلّا بعد أن يئست وصرفت النظر عن الموضوع. في حملها الثاني كان كل شيء مختلفًا، لم تعانِ لا من تقيؤ ولا من غثيان ولم تتورّم قدماها ولم يتبدّل مزاجها مئة مرة في اليوم. ولم تشتك لا من ألم ظهرها ولا من ثقل حركتها. كان عدنان هو القلِق، كان يردّد إن صونيا ليست محظوظة ستحظى بأب عجوز، أب على عتبة الثالثة والأربعين. ما كان يهمّ ما

تقوله ندى للتخفيف عنه. عندما تستعيد تلك الفترة ترى وجهه وعلامات الأسى محفورة في نظرته.

مع أنه يكبرها بعشر سنوات لكنه ما كان يبالي، أو هكذا خُيّل لندى دائمًا. كان والدها هو الوحيد الذي عارض زواجها متحجّجًا بفارق العمر. عندما ردّت أن زوجة أبيها تصغره باثنتي عشرة سنة، أجابها إنها زوجتي لا ابنتي.

كان لدى والدها لائحة من الموانع أوّلها العمر ثم المهنة ثم الدين ثم تواضع امكانياته. حتى الشكل كان له ملاحظات عليه. كان كثيرًا ما يسأل بلهجة ساخرة «ألم تلاحظي أنك أطول منه». لكنّ موانعه زادتها تشبثًا بعلاقتها بعدنان. وحين سافرا إلى قبرص من أجل إتمام زواجهما المدني زاد سخط والدها عليها، ولم تنفع السنوات في تقريبهما مجددًا. أخواها اتخذا الموقف نفسه. تذكر كم أبكاها أن يعاملاها بهذا الجفاء وأن ينسيا كم أحبتهما. في سرّها برّرت لهما وقالت إنهما لا يزالان مراهقَيْن، لاحقًا سيتبدّلان. لكن السنوات زادتهم بعدًا عن بعضهم. وحين يلتقون في مناسبات قليلة، يتبادلون مجاملات كالغرباء. زوجة أبيها كانت الوحيدة في العائلة التي حاولت تخفيف الحدّة بينهم. حتى الآن تتّصل بها خلسة وفي غياب والدها. علاقتها ليست مقطوعة بعائلتها لكنها تقتصر على زيارات قليلة، أو على دعوات توجّهها لهم في مناسبات تتعلّق بعيد ميلاد لينا وصونيا. تزورهم في الأعياد لكن هذه الزيارات تدمي قلبها لأنها تحسّ أنها لا تعرفهم. شعور كان يخالجها في أعماقها منذ كانت صغيرة.

كانت في الثالثة والنصف من عمرها عندما استقرّوا في السعودية، لا أحد أخبرها كيف كانت في تلك الفترة وهي متروكة لرعاية عاملة فيليبنية. ما تذكره هو أحلامها التي كانت تسمع فيها أمها وتشمّ رائحة شعرها. أحلام رافقتها لسنوات. بكاؤها أيضًا تذكره، كان يطول حتى يعلو صراخ والدها لإسكاتها. لاحقًا ستسمع من والدها أن أمها تخلّت

عنها. ستصدّق الحكاية وستحسّ دائمًا أن لا أحد يحبّها. بعد أن تزوّج والدها. لقيت في رقة زوجة أبيها ملاذًا. صار لها أم كما كل رفاقها في المدرسة. عندما ولد أخوها ادوار وانشغلت أمه به، عاد إليها احساسها أنها بلا أم وأن لا أحد يريدها. اهتمامها وحبها لأخيها لم يخفّف تلك المشاعر. في قلبها كانت تعلم أنها لن تتمكّن من منافسة هذا الحبّ الكبير الذي يرتسم في عيون والدها وزوجته. كانت محبوبة ككلب العائلة ربما لا أكثر. حتى شكلها الذي يختلف عنهم باتت تكرهه. كانت تشبه أولئك الغرباء الأجانب في مدرستها الفرنسية في الدمّام. بينما تكبر كانت تحني ظهرها لإخفاء طول قامتها، اعتادت أن ترتدي قمصانًا واسعة لا تبين منها معالم جسدها الذي كان ينمو رغمًا عنها. في المرآة كانت ترى وجه أمّ تخلّت عنها. لا شيء فيها يشبه والدها، لا شعرها لا لون عينيها لا قامتها. كانت طوال سنين دراستها الابتدائية، فتاة غريبة بالنسبة لمعلميها الذين كثيرًا ما اشتكوا لأهلها صعوبة تأقلمها مع رفاقها، ورفضها الكلام حين توضع في مجموعة سواء في الصف أو في الرياضة.

في الصف الأوّل المتوسّط صار لديها صديقة اسمها هيلين، لن تعلم حينها أن ما دفعها لاختيارها هو أنها بلجيكية. ستسمع منها دون أن تضجر عن بيتهم في بروكسيل وعن أجدادها وأبناء عمومتها. وستتخيّل أنها حياتها التي أبعدت عنها. صارت تستدرج هيلين إلى وصف شكل جدَّيها كأنها ترى حقًا شخصين تعرفهما يمرّان مرور الأطياف في أحلامها وكوابيسها الليلية. حين عادت هيلين نهائيًا إلى بلجيكا، غرقت ندى في وحدتها من جديد.

ولم ينفع أن تعِدها زوجة أبيها لا برحلة إلى لبنان ولا باصطحابها إلى المولات ولا بأي لعبة كانت تحلم بها آنذاك. في لبنان كانوا ينزلون عند جدَّيْها لأبيها، وكانت جدتها كلما التقتها تقول، كأنها تكتشف عيبًا جديدًا في ندى، إنها تتحوّل إلى نسخة عن أمها. تقولها بأسف، وتحسّ ندى

أنها لا تعرف كيف تصلح هذا الخطأ. النزول عند أهل زوجة أبيها لم يكن أفضل. كانوا ينصرفون إلى تدليل أخويها ولا أحد يعيرها أي أهتمام، يحكون عنها بحضورها بصيغة الغائب «في أي صف صارت؟ هل هي شاطرة؟ أم لا؟» تأكيد زوجة أبيها على شطارتها كان يخيّبهم. يشيحون عنها وينتقلون إلى موضوع آخر يهمّهم أكثر منها.

وحدها عمتها كانت تبدي فرحًا حين تراها، تأتي على ذكر والدة ندى بمودّة. صداقتها بابنة عمتها راغده كانت سببًا أضافيًا لتحنو عليها عمّتها كأنها يتيمة الأبوين. لم يكن لراغده صديقة غيرها. في غياب ندى كان الطعام وسيلة راغده الوحيدة لملء فراغ طفولتها. بعد أن عادت للمشي تحوّلت راغده كليًا، فقدت وزنها الزائد وودّعت سنوات الوحدة. منذ ذلك الحين وهما صديقتان، حتى لو مضت شهور دون أن تتواصلا، كانتا تشعران برابط بينهما لا يؤثّر فيه شيء. قد تراها في فترات بشكل شبه يومي وفي فترات أخرى تختفي راغده كليًا.

عندما عادوا نهائيًا من السعودية وسكنوا في بيت اشتراه والدها في منطقة السوديكو، كان الدمار لا يزال واضحًا حولهم، بنايات مشلّعة الشبابيك ومخترقة بالقذائف والرصاص. كان سيرها إلى المدرسة يشعرها بغرابة، كأنها تسير في كابوس. تستوقفها الشعارات المكتوبة على الجدران، والصور التي محت الأمطار وتَعاقب السنوات وجوه أصحابها وأسماءهم. هي التي لم تعش حقًا الحرب، كان المرور بتلك البنايات يفزعها كأن أشباح المتحاربين وأرواحهم لا تزال تتجوّل بين تلك الخرائب. تمنّت لو أنها كرفاقها تقصد مدرستها بالسيارة أو بالأوتوكار.

في مدرستها الجديدة، وجدت أنها محطّ فضول رفاقها. كان تحفّظها لا يمنعهم من محاولة التقرّب منها، ولأوّل مرة في حياتها صار لديها صديقات. استطاعت برفقتهنّ أن تقوم بأشياء لم تفعلها أبدًا. كانت أشياء بسيطة لكنها أشعرتها أنها محاطة بالحب. كان الضحك يغلبهن

في مشاويرهن إلى أي مكان يذهبن إليه. إلى السينما أو الأكل في محل سندويشات كما اعتدن الذهاب إلى المركز الثقافي الفرنسي لمشاهدة أفلام أو التعرّف على تلاميذ مثلهم يتسكعون هناك. وصارت ترى نفسها بأعين صديقاتها مختلفة، ما عادت تدفن نفسها ولو أنها بقيت قليلة الكلام. حين أخبرت ميرا عن أمها البلجيكية، أحسّت بشيء غريب، كأنها سهوًا سقطت في الخطأ. لم تعتد أن تنكشف.

في البداية كان والدها يستجوبها كلما أرادت أن تخرج برفقتهن. أصرّ أن يتعرّف عليهن، وأن يسأل غير آبه بمقدار تحرّجها عن أهلهم وسكنهم. حجته الدائمة «هنا الوضع مختلف عن السعودية.». وحين تردّ إنّها في السعودية كانت لا تعرف أحدًا ولا تخرج مع أحد. كان يضحك ويردّد إن الجميع هنا يعرفه وعليها أن تنتبه لتصرفاتها. كانت في أعماقها تعلم أنه يرى فيها أمها كلما نظر إليها. تلك الأم التي لم تعرف شكلها إلّا حين أرتها راغده، خفية عن عمّتها، صورًا لها. الصور التقطت لأهلها أثناء الزيارة الوحيدة التي قاما بها إلى لبنان. هل هي قبل أو بعد الزواج لم تعلم. كان النظر إليها تجربة غريبة بالنسبة إليها. كأنها تنظر إلى نفسها. الفارق الوحيد بينهما أن شعر أمها أشقر يقرب إلى البياض، إضافة للنمش الذي يعلو وجنتيها. في صورة كان والداها جالسين إلى طاولة طعام مع الكثير من الأقارب. أمها تنظر إلى والدها. في الثانية يقفان وحدهما خلفهما يبين خليج جونيه، شعر أمها متطاير. من ثيابهما حزرت أن الصورة مأخوذة شتاء. هذه أمها إذًا، لا تشبه تلك التي كانت تراها في أحلامها. مع الوقت صار وجهها يتبدّل حتى اختفت ملامحه كلّها. من طفولتها البعيدة تذكر وقوعها مرة، لا تعلم لا أين ولا كيف، صور قليلة فقط. الدماء تغطي عينيها، تعرف أن رأسها هو الذي أصيب. رائحة المطهّرات والكحول، أمها كانت من يحملها، تذكر أن كنزتها كانت زرقاء.

المخيّلة مخادعة كما يقول عدنان. كيف تتأكّد من أن ما تراه حصل

بالفعل. والدها لم يحك ولو سهوًا أي أمر يتعلّق بحياتهم في بلجيكا. كانت تفكّر أن أمها لا بدّ فعلت أشياء جعلته يمحو تلك الفترة من حياته. لكن لماذا تُحرم هي من ذكرياتها ومن طفولتها الأولى. لماذا هذا الكتمان؟

كم لزمها؟ أربعة وعشرون عامًا أو أكثر لتعلم الحقيقة؟ بأي شيء أفادتها تلك المعرفة. فقط زادت من مرارتها.

لم ترد لينا أن تأكل بحجة أنها أكلت أشياء كثيرة مع رفاقها. رغم علمهما أنها تكذب، لم يصرّا عليها وتركاها تختلي بغرفتها. منذ دخلت في المراهقة قلّ طعامها وزاد هوسها بوزنها. تتأكّد منه يوميًا. يعلمان أن دردشتها مع رفاقها ستستمرّ حتى نومها. يحاولان أن يكون اشرافهما عليها خفيًا، لا يتسلّلان لرؤية حساباتها على الأنترنت ولا يسعيان لقراءة أو لسماع الرسائل التي تصلها. بالمقابل حدّدا لها قوانين لا يتساهلان فيها.

كانت صونيا بينما تأكل عجة البيض وتشرب الحليب لا تتوقّف عن الثرثرة. تنتقل من قصة إلى أخرى. حكاياتها عن وليد ونسرين وربى، رفاق صفها لا تنتهي. عندما تحاول ندى أو عدنان أن يتحدّثا عن شيء آخر، تقاطع انشغالهما عنها بتكرار مناداتهما.

لم يجلسا أخيرًا إلّا قرابة العاشرة، أعدّا معًا طعام الغد، كما تساعدا في غسل الخضار والفاكهة وتوضيبها، إضافة إلى طي الثياب المغسولة. منذ أول زواجهما، فاجأها عدنان رغم عدم إلمامه بأشغال البيت بإصراره على مشاركتها. كانت تضحك من فشله في فرم الخضار أو في كي الثياب وفي خلط الثياب الملونة والبيضاء في الغسّالة. عطّل مكنسة السجاد وخلّاط الخضار. كسر الكثير من الأطباق والأكواب أثناء جليها. وكم أفسد من طبخات. أحيانًا كانت تزعل ويقابل غضبها منه بالضحك. هي أيضًا ما كانت ملمة لا بالطبخ ولا بالتنظيف، لكنّها على الأقل كانت لديها

معرفة أولية بهذه الأمور. عندما أنجبت لينا كان ينهض معها ليلًا ويبدّل الحفاضات ويعدّ قناني الحليب وحين تسأله ندى ان ينام لا يرضى. ما كان يأبه بوجود أمه، التي لا تتوقّف عن التعليق باستنكار على ما تراه بالقول «هذه أعمال نساء يا ابني، ماذا يقول الناس إن رأوك؟». وكان يجيبها ممازحًا «سيقولون إن زوجته تتحكّم به وتعنّفه». وتستمرّ طوال زيارتها باستعادة القصص نفسها. كيف ترمّلت في عزّ شبابها، وكيف أدارت دكان زوجها حتى في الحرب وعلّمت عدنان وأخاه في أحسن المدارس، تقول: «هذا عدنان صار دكتور يطبّب المجانين». عبارة كانت تضحكهم ويصحّح لها عدنان ويقول أولًا ليس دكتورًا ولا يعالج أي مجنون. معه ماجستير في علم النفس العيادي. هذه الايضاحات لا تنفع معها، تظلّ تطلب منه كلما رأته دواء لتنام. اعتاد أن يشتري لها مكملّات غذائية مدّعيًا أنها ستفيدها. أرادت أن ترعى لينا عندما عادت ندى إلى وظيفتها لكن عدنان لم يرض. ساءها رفضه وسألته مم تشكو تربيتها له ولأخيه الكبير؟ لكن زعلها ما كان يطول.

عندما وقعت وكسرت قدمها، حصل لها أمر غريب. مكوثها الاضطراري في الفراش جعلها تتوه وكأنها نسيت أنها أم لرجلَيْن بالغين، صار حديثها كله عن أخوة مات معظمهم وعن طبخ أمها وطيب نفَسها. عن والدها وعن رحلة الحج التي ادّخر لها طوال عشرين عامًا. كانت تحكي عن الهدايا التي حملها لهم من الحج، وتطلب من عدنان أن يبحث في خزانتها عن السبحة الموضّبة تحت الشراشف. أرادت أن تريهم جمال حبّاتها. وأن تجعلهم يشمّون رائحة الكولونيا. اشترى قنينة لكل من بناته الثلاث.

ماتت قبل أن يفكّ الجفصين عن قدمها. أصابتها سكتة قلبية في نومها. بكتها ندى كأنها تبكي كل ما فقدته طوال حياتها.

عدنان تبدّل أيضًا كأنّ تعب العمر حلّ عليه فجأة. فقدَ مرحه وزاد

صمته. توقّف عن أعمال تطوّعية كثيرة كان يقوم بها. اكتفى بعيادته وبدوام نصفي كمستشار نفساني في واحدة من المدارس. بداية كان العمل في العيادة يشغل القليل من وقته، لكن مع مرور السنوات صار عمله مزدهرًا. الأهل يأتون بأولادهم لا لاستشارته فقط في مسائل تتطلّب متابعة بل حين يعجزون أيضًا عن إيجاد طرق مناسبة لإخبارهم بالطلاق أو بموت قريب أو بالسفر إلى بلد آخر. كان يقول لندى مشتكيًا إن الأهل ما عاد لهم الصبر لتربية أبنائهم، ولا يفهم لماذا ينجبونهم. يظنّون أنه سيحوّل أبناءهم إلى ملائكة مطواعين لا يسبّبون لهم وجع الرأس. لا يعلمون أنهم السبب في اضطرابهم. لم يكن عمله مقتصرًا على الأولاد، لكن سمعته في المدارس التي عمل فيها جعلت معظم من يتابعهم أولادًا لم يتجاوزوا سن المراهقة. من حين لآخر يأتي إليه شبان لا يعلم إن كان قرب مكتبه من الجامعة هو السبب.

تعرّف على ندى عندما أتت برفقة صديقة لها في الجامعة. وفي الزيارة الأولى كانت ندى من أجابت عن أسئلته، فصديقتها ميراي كانت كمن لا يسمع أي شيء مما حوله. حين تحكي لا تخرج من فمها إلّا كلمات مرّة. ما عادت تأكل ولا تدرس. رسبت في كل امتحاناتها الفصلية. لم تهتمّ حتى أن يعلم أهلها. طوال حياتها كانت طالبة متفوّقة. لكنها فجأة وجدت أن كل ما تفعله مجرّد عبث. حتى النهوض من الفراش تمتنع عنه أحيانًا وتغيب عن صفوفها. قال عدنان بعد زيارتين أنها تحتاج طبيبًا نفسانيًا، هو لن ينفعها. أعطاها عنوان طبيب يثق به. استمرّت ندى بالذهاب إلى عيادته، بداية بحجة سؤاله عن كيفية التعامل مع ميراي، ولاحقًا صارا يتواعدان كأنهما يعرفان بعضهما منذ وقت طويل. مرض ميراي أثّر بها كثيرًا. الأدوية التي وصفت لها حوّلتها إلى شخص خامل، زاد وزنها أكثر من عشرين كيلو. كانت حين تزورها لا تجد الصديقة التي عرفتها. الصمت بينهما كانت تقطعه ندى بأخبار عن الجامعة وعن قصص

تختلقها لملء الفراغ الثقيل، ولم يكن في نظرة ميراي إلّا غياب تام، كأنها في مكان لن تصل إليه ندى مهما حاولت.

تطوّع عدنان في مراكز لإيواء العجزة أو أخرى لمعالجة المدمنين. عمل مع النازحين وكان هو من دفع ندى إلى العمل مع جمعية في الشمال. كانت تصطحب معها لينا لتشارك في مخيمات الترفيه. ظنّت أنها قد تضجر سريعًا، فمن في عمرها تشغله مسائل أخرى. لكنها في العطل إن لم تنصرف إلى دروسها كانت ترافقها بطيب خاطر. استطاعت أن تحمّس بعض رفاقها. اصطحبت مرّة صديقة تطوّعت لملاعبة الصغار وتعليمهم الغناء. حملت غيتارها وطوال الطريق كانت تدندن ألحان الأغاني متسائلة عن التي قد يحبّونها. كان قلقها مضحكًا كأنها ستؤدّي عزفًا محترفًا أمام جمهور صعب. لكن وسام هو أكثر من أفرح الأولاد بعروضه السحرية. كانوا سعداء حين علّمهم على بعض الحيل. لينا كانت ترسم برفقة من لم يتجاوزوا السادسة. أما ندى فلم تكن لها مهمة واحدة. قد تنظّم معارض لرسوم وقصص الأولاد، أو تقرأ القصص أو تساعد في حملات لجمع ألعاب أو ثياب. عدنان كان يساعدها بدفع المدارس التي يعمل فيها إلى المشاركة بالحملات وكذلك فعلت ساره في المدرسة التي تعمل فيها.

في البداية عانت ندى وما كانت قادرة ان تنتزع من مخيّلتها لا صور الأولاد ولا قصصهم. باتت تخجل من الطعام الذي تهدره، ومن الثياب الكثيرة التي تملأ الخزائن، من دفء سرير تأوي إليه. من أحزانها من طفولتها. أي ألم قاسته لا يمكن أن تقارنه بما سمعته ورأته في عيونهم. وكان عدنان من ساعدها، قال إن أرادت أن تستمرّ في هذه الأعمال فعليها أن ترسم مسافة تحميها وتقوّيها. توافقه رغم علمها أنه ينصحها دائمًا بما يعجز عنه. لا تزال تذكر السنة التي تطوّع فيها ليعمل مع عجائز المأوى. كان لا يلمس أي طعام يراهم يأكلونه، ولا يحتمل مشاهدة برنامج سبق

ورآهم يتفرّجون عليه. ما عاد بإمكانها استخدام لا الديتول ولا الكلور. كان يتوقّف فجأة عن الأكل وتحزر ليلى ان شيئًا من صورهم مرّ بباله. طفولته رغم بؤسها يرويها وهو يضحك. لينا في طفولتها الأولى كانت تطالبه بهذه القصص، كأن يروي لها كيف أصلحت أمه حذاءه عندما اكتشفت صباحًا أن ليس بامكانه انتعاله إلى المدرسة. كانت رغم فشلها في الخياطة تصلح مزق ثيابهم بأسوأ طريقة. كانا يعترضان لأن المزق أقلّ ظهورًا من رتيها لها. منذ وفاة زوجها بالغت في حماية ابنَيها. مرّة وقفت أمام معلم ضخم تهدّده بأن تكسر يديه إن حاول أن يشدّ عدنان من أذنه مرّة ثانية. وفي مرة أخرى قالت للمدير إنه إن أخرجهما ثانية من الصف لتأخّرها في دفع القسط ستسحبه من مكتبه أمام كل التلاميذ. كان عدنان يسألها «علام تستندين في تهديداتك، نحن عائلة لا ظهر لها، أما هم فتسندهم الميليشيات والزعران». لكن ذلك لم يردعها. بقيت تتصرّف كأنها امرأة لا تُقهر. قبل وفاة زوجها ما كانت تعرف شيئًا من أمور الدكان. لكنها تعلّمت بسرعة. وواجهت عائلة زوجها عندما حاولوا حرمانها من ولديها. كانت تعلم أن عينهم على الدكان فليس بين أسلافها من يرغب بتربية ولدين إضافيين خاصة أن عائلاتهم كبيرة العدد. ما ساعدها أنهم بعيدون يعيشون في قرى عزلتها الحرب عن بيروت.

في اليوم التالي اضطرتها الأمطار لأن تذهب إلى المدرسة بالسيارة، في العادة يمشين ثلاثتهن رغم ثقل الحقائب. المدرسة لا تبعد عن البيت أكثر من ربع ساعة سيرًا، لكن في السيارة لزمها أكثر من نصف ساعة. كانت لينا متوترة لأنها تأخرّت على تمرين كرة السلة الصباحي. قالت إن المدرّب سيمنعها من اللعب. لم تتبرّع ندى لمكالمته كي يعفيها من العقاب. تتصرّف دائمًا كأنها ليست معهما في المدرسة نفسها. لا ترى أيًا من المعلمين إلّا في الاجتماعات. وحين يبادر أحدهم إلى الشكوى من سلوك لينا تردّ بصراحة إنها لا تحبّ التدخّل. تكره حين يدّعون

أنهم لم يعاقبوها إكرامًا لها. في السنتين الأخيرتين تغيّرت شخصية لينا وتحولّت إلى صدامية، تعاكس رأي معلميها وتتمرّد على بعض قوانينهم. لا تفهم مثلًا رفضهم لمراجعة العلامات التي يضعونها كأنها مقدّسة، أو التصحيحات التي يجرونها. وحين تستفسر عن معنى الملاحظات المكتوبة في الهامش يتّهمونها بقلة الأدب والتطاول على صلاحياتهم. لكن أكثر ما يزعج ندى هو اعتقاد الناظرة أنها تفعل الصواب عندما تخبرها إنّ لينا تقضي كل الفرص برفقة تلميذ في الصف النهائي، وتدعوها لمراقبتها عن كثب. بداية ما كانت تعلّق على كلامها، لكنّ عدنان نصحها بوضع حدّ لها. ما كان بالأمر السهل خاصة أن ندى امرأة لطيفة. الآن تبدّل طريقها حين تلمح الناظرة من بعيد أو تدّعي الانشغال متى جاءت إلى المكتبة. وهو أمر صحيح نسبيًا، قلّما تجد وقت فراغ لتجلس بهدوء وتقرأ كما تحبّ أن تفعل.

عدنان رغم تفهّمه واجه صعوبة في تقبّل أن تبتعد لينا عنه. ما كانت نظرة الحزن في عينيه لتخفى عن ندى. في صغرها كانت لينا تقول دائمًا إنّها تحبّ والدها أكثر. أو تقول بابا أحلى، بابا أقوى. أو تطالب بأبيها كي يساعدها في فروضها أو ليقرأ لها أو يحكي قصصًا أو يجلس قربها حين تأوي إلى الفراش. حتى حين تمرض كان وحده القادر على اقناعها بتناول الأدوية المرّة الطعم. كانت تقول «الماما لا تعرف». الآن صارت ندى هي الشخص الذي تلجأ إليه لينا. تترافقان في معظم المشاوير، تستمع إلى ابنتها تحكي عن صديقها كريم دون توقّف، لا تحاول أن تسخّف لا غرامها الطفولي به ولا أحلامها الوردية بخصوص علاقتهما. بم يفيد أن تفسد عليها تخيّلاتها أو أن تثقل عليها بحسابات معقدة. الشيء الوحيد الذي تخشاه، هو أن تتعرّض لينا للأذى النفسي، لكن من ينجو من ذلك تفكّر.

في الفترة الأخيرة كانت تقلق وتنزعج كلما تذكّرت ما حصل بينها

وبين والدها. تشغل نفسها بأعمال غير مستعجلة كتوثيق كتب اشترتها حديثًا، أو بإعادة ترتيب المجلات وفق نظام جديد. تجول بين الصفوف لتعلّق فيها لوائح بأسماء من تأخّروا عن ردّ الكتب المستعارة. تتولّى مهام زميلتها فتجلّد الكتب أو تقوم بجردة لميزانية المكتبة. تنظّم مسابقات لتشجيع المطالعة. حين تفتح كتابًا أو مجلّة تعجز عن التركيز. الحركة سبيلها الوحيد لمحو تلاطم الأفكار في رأسها.

عندما تحكي مع عدنان تتعقّل وتهون المسائل وتصغر. لكن ما إن تكون وحدها حتى تكبر مجددًا. تمنّت لو أنها تخلّفت عن حضور هذا الاحتفال العائلي السخيف. لو أنها حدست الهدف منه. كان دافعها ليس الاحتفال بعيد مولد والدها، بل رغبتها في أن تقضي مع عائلتها يومًا بعيدًا عن حرّ بيروت في بيت كفرذبيان. بيت أحبّته منذ اشتراه والدها قبل أن يستقروا نهائيًا في لبنان. ليس مجيء أخويها هو ما حمّسها فمنذ زمن ما عادت تحسّ أنها تعرفهما. عدنان ظنّ أنه يخفّف عنها حين قال، إنه من غير العادل أن تطالبهما بالبقاء على حالهما وألّا تقبل التغيير. هي أيضًا قد تكون في أعينهم غريبة عن صورة الأخت الكبرى التي عرفاها في طفولتهما. زاد من بعدها عنهم التعالي الذي يتعاملون به جميعهم مع عدنان. والبرودة العاطفية تجاه ابنتَيها. يلزمها وقت طويل كي تكفّ عن تذكّر ما جرى. وتظلّ تعذّب نفسها وتلومها على عدم التعلّم من تجاربها. كأنها تهوى إعادة الخطأ نفسه. في كل مرّة تلقاهم تأمل أن يكونوا مختلفين. عدنان امتنع عن مرافقتها في معظم الأحيان، فكّر أنها في غيابه قد تجد مكانها بينهم. مهما فعل كان في قلبها نقص عاطفي كبئر بلا قرار لا يستطيع مهما حاول أن يعوّضه. كانت أشدّ يتمًا منه. عندما يعودون من زيارة أهلها تظلّ حتى ساعة متأخّرة عاجزة عن النوم. لا تتوقّف عن سرد ما فعله كلّ منهم. وعندما يقول عدنان تخفيفًا عنها إنّه لم يلحظ ذلك، تغضب منه وتتّهمه بالتساهل معهم بدل أن يعاملهم بالمثل. حتى حين

يفهم أن عليه تركها تنفّس عن ألمها، يجد صعوبة في الاستماع إليها فقط دون نصحها، هي ليست مريضته بل المرأة التي يحبّها. ألمها يشعره دائمًا بالعجز. بدل أن تهون الأشياء مع الوقت كانت تتعقّد أكثر. بعد أن تزوّج ادوار وأنجب صارت ترى لهفة والدها على حفيده وتقارنها باهتمامه الزائف بلينا وصونيا. تكرّر دون كلل «من بإمكانه ألا يعشق صونيا حين يراها؟ ولينا أرقّ وألطف صبية في الكون؟».

بكاء ندى كان يحرق قلبه. وجد في نفسه القوة ليتحايل عليها أحيانًا ويقنعها بعدم زيارتهم خاصة إن كان أخواها موجودَيْن. يقول لها إن مشكلتها هي توقّعاتها. تردّ ساخرة «هل تَوقُّع أن يحبّني أبي أمر غريب؟».

لكنّ زيارتهم الأخيرة دفعتها لأن تقطع كل صلة بهم. لا تريد بعد الآن أن تسمع حتى صوتهم عبر الهاتف. لا تريد نفاقهم. الموضوع لا علاقة له لا بالميراث ولا بالأموال. لذلك جنّت عندما هدّأها عدنان بالقول إنّهم لا يحتاجونهم. ما أغضبها ليس أنه وزّع أملاكه بعقود بيع إلى أخويها، فليأخذا كل شيء. بل قوله بفخر كأنّه يقوم بتضحية كبيرة من أجلها، أنه سيترك لها سيارة الدودج القديمة. نظر إلى عينيها مباشرة كأنه ينتظر أن تبوس يده وتشكره على كرمه. لم تفكّر بردّها تركت الكلمات تطلع كالشرر من قلبها «أخي إدوار أحقّ مني بهذه السيارة، يحبّها منذ صغره، تعرف لست هاوية سيارات». لا تذكر كيف خرجوا ولا أنها لم تنتظر قالب الحلوى. في طريق العودة فشلت في أن تتمالك نفسها أمام ابنتَيْها، كان بكاؤها الصامت لا يخفى عليهما. لينا سكتت بدورها. أما صونيا فظلّت في مقعدها الخلفي تنحني فوق أمها لتسألها بقلق «ماما لماذا تبكين؟».

كان عدنان من يجيب محاولًا إلهاء صونيا بوضعه شريطًا لأغاني الأطفال. ارتفع صوته بالغناء معها، فيما لينا تركت هاتفها وراحت تتأمّل القرى. الشمس في غروبها بدت كأنها معلّقة فوق قمّة الجبال. تحزر لينا ما يؤلم أمها دون أن تسأل، هي أيضًا لا تشعر بأي رغبة في زيارة

بيت جدّها، يسألونها عن مدرستها وعلاماتها دون أن يسمعوا أجوبتها، أو يقول جدها ما إن يراها «لم ترثي صفات أمك». تعلم أنه يقصد قصر قامتها مقارنة بأمها. مرات كانت تنفّس عن غضبها وتسأل «ما قصته مع الطول؟ لماذا يجرحني دائمًا؟». ندى تعانقها وتراضيها قائلة إنها تمنّت طوال عمرها أن تكون بمثل قامة لينا، وبمثل تناسق جسمها. لذا ما عادت تصرّ على لينا أن تذهب معها وصارت صونيا مرافقتها الوحيدة. صونيا ما كانت تبالي بما يقولون ولا تنتبه للسموم التي تبثّها كلماتهم. كانت تختار ركنًا وتنشغل بدُماها. كانت قادرة على اختراع عالم فيه عشرات الأشخاص، تؤلّف لكل منهم حياة. كانت تشبه الأولاد الذين يربون وحيدين. في المدرسة عندما تسألهم معلمة الفرنسية أن يروي كل منهم ما فعله في العطلة الأسبوعية، كانت صونيا تحكي عن أشخاص وهميين وعن رحلات عجائبية ومغامرات. ما يدفع الأولاد إلى الغيرة من حياتها والاستفسار عن الأشياء التي ترويها. تحتارالمعلّمة بماذا تجيب، وكيف تقول إنه عالم خيالي دون أن تؤذي صونيا. أن يكون والدها أخصائيًا في مجال علم النفس كان يدفع معلّميها إلى التعامل بحذر في البداية مع لينا ومن بعدها مع صونيا.

«أنت ابنتي الوحيدة»، هي أكثر عبارة تكرهها ندى، ترى فيها كل الزيف. ماذا يعني بابنتي الوحيدة؟ الفتاة التي كذب عليها طوال حياتها، وجعلها تظنّ أن أمها تخلّت عنها. الفتاة التي نسي أمرها تمامًا عندما صار له ابنان. ما كانت أفعالها تهمّه إلّا بمقدار ما ستؤثّر عليه وعلى سمعته. تزعل من نفسها لأنها عاشت في كنفه كالنعجة، المرة الوحيدة التي تمرّدت فيها عليه هي عندما أحبّت عدنان. كان يسألها بماذا سيجيب الأقارب والمعارف حين يسألونه من تزوّجت؟ وكان يختصر شخصية عدنان بجملة لئيمة فوقية: «رجل عجوز، مسلم، فقير، قصير ولا يملك لا بيتًا ولا سيّارة وفوق ذلك ليس فيه أي شيء جميل». وهي ردّت عليه

أنها لا تعلم كيف تحمّلت طوال حياتها العيش مع أب «أناني لا يفكّر إلّا بنفسه، يدَّعي أفكارًا ومبادئ ويتصرّف بخلافها». ألم تسمعه طوال عمرها يتبجّح بكرهه للطائفية؟ معددًا أصدقاءه المسلمين المقرّبين.

هكذا تتسمّم حياتهم بعد كل لقاء يجمع ندى بأهلها. يحاول عدنان أن يصون لسانه ويدعها تقول ما تشاء، حتى لو عنى ذلك أن يُحرم من النوم، إذ يضمّها إليه وحين تجفّ دموعها، يصغّر المسألة قائلًا أن ليس عليها أن تفرض على أحد لا كيف يحبّ ولا كيف يفكّر، إما تقبلهم رغم اختلافهم وإما تبتعد نهائيًا عنهم. حزنها يدفعها غالبًا إلى الردّ عليه بتهكّم، لكنّه لا يزعل. في علاقته معها ينسى ما درس وما قرأ وما درّب نفسه على فعله. يريد في كل مرة أن يشفي نفسها في اللحظة ذاتها، لكنه يفشل. مرور الوقت وحده كفيل بإعادتها إليهم. يذكر عدنان كيف شجّعها أن تبحث عن أمّها. لم تكن مسألة صعبة. في أقلّ من شهر عرفت عنوانها ورقم هاتفها وعنوان عملها. حتى إنها قرأت على الأنترنت بعضًا من التحقيقات التي أجرتها في دول كرواندا وجنوب أفريقيا وأفغانستان.

عندما وافقت أن يجرّب عدنان رقم الهاتف، أمسكت بها رجفة قوية، كانت تقول الشيء وعكسه، مرة توافق على أن يطلب الرقم، وفي اللحظة التالية ترفض. لم يجب أحد. ترك عدنان رسالة على المجيب الآلي. بكت ندى بعد أن أقفل السماعة، قالت إنها أكيد لن تردّ. ولماذا تفعل. ألم تهجرها وهي طفلة؟ لكن أمّها اتصلت بعد أقل من ساعة. حكت مع عدنان أولًا، ثم حين ناولها السماعة لم يسمعها تقول شيئًا. كانت خرساء تمامًا تستمع إلى صوت امرأة غريبة يرنّ في أذنيها ولا تحسّ أنها تعرفها. فجأة لم يعد مهمًّا أن تعلم أنّ أمها لم تتركها. كل الحكاية فقدت بنظرها أي أهمية. كأنها كانت تتوقّع أن يعيد لها الصوت حياة مدفونة في أعماقها وذكريات لتصنع لنفسها بيتًا تأوي إليه وأمًّا محبّة، تقلق عليها إن تعثرت أو مرضت. قالت لعدنان عندما وضعت السماعة من يدّها: لم أعرفها.

لاحقًا حين بادر أخوها بالتبني إلى كتابة ايميلات لها، تأثّرت عندما أخبرها ما كانت أمه تقوله عنها. تحدّث عن صورها التي تملأ البيت، بالطبع كلها قبل بلوغها الرابعة من عمرها.

كانت تؤجّل لقاءها بأمها، وحين جاءت لقضاء عيد الميلاد عندهم ولينا طفلة في نحو الثالثة، فوجئت بامرأة لا تشبه تلك التي رأتها في الصور، ثيابها الرجالية وصوتها الذي اخشوشن من كثرة التدخين وبنيتها العريضة، تعارضت كليًا مع الأم التي سكنت خيالها. وجدت امرأة غريبة تحكي عن أسفارها وتناقش في أمور سياسية، ارتبكت ندى ولم ينفع أن تردّد في سرّها إنها أمها. كانت تفضّل لو أنها لم تأت، كأنها فقدت أمها مرتين. وتحوّل والدها هو الآخر إلى شخص غريب. لم يبعدها حبًّا بها بل رغبة في ايذاء أمها. لم يخفَ على أمها احساس ندى. عندما ودّعتها قالت لها «أعلم أنني أمرأة غريبة عنك، لكنك بالنسبة إليّ ستبقين ابنتي». تركت لها ألبومات من صور طفولتها الأولى. وحين قلّبت صفحاتها بكت لأنها لا تذكر شيئًا مما فيها، لا جدَّيها ولا وجوه الناس ولا أمها ولا البيت ولا كل تلك الأماكن. تتالت بعدها دعوات أمها لهم، ولم يلبوها. وهي أيضًا لم تأت مرة أخرى. في أعياد الميلاد ورأس السنة يتبادلون التهاني ولا شيء أكثر. ندى أبقت على الأمر سرًا تحتفظ به لنفسها.

يعرف عدنان أنّ ندى لا تنسى بسهولة، كل ما تعيشه بما في ذلك اللقاءات العابرة يترك فيها أثرًا. حين تختلف في العمل مع زميل يصيبها الأرق ليلًا. تظلّ تقول لعدنان إن زميلها لم يحجز مسبقًا وأن المكتبة كانت ملآنة بالتلاميذ حينها. لولا ذلك لما رفضت استقبال صفّه. عندما تذهب إلى الشمال تعود بقصص عن أولئك الأولاد. أعتادوا في البيت أن تحضر أسماءهم. أي شيء يذكّرها بهم. كانوا جزءًا من حياتهم، واعتادت لينا أن تسأل عنهم، مع أنها لم ترافق والدتها إلى تلك المخيمات إلّا مرات قليلة. لكن ندى تصير أحيانًا كأنها مسكونة بوجه أحدهم، كذلك

الولد الذي امتنع عن الكلام بعد أن فقد أبويه. كان جده العجوز من هرب به إلى لبنان. وحين رأته صامتًا بين الأولاد، ينظر إليها بعينيه السوداوين، شعرت بشيء مختلف تجاهه. استمرّت تحكي عن إمكانية تبنّيه، وتتساءل عن مصيره إن مات جدّه. كانت تقتنع عندما يناقشها عدنان بالموضوع، يقول إن عليها ألا تنتظر أن تمتلئ عينا الصبي امتنانًا إن عانقته وأحاطته بالاهتمام، عاطفتها لن تحرّره، ولا شفقتها. مشوار شفائه معقّد، الصورة التي رسمتها في خيالها عن تربيته لا تمتّ إلى الواقع بصلة. حين لا تجده بين الأولاد، تعود حزينة، تملؤها الوساوس بخصوصه.

لم تكن ندى بالنسبة لعدنان تلك المرأة الضعيفة التي تحتاج حمايته. كان يراها على عكس ذلك شجاعة، وقفت وهي في مطلع العشرين لا بوجه والدها فقط بل بوجه كل ما درج المجتمع على تقبّله. هي التي نشأت مرفّهة، عاشت معه في بداية زواجهما في بيت أمه وسط حي شعبي. تحمّلت ورضيت ما تفرضه أمه عليها من تقاليدها. كان متوجسًا من أن يزول سحر الحبّ وترى الواقع الذي عليها أن تواجهه. حين انتقلا إلى بيتهما واستنفذ الايجار كل مدخول عدنان، علّمت في مدرستين ولم تشتك يومًا لا من تعب ولا من عيش لا قدرة لهما فيه على أي نوع من الترفيه. حتى الثياب كان شراؤها ترَفًا لم يقدرا عليه إلّا بعد أن تعاقد عدنان مع مدرستين. قابلت كل حرمان بلامبالاة أدهشته. ألبست لينا ثياب أبنة أخيه. كانت تقوم بحسابات للتوفير بالطعام والنقليات، والكهرباء. تخترع احتفالات بسيطة تبعد رتابة العمل الشاق عن حياتهم. كانا يضعان لينا في عربتها ويتمشّيان في الأسواق، عندما خطت خطواتها الأولى صارت تركض متعثّرة لتلاحق اليمام. مشاوير إلى سوق البسطة، حيث كان يحلو لندى التفرّج على قطع الأثاث القديمة. وعندما يرى عدنان أنها تطيل الوقوف أمام إطار أو كرسي قديم، يعِدها بشرائه لاحقًا. تردّ إن حبّ الأشياء الجميلة شيء وامتلاكها شيء آخر. إن وضعتها في

البيت، تقول، ستفقد جمالها ومع الوقت ستصير غير مرئية. حتى بعد أن تحسّنت ألأحوال لا تزال تكره اقتناء الأشياء. في البيت أثاث قليل، عندما تلاحظ أن غرضًا ما يفيض عن حاجتهم أو قليل الاستخدام تتبرّع به. هكذا على مدار سنوات رفضت الشيز موريس والمرايا العالية والخزائن القديمة والسجاد الأصفهاني وتماثيل البرونز التي قام والدها بتوزيعها على أولاده بعد إفراغ بيت جديها. الشيء الوحيد الذي رضيت الاحتفاظ به هو إطار قديم من الخشب المحفور والمطعّم بالعاج. اختيارها فاجأ والدها ظنًّا أنها تريد صورة جديها. كان والدها عندما ترفض، يغضب ويحاول إقناعها بذكر ما تساويه هذه الأشياء. كان صعبًا عليه أن يفهمها، أو يقبل قراراتها. كان يقول عنها «وجه فقر.»

مع بدء معرض الكتاب، كانت تغيب عن المدرسة معظم أيام النهار لاختيار الكتب ولشرائها. في أيّام أخرى ترافق التلاميذ الذين يشاركون في محاورة مؤلّفي الكتب. تجلس ساكتة تستمع إلى أسئلتهم الطفولية، إلى فهمهم المغلوط لبعض مجريات القصص، لا تحاول أن تملي عليهم مسبقًا لا تحليلاتها ولا أفكارها، تفضّل سماع أخطائهم. لا تريد أن يكونوا كغيرهم. أولئك الذين يردّدون تعابير ومصطلحات لا يفهمون مدلولها. ما سرّ عجلة الكبار في تحويل الصغار إلى نسخ عنهم؟ أمر يحيّرها دائمًا.

عندما لمحت ساره وسط تلاميذها نادتها، لكنها لم تلتفت حتى نكزتها واحدة من تلاميذها. انشغالهما بالحديث دفع التلاميذ إلى أخذ راحتهم، ابتعدوا عن الكتب وتجمّعوا لشراء السندويشات والمشروبات. كانت ساره ساهية عنهم حتى حين علا ضحكهم وزادت فوضاهم. انتبهت ندى على الفور إلى بطء حركة سارة كأنّها تسير فوق سطح القمر. حين سألتها عن مارون والأولاد رفعت يدها كأنها تكشح ذكرهم بعيدًا. سألتها عن الكتب التي رأتها تحملها، قالت إنها لوليم ولم تختر بعد شيئًا لها، ربما تأتي وحدها في مرّة أخرى. كانت عينا ندى تطيلان النظر إلى وجه

ساره، كانت بشرتها جافة، تتموّج بتجعّدات تعلوها قشرة بيضاء، شفتاها ابيضّتا كما لو أنها عانت مرضًا طويلًا. كان هناك شيء فيها مختلف، لم تسألها لا عن البيت ولا عن العمل ولا عن أي شيء. وحين سألتها إن كانت بخير؟ لم تجب.

حين أخبرت لاحقًا عدنان عن لقائها بساره. أجابها أن الانسان يمرّ بحالات من الهبوط المعنوي وسألها أليست هي حالها وحاله؟ ثمّ حكى عن مقدار ما تعانيه ساره بسبب وليم. لم يخبرها عن الحديث الذي دار بينهما قبل أسبوع. إخفاؤه الأمر عنها أزعجه. هو ليس معالجًا لساره كي يحتفظ بمحادثتهما سرًا. لكن عمله الطويل جعله شخصًا كتومًا يقلّب الكلمات في رأسه ألف مرة قبل أن يتفوّه بها. ليست المرّة الأولى التي يخفي فيها عن ندى أشياء تتعلّق بمحيطهم وبمعارفهم.

عندما لمحت لينا من بعيد علمت ندى أنها ليست على طبيعتها. رمت حقيبتها على المقعد الخلفي، أغلقت باب السيارة بعنف. لم تقل شيئًا. عيناها محمرّتان كمن بكى اليوم بطوله، وحين بدأت صونيا بمونولوجها الطويل عن رفاقها، أجهشت لينا بالبكاء. كان قلب ندى يخبط صدرها كأنه سيشقّه. توقّفت صونيا عن الكلام ووضعت يدها الصغيرة فوق شعر لينا وسألتها إن أنّبتها المعلمة، فزاد عويلها. ما كانت ندى تحتاج لاستدراجها لفهم سرّ ألمها. أمِلت أن يكون الخلاف عابرًا كما حصل عندما اكتشفت مراسلاته الهاتفية مع فتاة في الشعبة الثانية، أو حين خرج ليسهر برفقة أصحابه في نادٍ ليلي. اكتفت بتهدئتها والقول لها، إن الخلافات تحصل، لكن لينا استمرّت بالقول إن كل شيء انتهى وما حصل ليس مجرّد خلاف. عندما ركنت السيارة أخيرًا بقيت لينا جالسة تبكي فيما صونيا بدت قربها مرتعبة. تارة تربّت على يد أختها وتارة أخرى تراضيها بكلماتها الطفولية. لا تستطيع ندى أن تقول لابنتها إن ألمها عابر وإن حبّها سيزول. حملت الحقيبة بدلًا منها وأحاطتها بذارعها كأنها مريضة.

لم تدفعها للكلام تركتها على هواها وعندما رفضت أن تغادر غرفتها مستمرّة بالبكاء، لم تلحّ. بعثت لعدنان برسالة تخبره فيها. لو أنّ بإمكانها أن تقول للينا أن صورة هذا الشخص ستُمحى من قلبها ولاحقًا بينما تكبر ستجهد حتى ترى ملامح وجهه.

لا هي تحبّ كريم ولا عدنان يحبه، يجدانه غبيًا ومفسودًا، لكنهما احتفظا برأيهما وتركا لينا تعيش تجاربها. رغم ذلك ما كانت ندى قادرة على صون لسانها. كانت أسئلتها لابنتها تكشف رأيها بحبيبها، كأن تقول كيف يُسمح له بالقيادة دون إجازة سوق، او تمازحها داعية إياها إلى التأثير عليه. استطاعت لينا أن تجرّ العديد من رفاقها إلى العمل في ناد مدرسي يُعنى بجمع التبرعات أو الثياب أو الألعاب. ومعظمهم رافقوها على الأقل مرة إلى مخيمات الشمال. إلّا كريم، لا يهتمّ إلّا بالذهاب إلى النادي لنفخ عضلاته. كانت لينا تجد أعذارًا له كالقول إنه في الصف النهائي امتحاناته كثيرة، أو إنه لم يدخل النادي الليلي إلّا مصحوبًا بأخيه الجامعي. ولا يقود السيارة إلّا داخل بيروت. عدنان يقول إن لينا مفتونة به تمامًا للأسباب التي تجعلهما ينفران منه.

كثيرًا ما نصح ندى بألّا تتدخّل لكنها كانت تلحظ ألمه في كل مرة يأتي فيها كريم إلى بيتهم. أمام ندى كان ينتقد طريقة جلوسه على الكنبة كأنه مستلق، وينتقد الراحة التي يتصرّف بها. يضحك ويحكي بأعلى صوت. وحين رآه يحيط كتفي لينا بذراعه، عجز عن تمالك نفسه ونادى لينا على الفور. ما قاله لها حينها وتّر علاقتهما أسابيع.

كانت ندى تدخل إلى غرفة لينا بحجج مختلفة كأن تدعوها للأكل أو تسألها مشاهدة برنامج معها، لكن لينا بقيت على حالها مستلقية على السرير دافنة رأسها بالوسادة. حتى عندما دعاها عدنان للجلوس معهم ومناقشة الأمر بهدوء، أجابت أن لا شيء سيغيّر ما حصل، وحين أقنعها بالجلوس على الأقل معهم إلى طاولة الطعام، غسلت وجهها وبقيت

صامتة ونظراتها تائهة. وبعد حين بدأت تأكل شوربة السلق والعدس. فرح عدنان في سرّه وأضحكه ألّا تكون قادرة على مقاومة أكلة تحبّها. كانت صونيا تسترق النظر إلى أختها بينما تحكي عن شعر ربى الطويل، تسأل لماذا شعرها هي قصير؟

لم يلحّ على ابنته أن تخبرهما ما حصل، يعلم أنها ستفعل وحدها. وما إن نامت صونيا حتى جلست قرب ندى وقالت بصوت مرتعش إنّ صديقتها لبنى أخبرتها أنها رأت كريم برفقة فتاة. وعندما واجهته لينا، لم ينكر، لكن ما أفقدها أعصابها هو أنه لم يحاول لا مراضاتها ولا شيء. بل راح يحكي كيف أنه في مطلق الأحوال سيسافر في آخر العام إلى أميركا. وعندما قالت إنه لم يقل لها ذلك أبدًا. أجاب أنها تعلم أنه يحمل الجنسية الأميريكية ومن الطبيعي أن يدرس هناك. لم يكن الأمر سرًّا.

كانت تسأل كيف يمكن أن يتبدّل الواحد بين يوم وآخر. قبل يوم كان يخطّط معها لحضور مباراة فريقها مع مدرسة الجمهور. كان سعيدًا بالذهاب لتشجيعها.

كانا يغالبان النعاس فيما كلام لينا مستمرّ، تارة تبكي وتارّة تغضب. على التلفزيون فيلم كانت تحبّ ندى لو تتابعه. شاهدته أكثر من مرّة مع عدنان. تنظر إلى أنطوني هوبكنز يقود تلك السيارة القديمة وسط الريف الانكليزي. حين غفت أخيرًا، قادا لينا إلى غرفتها. كلّ يسندها من جهة.

ما إن دخلا للنوم حتى بدأت حبّات المطر تطرق زجاج النوافذ. كان لتساقطها فعل المهدئ. غفت ندى على وقعها، أرادت أن تُصدّق ما قاله عدنان عندما قَلَّل من أهمية ما حدث للينا.

لم تنسَ لينا بسهولة، صار كل حديثها مع رفاقها عن كريم،من رآه، وبرفقة مَنْ كان، هل يبدو سعيدًا؟ هل سأل عنها. هل الفتاة التي يخرج برفقتها أجمل منها؟ أشياء ضجرت ندى من سماعها. كما ضجرت من تكرار تطميناتها وأقوالها عن الحياة والتجارب والعلاقات البشرية

المعقدة. في سرّها كانت تسخر من نفسها. تجد أن الموضوع تافه ولا يستحقّ أن تهدر كل هذا الوقت بسببه. تتمنّى فقط لو تتجاوز لينا هذه التجربة بأقل أذى ممكن. هي تعلم أنها لا تستطيع أن تحميهما من كل شيء. كيف تحميهما من المرض، من الحزن، من حوادث السير، من الزلازل، من الأشرار، ومن الخيبات؟

حاولت أن تقوم بمشاوير برفقتها للتسوّق أو للسير، أوكلتها بمتابعة دروس صونيا. وبمهام في البيت لإبقائها منشغلة. كانت تقوم بها لينا بلا أي تذمر. عوّدتهما منذ صغرهما على تحمّل بعض المسؤوليات، لينا ترتب غرفتها وتنظفّها وصونيا رغم صغر سنها تعلّمت أن تعيد ألعابها إلى داخل الصندوق المخصَّص لها وأن تطوي ثيابها وترتّب سريرها، حتى لو كان على ندى أن تعاود خلسة التوضيب وتسوية شرشف السرير من بعدها.

عندما اتصلت زوجة محمد، استيقظا بصعوبة إذ كانا في أول نومهما. وقفت ندى قرب عدنان وهو يمسك السمّاعة. كلمات قليلة فهمت منها أن أخاه أصابه شيء. حين وضع السمّاعة كان تائهًا. أمسكت يده وسألت: «ماذا حصل؟». نطق فقط باسم أخيه.

في المستشفى كان ابناه في غرفة الانتظار. وائل في بيجامة النوم، جالس عند حافة المقعد ومالك يقف مستندًا إلى الجدار، وحين اقتربت ندى من مالك البكر لتسأله، أجابها كمن ينتشل كلماته من أعماقه بصعوبة، إن الطبيب يقول إنها ذبحة لكنها متوسّطة القوة. قال إنهم لم يسمحوا لأحد برؤيته وهو في العناية المركّزة. حين سألته عن أمه قال إنها تقف في الممر قريبًا من غرفة العناية، علّ أحدًا يسمح لها برؤيته. كان عدنان ينتقل بين الطوابق ينتظر الطبيب وحين يعجز عن إيجاده كان يسأل رئيسة الممرضين. ثم يعاود طرح الأسئلة نفسها بعد أقل من نصف ساعة.

أقنعت ندى رويدا زوجة محمد بالجلوس مع ابنَيْها، ففي كل الأحوال لن يسمحوا لها بالزيارة قبل استقرار حالته. كانت رويدا تسأل دون أن تنتظر لا تطمينًا ولا جوابًا، غاضبة من الحياة ومن سوء الحظ. تقول لم يكن لا مدخّنًا ولا سمينًا ويأخذ أدوية الضغط والكوليسترول في ميعادها، لا أحد في عائلته لديه مشاكل قلب. لا تردّ ندى، ولا تقول لها إن والده لم يعش حتى يعلم أمراضه الموروثة. أما الأعمام فالله وحده يعلم أسباب وفاتهم. خواطرها زادت من فزعها على عدنان. اهتمامه بصحته ينحصر بقياس ضغطه في الصيدلية والامتناع عن الأطعمة الدسمة.

اغفاءات قصيرة سرقتهم في جلوسهم عدنان ورويدا بقيا متربّصين بالأطباء والممرضين، يسألانهم في دخولهم وخروجهم من العناية.

لم يستطع عدنان أن يحكي مع طبيب أخيه إلّا قرابة الصباح. عندما رأته متوجّهًا نحوهم، علمت من وجهه أنّ محمد تجاوز مرحلة الخطر الشديد. لا يهمّ أن يبقوه وقتًا إضافيًا في العناية.

عادت إلى البيت قبل الخامسة صباحًا، كانت حركة السيارات خفيفة. رغم ذلك كانت تقود بتركيز كبير، كأنّ رأسها تجوّف وتضخّم خلال الليل، كيف يمكن أن يتبدّل العالم في لحظة. ماذا يحلّ بها لو أصاب عدنان ما أصاب أخاه؟

وساوس لم تهدأ حتى بعد تعافي محمد وعودته إلى بيته. ظلّت تشغلها حتى قطع لها عدنان وعدًا بإجراء فحوصات عند طبيب قلب.

في الأسابيع التي تلت خروج محمد تبدّل روتينهم اليومي. ما عاد عدنان يعود إلى البيت مباشرة بل كان يذهب إلى بيت أخيه. محمد غير المعتاد على أي نشاط رياضي، وجد صعوبة في التقيّد بتعليمات الطبيب والسير ساعة يوميًا. كان عدنان من يرافقه بداية لنصف ساعة ولاحقًا، صارت عادة السير شيئًا ينتظرانه وتمضي الساعة دون أن يشعرا. استأنفا خلال ذلك علاقة قطعتها ظروف الزواج والعمل والانجاب. كان عدنان

يخبر ندى عن شعوره وهو برفقة محمد، كأنهما لم يكبرا. يضحكان مسخّفين أي مشكلة يحكيان عنها. لا يزال محمد كما عهده يتظاهر باللامبالاة حيال مشاكل تؤرقه. كأنه اتخذ لنفسه شخصية معينة منذ وفاة والدهما. كونه البكر لم يسهّل عليه حياته. بعد مرضه سألها عدنان إن كانت تمانع المساهمة في قسط مالك. انخراط عدنان بحياة أخيه جعله يهتمّ بأمور بيت أخيه ولو عنى ذلك غيابه عن بيته وزيادة المسؤوليات على عاتق ندى.

ما كانت تمانع أن تتولّى أمور البيت. حين لا تجد وقتًا لأدائها كانت تهمل الترتيب أو الطبخ وتطلب أطعمة جاهزة. لكنها كانت تشتاق لوجوده. وبعد أن مرّ شهر باتت تلحّ عليه بالعودة أحيانًا إلى البيت. كانت تتساءل في سرّها إن كان يُصلِح ما جعله طوال حياته مذنبًا.

حين أخبرها تلك القصة ادّعى أنه تجاوز تلك العقدة التي رافقته سنين.

كان في العاشرة، حين أيقظه والده عند الفجر للصلاة حاول أن يتملّص كمحمد، لكنه لم يستطع. كان يوم أحد. صحا الطقس بعد أمطار استمرّت لعشرة أيام. الدفء والشمس منحا الناس إحساسًا زائفًا بالأمان. لذا مع طلوع الشمس زادت حركة الناس، وتعالت أصوات مولدات الكهرباء. والده فتح الدكان. أوكله بأن يقصد مستودعًا يبيع قوارير الغاز. حين رفض مؤجّلًا الأمر. زعل والده. أغلق الباب الجرّار ومشى لاعنًا خلفة الأولاد متسائلًا لماذا ينجب الواحد أولادًا. كان هذا آخر ما سمعه من والده، لأنه بطريق عودته أصابته رصاصة لم يعلموا أهي قنص أم طائشة من جنازة في الحي التحتاني. كم قلّب في رأسه منذ ذلك الحين أحداث ذلك اليوم. لو لم يعصَ كلمة والده لما كانت الرصاصة لتجد طريقها إلى حياتهم. حتى لو تأخّر وسار في الدرب نفسه لما كانت الرصاصة لتصيبه كما فعلت برأس أبيه. كانت أمه تندب وتولول، بين نسوة أحطن

بها لتعزيتها، قائلة إنه ضاع من أجل قارورة غاز لم يحصل عليها. كان عدنان لم يبلغ بعد سنته العاشرة. صار المسؤول عن موت أبيه ولم يكن يذكر من أقوال والده سوى تلك اللعنات التي كان يغمغمها في دربه الأخير. لا أحد حمّله المسؤولية. لكنه هو استمرّ في تعذيب نفسه رافضًا كل ما كانت أمه تردّده من آيات عن القدر وإرادة الله. محمد أيضًا تبدّل وفقد مرحه مودّعًا طفولته. في المدرسة كان القوي الحامي لعدنان من أولاد يأتي بعضهم حاملًا سكاكين أو مسدسات. حتى بعد أن سجّلتهما والدتهما في مدرسة محترمة كما كانت تصفها كان هناك أولاد يعايرون عدنان بقصره أو يسخرون من نظاراته وضعف بنيته. رغم أنّه كان يخفي عن محمد عذاباته مع أولئك الأولاد، كان محمد يعرف، ويتربّص بهم لتهديدهم وإخافتهم. على عكسه كان محمد طويلًا كأخواله ولديه قوة بدنية هائلة. الوظيفة والقعود في المكاتب بدّدت تلك القوة ولم يبق منها أثر الآن. في سيرهما اليومي استعادا تلك الذكريات وكان محمد يضحك غير مصدّق تلك القصص وعجب عدنان من نسيانه التام لها. كان يكرّر بعد كل قصّة «هل أنت أكيد أنني أنا من فعل ذلك؟ ألا تخطئ بيني وبين واحد من رفاقك؟» هذه الخفة كانت تزول ما إن يحاول عدنان استدراج أخيه محمد للكلام عن حياته. ما كان معتادًا على مشاركة أحد. لزمه وقت ليفهم أن ما يعذّب أخاه هو عجزه في تسجيل مالك في الجامعة الخاصة التي يريدها، حتى لو تدبّر التكاليف، ماذا سيفعل عندما يحين دور وائل بعد سنتين؟ لم تكن رويدا تعمل، اعتماد العائلة كان على راتب محمد. كان موظفًا في دائرة الشؤون الاجتماعية، السبل مسدودة في وجهه لتحسين مالية العائلة. في أي مجال يمكن أن يعمل مختص بعلم الأجتماع؟ حتى دراسته لم يبق منها شيء في ذاكرته. لا يذكر أنه قرأ أي شيء غير الصحف منذ تخرّجه. كان يداوم دون أن يجد ما يشغله سوى شرب القهوة وقراءة الصحف أو حلّ الكلمات المتقاطعة. صحيح أن

عملهم زاد بعد النزوح، لكن فورة العمل ما لبثت أن هدأت واستعاد مع زملائه عاداتهم القديمة.

كان ذلك يبقي عدنان مشغولًا، يفكّر بمشاريع يقوم بها مع أخيه، لكنه لم يكن رجلًا ناجحًا في ما خصّ مسائل المال. وإن كان لديهم مبلغ مجمّد في المصرف فالأمر لا يتعلّق بتدبير ما من قِبَله أو من قِبَل ندى. كل ما الأمر أنه لم يبدّل عادات سلوكية نشأ عليها. التبذير يخجله، وكذلك امتلاك أشياء لا ضرورة ولا فائدة منها. صحيح أن لينا تنزعج من تلك القوانين المفروضة عليها، لكنها رضخت لها أخيرًا. لا إسراف في شراء الثياب والأحذية ولا تبديل للهاتف حتى لو حمل رفاقها أحدث الموديلات والماركات. كما إن مصروفًا محدّدًا يُعطى لها أسبوعيًا وعليها أن توفّر منه لشراء ما تحتاجه أو للخروج إلى السينما أو أي مشوار مع رفاقها.

حين عرض المساعدة رفض محمد بشكل قاطع، مبرّرًا إنّ ما قاله حديث عابر أثناء السير، إذ عندما تجد رويدا شاريًا لقطعة الأرض التي ورثتها عن أهلها في الدوير، ستنفرج الأحوال. تظاهر عدنان بتصديق مزاعمه، يعلم إنه سيجرحه إن لم يفعل. هذا عدا أنه لم يسأل ندى قبل أن يعرض مالًا على أخيه.

كانت الأمطار التي تتساقط في الأمسيات تقطع الروتين الذي درج عليه عدنان مؤخّرًا. وحين يعود باكرًا إلى البيت كانت ندى تحتفل كأنه كان غائبًا منذ زمن. شيئًا فشيئًا استرجع الجميع حياته السابقة، الشيء الوحيد الذي تبدّل هو تلك الرسائل الصوتية التي كان يتركها عدنان لأخيه. وذلك السير الذي كانا يقومان به من حين لآخر متى التقيا.

انشغلت ندى في حملة جمع كنزات وأغطية صوف للشتاء، وكانت لينا منخرطة بمساعدتها أكثر من أي وقت مضى. ما عاد ذكر كريم حاضرًا وما عادت تسمعها تحكي عنه في دردشاتها مع رفاقها.

عندما رأت على شاشة هاتفها أن والدها هو المتصل، لم تجب على الفور. وحين ردّت سألها قبل أن يلقي التحية «ما زلت زعلانة؟».

- علام أزعل؟ ردّت.

- أنسيت كيف قاطعت عيدي ولم تأكلي من الكاتو، وحرمت الأولاد من الاحتفال؟

- لا لم أنس.

- لا أدري لماذا استأتِ؟ بصراحة، أخواك قالا، إنهما مستعدان للتخلّي لك عن كل شيء.

- لا أريد شيئًا أبي. سبق وقلت لك.

- كل ما في الأمر أن لا البيت ولا الأرض في منطقة مناسبة لكم.

- ماذا تقصد بأنها غير مناسبة لنا؟ ومنذ متى صرنا فئة مميزة ومختلفة؟

- لا تكوني بهذه السماجة، فهمتِ قصدي، لن تسكني هناك لنكن واقعيين. المحيط لغير جماعتكم.

- صرنا الآن جماعة على حدة!

- ذكاؤك قد يضيع في لحظة. أنا والدك أم أنك نسيتِ؟ منذ فعلتك الأخيرة ونحن محتارون لماذا عاديتنا؟ ماذا فعلنا لك يا ابنتي؟ أردت أن أعطيك سيارة تعلمين كم أنا متعلّق بها، وأنت بم تجيبينني؟ أهذا جزائي؟ سأل بصوت حزين.

لم تكن ندى راغبة في إكمال هذا الحديث العقيم، استطاع كعادته أن يلقي اللوم عليها، صارت هي المخطئة، هي الابنة الضالة. الابنة التي لا تقدّر تضحيات والدها. وليس حرمانها من الميراث إلّا خدمة لها ولعائلتها.

منذ طفولتها كان ينتهي بها الأمر إلى الاعتذار عن أشياء لم تقم بها. إن بكى أحد أخويها كان أوّل سؤال تسمعه «ندى ماذا فعلت له؟». وإن أفسدا

غرضًا أو كسراه، كانت أوّل من يُتّهم. حتى حين يقرّان بمسؤوليتهما لا بد أن تُذكّر أنها الكبيرة وعليها رعايتهما.

ذلك ترك فيها أثرًا لم تنفع أحاديثها مع عدنان في إزالته. بقيت تشعر بمسؤولية تجاه ما يصيب كل من تحبّهم. هكذا انتهى بها الأمر إلى الاعتذار من والدها لأنها أفسدت عليه حفلته. لكنها بقيت على موقفها الرافض للسيارة. لماذا يظنّ أن بضعة آلاف من الدولارات تهمّها. كانت تزعل لأنّ عدم معرفته بها تعني شيئًا واحدًا بالنسبة إليها، أنه لا يحبّها. عندما تحكي عن أعمالها التطوعية، يضحك ضحكة ساخرة، سائلًا لماذا تضيّع وقتها على أولاد لا تعرفهم. وكانت زوجة أبيها تسألها «ألا تخافين من القمل، من الجراثيم والميكروبات؟». أو يسألها والدها كيف تصطحب ابنتها إلى أماكن كهذه، وماذا تعرف عن أولئك الأولاد؟ قد يكونون مجرمين مغتصبين، هم وأهلهم، ويحكي عما قرأه عن مشاركة الأولاد في القتل والحرب والجرائم الفظيعة داخل سوريا. عندما تردّ إنهم بالنسبة إليها مجرد أطفال حرمتهم الظروف من أبسط الحقوق. يردّ باستهزاء أكبر «بجدّ ندى لم أعهدك بهذه السذاجة». ينظر إليها عدنان حينها كأنه يحيطها بكل ما في قلبه من حبّ. يغمزها لتجنّب الانزلاق إلى هذه الجدالات. لكن غضبها يمنعها وتواصل النقاش حتى يتشتّت انتباه والدها بشيء يهمّه أكثر. كموعد الغداء أو اتصال من رفيق يلعب معه التنس. أو ليريها الفيديوات التي تظهر ابن إدوار يستحمّ أو يبدل حفاضه أو يرضع أو يبكي، أو يبتسم. أو يتفاخر بازدهار أعمال ادوار، وبالمشاريع الكبيرة التي يلتزمها. أخوها سيزار الذي لم يُنهِ تعليمه إلّا بعد رسوب متكرر سواء في المدرسة أو في الجامعة، يصير في قصص والدها ذاك العبقري الذي لا يخسر قضية. الشركات الكبرى تتقاتل عليه لتحصل على استشاراته.

أما هي فليست إلّا الابنة التي تزوّجت شخصًا يتجنّب التعريف به

باسمه، يقول «زوج ابنتي» أو «صهري» كأنّ اسمه وصمة عار. في كل مرة تغادر بيت أهلها، تحسّ أنها ستكون دائمًا الغريبة التي لا أب لها ولا أمّ. ليست أحدًا بالنسبة إليهم. كثيرًا ما تساءلت إن كان انغماسها في الأعمال التطوّعية سببه رغبتها في اصلاح شرخ في قلبها. لا يعجبها أن تفكّر بأن كلّ ما تقوم به من أجل أولئك الأولاد مجرّد فعل أناني. وحين يقول عدنان إن كل فعل خيري هو كذلك، تثور عليه حتى يضحك قائلًا إلّا أنت حبيبتي.

مؤخّرًا كان يتملّكها الحزن كلّما رأت تلك التجاعيد تزداد حول عيني وفم عدنان، وذاك الترهل في جلد عنقه، الكرش الذي برز رغم النحول. تشيح بنظرها بعيدًا عندما يكون عاريًا، لا تحتمل تلك الهشاشة، وذاك الضعف الذي يذكّرها بسهولة أن ينقصف العمر في لحظة. لا تستطيع أن تتخيّل حياتها من دونه، وعندما تثقل عليها مخاوفها، تطردها بالقول إنها ستقتل نفسها إن حصل له أي مكروه.

أرادت لوجهها أن يتجعّد أيضًا ولشعرها أن يشيب، ولأسنانها أن تصفرّ ولساقيها أن تظهر فيها تلك الدوالي الزرقاء والحمراء، وللحم عند ذراعيها أن يتدلّى. لكنها لا زالت على حالها. بضع شعرات بيضاء لا أكثر، ومروحة التجاعيد حول عينيها لا تبين إلّا متى أرقت ليلًا، أو زعلت.

ما حصل لمحمد، أفسد طمأنينة كانت تدفعها إلى الاعتقاد أن المرض والأخطار كلها بعيدة عنهم. عندما كانت تسمع حكايات النازحين، كانت تتعاطف معها بوصفها أشياء لا تحدث لهم، كأنها تعيش مع عائلتها في كون موازٍ. قد يكون السبب أن والدها لم يصَب بمرض وهو يتقدّم بالسن ولا زال قادرًا على السباحة وعلى ممارسة رياضة التنس يوميًا.

كانت ردّة فعلها غريبة بالنسبة لعدنان عندما كشفت الفحوصات ارتفاع مستوى السكر لديه. فشل في تهدئتها حتى حين قال إنه سيصحبها

معه إلى عيادة الطبيب لتسمع بنفسها ما يقوله. كأنّ ظلمًا هائلًا وقع عليهم ولم تسطع تقبّله. كان ردّها على تطميناته أنها قرأت ما يفعله السكري بالقلب والشرايين والكلى والعينين. الدواء يحميني ردّ. اعترض على ردود فعلها. قال إنها ستنعكس على ابنتيهما وستظنّان أن والدهما مشرف على الموت. خاصة أن ذلك يجري بعد وعكة عمهما. لكنه يعلم أنه جهد باطل، اختبر كيف تكون غير منطقية عندما يتعلّق الأمر بعائلتها. هكذا تحوّل كل ما يأكله إلى وجبات نباتية مكوّنة من الخضار والحبوب، ولسوء حظه رضي بأكل السمك المشوي هو الذي يكره رائحته منذ كان صغيرًا. تراقب كلّ ما يأكل، تحسب ما يأكله من خبز ونشويات وفاكهة. أصرّت على السير معه كل صباح لنصف ساعة. كانت تربط المنبّه عند الرابعة فجرًا ومهما كان الطقس، كانا يترافقان في طرق لم تنجلِ عتمتها بعد. لا يثنيها عن ذلك لا البرد ولا العواصف، ولا التعب الناتج عن قلة النوم.

سبق وعايش خوفها المَرَضي عندما عانت صونيا في صغرها من التهاب رئوي. لم يستطع لا ممرض ولا طبيب أن يبعدها أو يجبرها على الراحة في بيتها قليلًا. حتى مع عزل صونيا، بقيت صاحية لثلاثة أيام. إغفاءات قصيرة كانت تسرقها في جلوسها لا أكثر. يذكر كيف استمرّ بكاؤها ونشيجها عندما أكّد الطبيب أن الخطر زال. لم تستطع أن تقف، وحين ساعدها عدنان، مشت مقوّسة الظهر، كأنها تمشي بعد شلل طويل.

الآن ينتظر من الوقت أن يخفّف عنها كي ترضى بالواقع. يذكر المرّات التي قالت له فيها إن مهنته حوّلته إلى تمساح. كان ذلك يجرحه، لكنه يعلم أنه هو المخطئ. حين يراها حزينة أو تبكي لأنّ جارة عجوزًا ماتت أو أناسًا قضوا في المعارك أو في الفيضانات أو الزلازل، أو رأت ولدًا يشحذ متجوّلًا بين السيارات حافي القدمين، أو عاملًا يلبس قميصًا باليًا في عز البرد. لا يعلم كيف يعزّيها. تخرج منه عبارات تغيظها، حين

يقول إنها الحياة. أو إن عليها أن تكون واقعية. أو كيف تحزن على موت عجوز بينما هناك من يموتون بالملايين من المجاعة. تردّ إنّ ذلك لا يجعل الحياة عادلة ولا يعني أن عليها أن تقبل كل ما يحدث فيها.

تعلّم أن يسكت، أو حين يعلّق يختار كلمات تُظهِر شعوره دون مواربة، ألم يكن هو في الأخير من دفعها إلى الانخراط بأعمالها التطوعية. صحيح أنه لم يحكِ أمامها عما كان يعانيه وهو يستمع إلى عجائز يتهيّأ لهم أنه ابن قرّر أخيرًا زيارتهم بعد نسيانهم سنوات، أو شريك عمرهم الذي عاد للحياة. رغم إنه سمع مآسي لا تحصى واجهها صغار وشبان من كل الفئات الاجتماعية ومن كل الأعمار، العجائز وحدهم هم من يضعُف أمامهم متناسيًا أحيانًا أنه معالِج مطالب بشيء من الحيادية ومن القوة النفسية. أن يكون استشاريًا نفسيًا لا يعني بالضرورة أن يتجرّد من إنسانيته.

قلّلت ندى مشاويرها واستغنت عن المشاركة في توزيع الأغطية والكنزات. لم تجد في نفسها أي قوة تمنحها لأحد. أصابها هوَس اسمه السكري. تحمّل عدنان أسئلتها اليومية له. هل أكل شيئًا من السوق أم اكتفى بالزوّادة التي حضّرتها، هل يشعر بزوغان نظره أو بغثيان أو بدوار، كأنها حفظت غيبًا كل العوارض الجانبية للدواء. امتنعت عن شراء معظم الأشياء المحظورة على عدنان. عندما تعترض لينا على الخبز الأسمر أو الباستا السمراء، تجيبها أنها ستخسر وزنًا إن أكلت منها. الحجة السحرية التي تقنع لينا. كما كان قياس مستوى السكري صباحًا شيئًا فرضته عليه دون أي سهو. هي التي تخشى منظر الدم ما كانت تمانع من أن ترى الدم ينفر من اصبعه.

لكن ذلك لم يضع حدًا لقلقها. كان عدنان يتوقّف عن الحلاقة صباحًا ليسألها ما سرّ تحديقها به. رغم علمه بما يدور في رأسها يتصنّع الجهل. كان عاجزًا عن طمأنتها، وهي عاجزة عن أن تستعيد حياتهم السابقة. فكّر

أن الوقت سيجعلها ترى أن مرضه شيء يمكن السيطرة عليه. تحمّل مراقبتها له وأسئلتها الغريبة، كأن تستفسر عن سبب تشقّق شفتيه أو ابيضاض لونهما، وهل هذه البثرة الدهنية كانت دائمًا في رقبته؟ هل نام الليل كاملًا؟ كم مرة دخل إلى الحمام. كان يقابل ذلك بضحكة يضمّها قائلًا: «أنا أعلم شيئًا واحدًا فقط أنك حبيبتي المجنونة».

الشوارع امتلأت بالزينة. وكانت صونيا تسأل كل يوم متى سيزينّون شجرتهم. لا تقتنع أن الوقت لا يزال باكرًا على ذلك. كانت تسأل كيف يكون باكرًا وقد وضعوا في الصف شجرة، كما كتبت رسالتها إلى بابا نويل. أسئلة صونيا تذكّر ندى بغيابها مؤخرًا عن احتفالات كثيرة أقيمت في الجمعية.

حين اتصلت ميرا وشدّدت عليها لتمرّ بها مساء، ظنّت أن ميرا مستوحشة وتحتاج رفقة. حاولت تأجيل ذلك إلى يوم آخر، أجابت إنها مسألة مهمّة. استمرّت ندى طوال ساعات العمل تفكّر بأي شيء تريدها ميرا، هل ستحكي أخيرًا عن علاقتها بشاب رأتها برفقته السنة الماضية؟ أم ستشكو لها من رئيستها في العمل، أو من أخيها الذي حين جاء إلى لبنان، كان همّه الوحيد أخذ حصته من الميراث واقناعها ببيع البيت. لم يعرض عليها لا أن تسافر للعمل هناك كما كان يفعل، ولا اهتمّ بأن يحكي معها عن والدتها كما كانت تأمل. أرادت أكثر من أي شيء أن يشاركها ذكرياتها عنها. علّها تستعيد صورة لأمها تختلف عمّا صيّرها إليه المرض.

فاجأها أن تجد ساره هناك مرتدية بيجامة رياضة ومتلفّعة بروب. بدت لندى أنها مريضة. أخفت مفاجأتها وقالت ممازحة، لم أعلم أنني مدعوة إلى حفلة نوم.

ميرا تولّت الكلام وقالت إن ساره تبحث عن شقة صغيرة لها. كان كلامها سريعًا كأنها تريد الخلاص من حمله. ندى وعدت أن تسأل معارفها وزملاءها وعدنان. فهمت بالطبع أن ساره غادرت بيتها الزوجي.

استغربت ندى لأنها لم تلحظ أن بينهما مشاكل. ولو أنّ عدنان كان يكرّر كلما زارتهم ساره بالقول «مسكينة ساره كم تتعب». ظنّت أنه يقصد معاناتها في متابعة وليم. تساءلت إن كان يعلم وأخفى عنها الأمر. ماذا لو ظنّت ساره أن عدنان وضعها في جوّ ما يحدث. أي صديقة ستكون في نظر ساره؟

كانت تنظر إلى ساره صامتة تتأمّل من خلال باب الشرفة الليل يزحف بسواده. كأنهما تحكيان عن شخص غيرها. وفي المطبخ عندما رافقت ميرا لتساعدها في إحضار بعض النبيذ والبزورات، قالت ميرا هامسة فيما عيناها تراقبان الباب، إن ساره ستخسر حضانة ابنَيها وأن ذلك سيقتلها. أخبرتها عن مارون الذي جاء إلى بيتها، وتهجّم على ساره قائلًا إنها فقدت عقلها وإنه لن يترك ابنيه تربيهما أم مجنونة. كان يكرّر أهذا جزائي على تحمّلك. حين طلبت ميرا منه أن يهدأ اتّهمها أنها حشت رأسها بأفكار سخيفة. ثم حدّق في وجه ساره سائلًا «أهذه هي الحياة التي تريدينها؟ أن تعيشي على هواك مثلها؟». ثمّ ذكّرها بعمرها وكأن تجاوزها سن الأربعين هو ما خبل عقلها. كانت ميرا مجروحة من اهانتها وتصويرها كأنها سافلة، فقط لأنها لم تتزوّج. هي تساءلت بدورها كيف يسمح لنفسه بقول مثل هذه الأشياء لها. كانت دائمًا تعامله باحترام مع أنها لم تستلطفه يومًا. أخبرتها إن ساره عندها منذ أسبوعين. ترى ابنيها خلسة بعد انصرافهما من المدرسة. كما تحكي مع وليم دون علم مارون. تطلبه من غير هاتفها كي لا يعلم مارون بالأمر. ما يشقّ عليها هو وليم الذي يظلّ يسألها إن كانت لا تريد أن تكون أمه بعد الآن. أو إنها ما عادت تحبّه ويعدها ألّا يعذّبها وسينجح في امتحاناته إن هي عادت. كان ينتهي حديثهما دائمًا ببكائهما. وحين سألت ندى عن ردّ فعل جوزيف، أجابت إنه يرفض مكالمتها وحين يراها واقفة عند بوابة المدرسة يسارع للابتعاد عنها متظاهرًا بعدم رؤيتها.

كانت ندى تتحاشى طرح أسئلة مباشرة على ساره، شقّ عليها أن تراها هكذا. لم يسبق أن كانت بمثل هذه الحالة من الغياب والانطفاء. ولو أنها في الآونة الأخيرة كانت تبدو تعيسة، تبذل جهدًا للضحك أو للكلام، أو حتى لسماع ما يقال دون أن تتشتّت بعيدًا عنهم. حين حكت عن أهلها بكت رغمًا عنها. لم ترِد أن يعلموا بهذه الطريقة. لكن مارون انتقامًا منها، اتصل بهم وبالطبع جعلها مسؤولة عن تفكّك أسرتهم، حكى عن صبره الطويل في تحمّل مزاجيتها. ما زاد من ألمها طريقته في تفسير سلوكها. وفي جعلها مسؤولة عن صعوبات وليم مدَّعيًا أنها تهمِل جوزيف ولا تفهمه. تتصرّف كأنها أمرأة أميّة. اشتكى من أنه لم يعد يومًا من عمله إلّا وسمع نقّها وتذمّرها. لم تقدّر لا تضحياته ولا ركضه الدائم ليؤمّن مستوى لائقًا لهم. عندما حاولت أمها أن تهدّئه واعدة إيّاه بمكالمة ساره. أجابها «لا شكرًا خلّيها عندك نحن أفضل من دونها». أهلها سألوها إن كان مارون يضربها أو يبخل عليهم بالمال أو يشتمها أويهينها. عندما نفت سألوها بحيرة إذًا لماذا تخرب بيتها؟ وكيف واتتها الجرأة لتكسر قلب ابنَيها؟ والدها عاتبها وبقي يكرّر إنّه علّمها لتكون أفضل من ذلك، لا لكي يراها ترفس النعمة وتتصرّف بطيش. وتسيء إلى سمعتها. ظلّ يسألها إن كانت تريد من يتوسّط بينهما ليتصالحا، وحين رفضت قال: «كما تريدين يبدو أنه لم يعد لي لا كلمة ولا رأي».

كانت ساره دون انتباه تعيد الأحاديث نفسها. أحيانًا تزيد تفصيلًا نسيته أو تسأل للمرة العشرين أيمكن أن تحرمها المحكمة الشرعية من أولادها. وحين سألتها ندى إن كانت عازمة على تقديم دعوى طلاق، أجابت إنها أكيد ستفعل. لا تريد أي صلة تجمعها به ولو على الورق. رغم علم ندى بالكثير من الحالات المشابهة لم تُرِد أن تزيد من هموم صديقتها. في الأخير لم تقم بهذه الخطوة عشوائيًا.

كيف تكون صديقة مقرّبة من ساره دون أن تشعر بمعاناتها، ألهذا الحدّ

يغرق الواحد في نفسه؟ كان ذلك يخجِلها. تفكّر أنها ربما اختارت ما يريحها، اختارت أن تعمى على ما يبدو جليًا. الآن عندما تستعيد لقاءاتهم الأخيرة تنتبه إلى الاشارات التي فاتتها والتعليقات التي لم تقلها ساره صدفة.

عندما سكبت ميرا كأسًا ثانية لندى. لم تشرب منها. لم تقل إنها ستقود سيارتها بعد قليل. كانت ساره وميرا تتجرّعان كأسَيْهما بسرعة كأنهما تقومان بطقس ليلي اعتادتا عليه مؤخّرًا. كانت تنظر إلى المطر الذي بدأ ينهمر مصحوبًا بريح، وتفكّر أنها نسيت الغسيل منشورًا. تخيّلت عدنان جالسًا على الكنبة يترقّب عودتها. تفقّدت هاتفها فلم تجد إلّا رسالة من والدها. غضبت وتساءلت ماذايريد. ألم يكلمها منذ أيام؟ ستظلّ تتجاهل الردّ عليه، وتدّعي أنها ستهمله. لكنها في الأخير ستعاود الحكي معه. هكذا هي.

قادت السيّارة بحذر، غزارة الأمطار حجبت الطريق، حين وصلت كانت الساعة قد تعدّت العاشرة.

في الأيّام التالية كانت ندى تسأل عن شقة لساره بجدّية كأنّها مسألة لا تؤجّل. ليلى وجدت لها واحدة إيجارها مناسب. رأت ملصقًا في مدخل بناية، ولما استفسرت عن بدل الايجار فرحت لتناسبه مع ميزانية ساره. لم تعترض ساره على بُعد الشقة عن عملها، ولم تشتك من ضيقها. جالت في أرجائها برفقتهن. كانت ميرا تنظر إلى الحمام الذي اسودّ بورسلينه وإلى المغسلة المشقوقة والأرضية التي تعلوها طبقة من الكلس، وإلى الشقوق الظاهرة في جدران غرفة النوم، وتردّد متسائلة: «لماذا لا تسكنين معي؟». تؤكّد لها إنّها ستأخذ منها بدل ايجار، لكن ساره كانت تشكرها وتذكّرها أن وليم وجوزيف يحتاجان شقة مستقلة لهما. كان توهّمها يسكتهنَّ ويتبادلن النظر كي لا يقلن لها إن مارون قد لا يسمح لهما بالمبيت ولو لليلة عندها.

بدأت ساره تتخيّل حياتها داخل هذه الجدران القديمة. متحدّثة عن الأثاث الذي ستقتنيه. لكنّ أكثر ما أسعدها هو أنه سيكون لكل من ابنيْها غرفة مستقلة أخيرًا، وحين سألنها ضاحكات أين ستنام، أجابت في غرفة الجلوس. لكنهنّ شيئًا فشيئًا شاركنها تخيّلاتها وراحت ميرا تفكّر بتصليحات تجريها. وعندما عجزت عن ايجاد مكان مناسب للغسالة، اقترحت عليها وضعها على الشرفة الضيّقة، وأنه بإمكانها حجب المطر عنها بستارة. كما كانت تخطّط لتجديد الحمام والمجلى في المطبخ. قالت إنّ بإمكانها الحصول على ما يلزم بسعر الكلفة. حتى عندما قالت ساره إنها حاليًا غير قادرة على هكذا تكاليف، اقترحت ليلى عليها أن تحصل على قرض من المصرف الذي تعمل فيه. قالت إنّها ستدعم طلبها. هكذا أُصبن جميعهن بعدوى حماس ساره، كانت المرّة الأولى التي تبتسم فيها منذ زمن. ربّما بدت قادرة على تصوّر حياة جديدة.

كان فرحًا عابرًا تلاشى ما إن جلسن لتناول القهوة في مجمّع السوديكو. مع أنه يوم سبت ولم يكن حولهم رواد. كانت الزينة نفسها التي يرينها سنة بعد سنة. الكراسي ذاتها يجلسن عليها، روائح القهوة والبوشار والسكر والزعتر، الأغاني نفسها وتكتكة آلات الكابوتشينو. صوت الماء يندلق في الحمّامات القريبة، كان كلّ شيء على حاله منذ بتن يجتمعن هنا.

كانت ليلى ساهمة تنظر إلى واجهة محل الثياب قبالتهم، تسأل: «من يدفع هكذا أثمان؟ إلى أين يذهب الناس وهم يرتدونها؟ هل تفرِحهم هذه الأشياء حقًا»؟ ضحكت ميرا وسألتها إن كانت تقصدها؟ سارعت ليلى إلى القول إنها لا تقصد الثياب بل كل ما يستتبع هذا النوع من العيش، وكيف يكون لديهم فراغ بال ليهتمّوا بهكذا أشياء. لم تجِب ميرا، سألتها إن كان راجي قد وجد وظيفة جديدة. احتقن وجه ليلى كأنها تلقّت خبرًا صاعقًا. ردّت بهمس غير مسموع: «لا، لم يجد بعد».

كانت ليلى تضع يديها فوق الطاولة وحين تلحظ طرف كمّيها الحائلَي اللون تخفيهما مجددًا. تتظاهر ندى بعدم الانتباه. خجل ليلى يفطر قلبها، لو لم تكن تعرفها منذ المراهقة لما أحسّت هكذا ربما. ليلى الشجاعة صارت تخاف الآن من الوقت الذي تمضيه بعيدًا عن البيت، من ثمن فنجان قهوة تصرفه على نفسها، من أن تنفذ نظرة إلى قلبها وترى ما فيه. عندما لا تنضمّ إليهم في مشاويريهم، لا تصدّق ندى أعذارها. تقترح عليها أن تصحبها في سيّارتها، أو تقول إنها تدعوها هي إلى المقهى مخترعة أيّ مناسبة.

حين عاد الحديث إلى شقة ساره دبّ الحماس فيهن مجددًا، كانت كل واحدة تتخيّل أنها شقتها فتقترح أن تؤثّثها وأن تصلحها بطرق معينة.

لم تجد أحدًا في البيت عندما وصلت. مؤخّرًا اعتاد عدنان اصطحاب صونيا حين تكون هي مشغولة بشيء ما. كانت صونيا تجلس في غرفة الاستقبال، تنشغل بالتلوين وبالحديث مع دميتيها أو اللعب معهما دور المعلمة الصارمة. كان تأنيبها لهما يصله فيضحكه في قرارته. رغم تنبيهه لها بألّا تقاطع جلساته، كانت تقتحم عيادته وتسأل المرضى أسئلة تضحكهم، كأن تسأل شابًا إن كان لديه أولاد، أو تريهم رسومها ودفاترها. تطلب منهم أن يرسموا شيئًا. كان يُخرجها إلى ان اكتشف أن ثرثرتها كانت تدفع بهم إلى الابتسام والاسترخاء، ينسون فجأة أنهم أمام مستشار نفسي. يحسّون كأنهم في بيت ما وسط عائلة تشبه عائلاتهم. هكذا تحوّل الأمر في الأسابيع الأخيرة إلى طقس تنتظره صونيا بسعادة، وتسأله طوال أيام الأسبوع إن كان سيصحبها. ما كانت ندى تفهم سرّ حبها لذلك

وتعجز عن اغرائها بأي مشوار أو مشروع آخر.

أيام الصحو كانا يمشيان يدًا بيد وحين يتعبها السير كانا يتوقّفان أمام فرن أو دكان ليطعمها

فطورها المفضّل كرواسون بالجبنة. تسأله لماذا لا يأكل معها، لا يقول لها إنه ممنوع عن هذه الأطعمة، يدّعي أنه أكل باكرًا وأنه شبعان. يقول بعدها لندى، إنّ عليه الاستفادة من طفولتها قبل أن تكبر وقبل أن يصبح عجوزًا. حديثه عن العمر والتأمينات زاد منذ أصيب محمد بذبحة صدرية. لكن ندى رفضت حتى أن تناقش موضوع التأمين على الحياة، كأن مجرّد الكلام عن الأمر سيقرّب الموت وسيجعله حاضرًا بينهم.

قالت إنها لا تريد أن تناقش شيئًا بعيدًا. هو بقي ساكتًا ولم يقل جملته المعهودة، بأن الموت حقيقة لا نريدها لكنها تنتظر الجميع. لم يرِد زيادة خوفها، يكفيه أنها تتعامل مع السكري الذي أصابه على أنه طاعون قاتل، لذا أخفى عنها دواء الكوليسترول الذي نصحه الطبيب بتناوله حرصًا على سلامة الشرايين. يخفيه في دُرج يعلم أنها لا تفتحه. كما أخفى عنها وجع البطن والدوّار الذي استمرّ أكثرً من أسبوعين. يزعجه أن يخفي عنها شيئًا تافهًا كهذا، لكنه لا يملك خيارًا آخر. لا يقول لها إنها بذلك تبقيه مريضًا إلى الأبد. إذ لا تترك له فرصة لينسى.

فكّرت أن تتصل بأبيها لتنتهي من الأمر. ردّ من الرنة الأولى. كأنّه كان ينتظر اتصالها. حين أطال السؤال عن صحتها وعملها، علمت أنه يريد شيئًا منها، لكن بم يحتاجها؟ قال إنه حكى معها بموضوع الأرض والشقتَين، ردّت على الفور إنها أخبرته إنها لا تريد شيئًا. بدأ يحكي عن قرب موته وكيف أنه يريد أن يتأكّد من أن أولاده لن يفعلوا كغيرهم ويتنازعوا في المحاكم ويتعاملوا مع بعضهم بكراهية. كررت بصوت غاضب إنها لا تريد أي شيء. وسألته ما المطلوب منها الآن؟ أجاب إنه واثق منها فهي ابنته التي يعلم نبل أخلاقها؟ كانت الدموع تغشى عينيها، غصّت بالكلمات. أضاف إن محاميه أصرّ على أن توقّع بعض الأوراق الرسمية كي لا يدفعها أحد إلى تبديل فكرها، وتطالب لاحقًا بحقوق كانت لا تريدها، ثم أضاف «صحيح؟ لا تريدينها؟ مع انه يسعدني أن

أعطيك سيارة هي الأعز على قلبي من كل ممتلكاتي». رددّت: «سأفعل ما تريد وسأوقّع على كل الأوراق، لا تحمل همًّا. هل هناك شيء آخر، جرس الباب يقرع عليّ أن أفتحه». ثمّ كأنه لم يقل لتوه ما قاله سألها متى ستزورهم فقد اشتاق إليها. هي أيضًا تمالكت نفسها وأجابت إنها سوف ترى متى تكون متفرّغة.

شغلت نفسها بتحضير الطعام، شعرت بحزن كبير يملؤها. يفور كالضباب من أعماقها. عيناها أظلمتا وغارتا في داخلها. تتحرّك يداها تلقائيًا في إعداد طبخة الأرز والدجاج. لكنها نسيت إن كانت أضافت الملح أم لا. بعد اعتراض ابنتيها على مذاق الطعام، عادت لتطبخ بطريقتين، وظلت هي تأكل مثل عدنان كي لا يشعر بالحرمان. الشيء الوحيد الذي لم تمتنع عنه هو بعض المشروب من حين لآخر حين تكون برفقة صديقاتها.

اتصلت ميرا لتسألها المجيء يوم الجمعة القادم برفقة صونيا ولينا. تريد أن تزيّن شجرة الميلاد برفقتهن. فكّرت ندى أن ميرا رغم أسفها على ما وصلت إليه حياة ساره، سعيدة بوجودها معها. بحجة إبهاجها صارت تخطّط دائمًا لأشياء يفعلنها سويًا. هذا ما يفسّر كثرة اتصالاتها. تحبّ ندى رفقة صديقاتها لكنها تشتاق خلالها لعدنان. في البداية كان يرافقها، خاصة عندما كانوا يجتمعون كعائلات، لكن حين صار الرجل الوحيد بينهم أحسّ بحرج. يقول إنهنّ بحضوره يتصرّفن بتحفّظ. رغم قربه منهنّ، أراد لندى فسحة مستقلة عنه. ندى لم تمانع. ترتاح أكثر عندما لا يفعل أشياء فقط بهدف إسعادها.

حتى الآن لا تستطيع أن تطرد من بالها، بأيّ لطف حاول إجراء أحاديث تقرّبه من والدها. كم جرّب على مدار السنين أن يراضيه، وأن يدفعه لرؤية جوهره. لكنّ والدها حصّن نفسه ضدّ محاولاته مرّة بالضحك من آرائه وأخرى بمغالطته في كل شيء. أو يسأله هكذا دون مقدّمات أشياء

يظنّها تحطّ من قدره: «كم قلت لي أجرة المعاينة؟». أو «هل هناك أناس يصدّقون حقًا الخزعبلات النفسانية؟». أسئلة تتبعها ضحكات يرتجّ لها جسمه، كأنّه تفوّه بأشدّ الكلمات طرافة. هذا عدا المرّات التي يعاود فيها سؤاله عن عمل والده أو المدرسة التي تعلّم فيها. أو الحي الذي سكن فيه. كأنه من زيارة إلى أخرى ينسى حقًا أجوبة عدنان السابقة. كانت في البداية تبادر هي إلى الردّ. لكن عدنان زعل وقال إنه لا يحتاج من يتولّى الدفاع عنه، فهو يستطيع أن يتعامل معهم.

أخوها إدوار لم يكن أفضل. كان يردّ على أسئلة عدنان بكلمة أو يتظاهر بعدم سماعه ناظرًا تارة إلى ساعته وأخرى إلى شاشة هاتفه. أو يحكي بتباهٍ عن أعماله وسيارته الجديدة، ولاحقًا صار يحكي عن معارفه من الأثرياء. كانت تنظر إليه متسائلة أهذا الأخ الذي كان ينتظر عودتها من المدرسة مطلقًا صيحاته الطفولية؟ أهذا هو الأخ نفسه الذي كان لا يرضى الإغفاء إلّا بعد أن تتمدّد قربه لتغنّي له أو لتخبره قصة ما. أهو الأخ الذي لجأ إليها بينما يكبر ليشكو تسلّط والده، المتحّكم بصداقاته ولاحقًا في تحديد اختصاصه؟ كم مرّة واجهت والدها لتدافع عنه؟ أسئلته تُبكيها. بدل أن يزيل الوقت هذه الأشياء زادها، وانتقلت عدواها إلى الأقارب وإلى المعارف. كانت ترى حتى الغرباء العابرين يرتاحون في بيت أهلها أكثر ممّا ترتاح هي. والدها على قيد الحياة، وكذلك أمها، لماذا تحسّ إذًا أنها يتيمة الأبوين؟ صحيح أنها ما عادت تحمّل أمّها مسؤولية التخلّي عنها كما فعلت لأربع وعشرين سنة، لكنها تبقى أمرأة مجهولة بالنسبة إليها، تردّ على تحياتها المتباعدة وعلى ايميلات المعايدة، كأنها تؤدّي واجبًا ثقيلًا. عدنان يقول إنها لم تسامحها تمامًا وإنها تستمرّ في لومها. لم يكن مخطئًا. إذ تظلّ تتخيّل أنها لو كانت مكانها لقلبت العالم ولفضّلت أن تموت على أن تترك ابنتها. ماذا سيفعل الأنتربول في بلد تعصف فيه المعارك؟ استبدلتها بطفل من كمبوديا تبنّته ونسيتها. بإمكانها أن تدّعي

أن والدها هرب بها عندما كانت في مهمّة في أفغانستان وأن تقول كيف لها أن تحدس بما يخطّط سرًا؟ تذكر جيدًا أنهما قد تصافيا قبل سفرها وحلّا خلافاتهما المتعلقة بكثرة أسفارها. لكن الحقيقة بالنسبة لندى، أمها تخلّت عنها.

حين عادا استقبلتهما كأنهما عائدان من غيبة طويلة. قال عدنان ممازحًا «إذا كانت رؤية صديقاتك تدفعك إلى الشوق إليّ هكذا فعليك أن تلتقي بهن كل يوم». سألها عن أخبار ساره. أجابت إنها تراها أفضل الآن. لكنها سكتت لا تحبّ أن تحكي بحضور صونيا. خاصة أن عدنان يرفض أن يكذبا عليها. تذكر عندما مات الكنار، وتساءلت عن معنى الموت. حارت ندى كيف تجيبها، تركت عدنان يتولّى إفهامها. بقيت صونيا لوقت طويل تسأل كلما رأت شجرة أو زهرة عما إذا كانت هي كنارها.

بينما يأكلون سألها عدنان عن رأيها في قضاء الأربعاء في الجبل، ردّت على الفور إنها لا تريد أن تطلب من أبيها مفاتيح البيت. فقال: «من ذكر والدك؟ مرّ بي يوسف واقترح إعطائي مفاتيح بيتهم في الجبل. قال إنهم لا يستفيدون منه منذ سنوات. حين يرجعون من دبي في إجازة يقضون وقتهم في بيت أهلها أو أهله. البيت قديم قال لكنه جُدّد بعد وفاة جدته».

– هكذا! عرض عليكَ البيت من دون أن تطلب منه؟ سألت ندى مستغربة.

– بالطبع لا. ساعدته في مسألة تخصّ ابن أخيه، وجدت له مكانًا في مدرسة تعنى بحالته. ربّما كنوع من الشكر. ما أدراني؟ كما إننا صديقان من أيام المرحلة الثانوية.

– لكن لماذا الآن يعرضه عليك؟ أنتما صديقان منذ زمن طويل. قالت ندى.

– أتريدين أكل العنب أم قتل الناطور؟ سألها عدنان ضاحكًا.

قلّدتهما صونيا في ضحكهما دون أن تفهم السبب.

سألت ندى إن كان يمانع دعوة ساره لقضاء اليوم برفقتهم. وأضافت: لو لم يكن مارون يابس الرأس لكان بإمكان ساره اصطحاب وليم وجوزيف. ماذا لو قلت أيضًا لميرا وليلى؟ سألته ندى.

- لا مشكلة، لكن أليس علينا أن نستكشف أولًا حالة البيت؟ ربما وجدناه في وضع بائس. نستكشف حالته أولًا وبعدها نقرّر إن كنا سنأتي ثانية.

عندما سألها إن كانت تريد أن يحكي مع مارون، أجابت إنها تخاف أن يكون جافًا معه، أو يتعامل بوقاحة. ردّ إنه ليس طفلًا، سيجسّ النبض فقط. كما إن علاقته به طيّبة.

لم تدرِ بالحديث الذي دار بينهما. لكن حتى بعد انتهائها من الجلي كان عدنان لا يزال مستغرقًا في كلامه مع مارون وحين سمعته يضحك اطمأنت.

بعد أن أقفل السمّاعة أخبرها إن مارون لا يمانع أن تصطحب ساره وليم، وقد سأل جوزيف أيضًا لكنّه سيشارك في ماراتون ولن يكون متفرّغًا إلّا بحلول الظهر. لم تُرد ندى أن تخبر ساره برسالة، أرادت أن تسمع صوتها وهي تنقل إليها بشرى كهذه. ما إن أعلمتها حتى بدأت ساره تحكي كمن يحلم بصوت عال. حتى خيّل لندى أنها لحظة انتهاء المكالمة ستشتري أكداسًا من الهدايا وستعدّ كل الأطعمة التي يحبّها وليم. كانت سعادتها مؤثّرة جدًا. بدت غير مصدّقة استمرّت تسأل: «هل أنت متأكدة مئة بالمئة أن مارون وافق؟». اغلقت السماعة دون توديع ندى. لم تستدرك إلّا لاحقًا فاتصلت لتعتذر وحكت مع عدنان، الذي كانت تضحكه بمدائحها له، كأن تقول إنه ألطف رجل في العالم.

عندما أمطرت الاثنين خافت ندى أن يستمرّ المطر ويفسد عليهم مشوار الأربعاء. لذا أصرّت أن يذهبن مشيًا إلى المدرسة كأنها تستقوي

على الأمطار وتتحدّاها. كانت السماء قد اغبرّت بغيوم ثقيلة ذهّبتْ أطرافها شمس خجولة. صونيا مختبئة تحت مشمَّعها الأصفر، القبّعة تخفي وجهها. لينا تسير أمامهما وتحكي وهي ماشية مع رفيق لها، ضفيرتها الطويلة تتأرجح فوق حقيبة الظهر. تحمل مظلة شفافة عليها فراشات ملوَّنة. اختلط صوتها الخافت بثرثرة صونيا التي كل فترة تشغلها مسائل جديدة. في الآونة الأخيرة أسئلتها كلّها تتعلّق بالمنافسة. لماذا ليست قوية في الركض كرفاقها ولماذ تحلّ قبل الأخير. ولماذا لا تريدها رفيقتها ربى في فريقها في النطّ على الحبل، ثم تأكيدًا على مهارتها تنطّ عاليًا على الرصيف. ثم ترفع عينيها المخمليتين وتسأل ندى «صرت قوية؟» وندى تقبّل رأسها وتجيب إنها أقوى واحدة. وأحلى واحدة. يشرق وجه صونيا كأنها صارت قادرة حقًا على مغالبة الجميع.

في لحظات كهذه يغمر قلبها دفء وتنسى كل شيء. تستنشق رائحة التراب المبلول، تسير وبفعل سحر خفيّ تنظر إلى البنايات ولا ترى فيها لا طلاءها المقشور ولا إسمنتها القاسي، ترى البرادي يتلاعب بها الريح، الغسيل المنشور يتمايل كأجساد راقصين، وأصص النباتات على الشرفات، ورفوف اليمام فوق أشرطة الكهرباء، وعصافير الدوري عند حواف السطوح والشرفات. تشمّ روائح القهوة وتغيب روائح البنزين والنفايات، ترى السماء وفضة الشمس تشعّ خلف غيوم تركض خفيفة حرة.

يوم الأربعاء، رغم انقطاع المطر كانت السحب الرمادية تفور في السماء. حاولت ندى مجددًا اقناع لينا بمرافقتهم. سألتها لماذا لا تُراجع لامتحانها في الجبل. المكان هادئ هناك ومناسب للدرس. أجابت إنها اتفقت مسبقًا مع صديقتها على قضاء اليوم عندها كما أن المشوار سيؤخّرها ويلهيها.

لم ترِد ساره أن يقوم عدنان بمهاتفة مارون لإعلامه بوصولهم، قالت

ساره إن عليها أن تفعل ذلك بنفسها، عاجلًا أم آجلًا سيضطران إلى تبادل الكلام. لم تسمع ندى ما يقوله مارون لكنها من مراقبة وجه ساره وتلعثمها حزرت جفاء لهجته.

في الطريق، حاولت صونيا أن تحكي مع وليم الجالس قربها على المقعد الخلفي لكن أحاديثه مع أمه شغلتهما وأنستهما ما حولهما.

نظرت ندى إلى الأشجار، إلى نقط الماء تبرق عند أطرافها. إلى وديان تتدرّج فيها جلول من الخس والملفوف، خيَم وعرائش تتراقص أوراقها اليابسة وترفرف كأسراب من العصافير. أشجار بأوراق صفراء أو حمراء أو نحاسية، تدلّ صونيا عليها. صونيا أيضًا تقلّد أمها وتدلّها بدورها على غيمة تشبه حصانًا راكضًا أو بنتًا تطير بثوبها المنتفخ. الغيوم تبدّل ألوانها كلما صعّدت بهم الطريق. تنخفض وتظلّلهم بلونها الرصاصي، الضباب يتراقص كالدخان، يرتفع كثيفًا قبل أن يبعثره الهواء. قالت ندى لعدنان «الجمال يوجع القلب». ردّ عليها مازحًا «أنت حبيبتي كل شيء يوجع قلبك». كانت ندى تنظر في المرآة إلى ساره تحتضن وليم، كان ينتقل من موضوع إلى آخر كأنه كان محبوسًا في سجن. لم يكن هناك رابط بين ما يقوله، يخبرها عن علامة جيدة نالها أو عن شجاره مع جوزيف أو عن العاملة الأثيوبية التي أضاعت له كتبًا وألعابًا لأنها لا تعرف أين تضعها. قال إن والده وجد بعضها في خزانته.

ضيّع عدنان الدرب المفضي إلى البيت. ولم يصلوا إليه إلّا بعد أن استدلّوا عليه من الناس.

كان بيتًا بعيدًا عن البيوت نسبيًا، حوله أشجار تخفيه عن العيون.

ترجّلوا من السيارة بحذر متوجّسين. ربما بسبب الصمت المحيط بهم. الريح كانت مسموعة وهي تمرّ بشجر التين والصنوبر أمام مدخل البيت. التوت البري عربش على واحد من شبابيكه. الأغصان لا تزال محمّلة بتوت يبّسته الشمس. كانت صونيا ووليم أكثرهم تلهّفًا للدخول واكتشاف مكان مجهول.

لم يكن البيت واسعًا، كان مبنيًا بشكل طولي. جزء منه من العقد القديم وجزء آخر إضافي بُني لاحقًا. رائحة عفونة وغبار كثيف، وحين فتحت ندى شباك البهو، التمعت خيوط العناكب فضية في أرجاء المكان. كان فيه برودة وعتمة لم تبدّدها اللمبات المضاءة. كان منظرهم مضحكًا وعدنان يتقدّمهم وهم خلفه. حتى انتبه وسألهم: «ما بكم خائفون؟ ماذا تتوقّعون أن تجدوا فيه؟».

الماء نزل صدئًا من الحنفيات. نظّف عدنان الحمام وانهمكت ندى وساره بتنظيف المجلى والطاولة. أحضروا معهم أطعمة باردة لا تحتاج التسخين إضافة إلى صحون كرتون. أما صونيا ووليم فقد كانا يفتحان الجوارير والخزائن كأنهما في مغارة علي بابا، إلى أن مُنعا. لكن القول لهما إن البيت ليس لهم ليعبثا بأغراضه، لم يقنعهما. أجابت صونيا: «هذا بيتنا. وإلا لماذا يملك البابا مفتاحه؟».

جلسوا خارجًا، على المصطبة الخلفية التي تطلّ على المنحدر. لا بيت على مرمى النظر إلّا تلك الموزعة على التلال. بينما ابتعد وليم ليلعب مع صونيا. كانا يغيبان ثم يعودان مجدّدًا تارة لعرض ما قطفاه من أزهار بريّة ومن خزامى يابسة أو فطر أصفر واسع في أعلاه. أو لتسأل صونيا إن كان صحيحًا ما يخبرها إياه وليم، عن أنه قاد السيارة مرّة وحده أو أنه شاهد أسدًا حقيقيًا. أو أنه قطف مرة فطرًا أحمر كبيرًا.

رائحة إكليل الجبل اختلطت برطوبة إبر الصنوبر، وعفن الأعشاب الذاوية. غربان كانت تدور في دوائر ناعبة بأصوات عالية. كان المنحدر قد غيّبه الضباب الكثيف وحين انجلى، ظهرت الجلول جزئيًا وبان فيها عمال منحنون،بأرديتهم الملونة، كان غناء أحدهم عذبًا شجيًا.

رغم البرد تناولوا طعامهم خارجًا، تأمّلوا الجبال. لم يغطِ الثلج إلّا أعلاها. كان ما حولهم قد أغرقهم في الصمت كأن للمكان هيبة المعابد. خلف التلال تدرّجات من الأزرق والأبيض والرمادي.

في لحظات اكفهرت الغيوم وأعتم الجوّ ونزل المطر في زخّة بلّلتهم، تراكضوا إلى الداخل تاركين الكراسي والطعام وكل شيء خارجًا. أزاحوا الأغطية المغبرة عن الكنبات. نوبة من السعال والعطس أمسكت بندى، أحاطها عدنان بذراعيه، وأبعدها جهة الشباك المفتوح، بحث في حقيبتها عن المنشاق. بدا متكدّرًا كأنّه ارتكب خطأ لا يغتفر. كيف لم ينتبه للأمر. وكيف تركها تنفض الأغطية. كانت ساره تنظر إليهما وتفكّر أن أحدًا لم يحبّها هكذا أبدًا.

قالت ساره إنّ المكان خيالي، يشبه الأماكن التي لا تجدها إلّا في الروايات. تتمنّى لو تملك بيتًا صغيرًا كهذا في مكان ناء.

قال عدنان: «ليس هناك أماكن نائية هكذا. ربّما في الحلم. إنه بحث دائم. نبقى ذاك الطفل الذي يريد لنفسه عالمًا يملكه وحده لا يهمّ أن يكون تحت طاولة ما أو تحت غطاء».

قالت ندى وهي تضحك: «هل تذكر كيف كنا نضيّع لينا؟ مرة اختبأت في الغسالة وأخرى في الفرن. وفي المرتين علقت وبدأت تبكي حتى أخرجناها لكن ذلك لم يردعها، اختبأت في الخزائن تحت الأسرّة في أماكن لا تخطر بالبال كالخزانة القديمة التي كنا نضع التلفزيون عليها. يومها أوقعت التلفزيون، ولا أدري كيف لم ينكسر».

قالت ساره إنها تشتاق لجوزيف وتخشى أن يبقى على عدائه لها. وسألت عدنان: ماذا أفعل؟ كيف أتصرّف معه، هل تكلّمه؟ هل سيبقى على كرهه لي؟

«ليس جيدًا أن أكون أنا. لكن لديّ زميلة قد تفعل ذلك. خبرتها طويلة، وصبورة مع الأولاد. لكنه قد لا يرضى بمكالمتها، ربما مارون قادر على إقناعه». قال عدنان.

خفضت ساره صوتها خشية أن يسمع وليم وقالت إنها تشكّ أن يفعل مارون شيئًا من أجلها.

«لا يفعل من أجلك بل من أجل ابنه». قال عدنان.

شعّت الشمس وملأت المكان بنور أصفر، فخرجوا إلى المصطبة ثانية. مع اقتراب المغيب، شيء من الحزن استقرّ في قلوبهم. انتهى اليوم بسرعة قالت ندى، فيما تتأمّل الشمس وقد بدت معلّقة فوق التلة العالية قبالتهم غامرة بألوانها الصفراء والحمراء والبرتقالية بيوتًا وأحراشًا. كانت كرتها النارية تصغر شيئًا فشيئًا حتى اختفت ولم يبق منها إلّا أنوار بدأت تخبو تدريجيًا.

في طريق العودة، استطالت قامات الأرزات وأشجار الشربين وبدت عملاقة في العتمة. ومضت الأنوار داخل البيوت. غفا وليم ملتصقًا بأمه. كانت ساره تنحني لتقبّل رأسه. أو لتهمس له شيئًا. أما صونيا فكانت في عزّ نشاطها، تسأل عند كل منعطف متى سيصلون إلى البيت. تحزر ندى خوفها من العتمة الدامسة، مصابيح البلدية كانت مطفأة على طول الطريق الجبلي. لذا كانت تحدّق بالطريق كأنّها تشارك عدنان القيادة، رغم حذره كانت متحفّزة تراقب السيارات التي تعميهم بمصابيحها القوية، أو تلك التي تسابقهم لتجاوزهم. هذا الحذر بات طبيعة ثانية منذ تعرّض عدنان لحادث عند تقاطع بشاره الخوري حين اصطدمت به سيارة لم تتوقّف عند الاشارة الحمراء. أن ينكسر أحد أضلاعه ليس هو ما أفزعها، لكن قول الطبيب عن نجاته بفارق شعرة من أن تُثقَبَ رئته، ومن نزيف داخلي نظرًا لقوة الاصطدام.

هو يتحمّل أن تُجفله بينما يقود، كأن تصرخ به أن ينتبه لشاحنة أو لسيارة مسرعة أو لدرّاجة آتية بعكس السير. لا يقول لها شيئًا.

عندما توقّفوا لينزل وليم، أفاق من إغفاءته وتعلّق بأمه وراح يسألها لماذا لا تأتي معه، وعندما سألته ألا تذكر ما تحدّثنا عنه؟ اجاب إنه يريد أن ينام عندها، لماذا لا تريده؟ لماذا لا تريد أن تكون أمه من جديد، كانت ندى تشاهد ساره التي تجاهد كي لا تبكي بدورها وتزيد الوضع بؤسًا.

صونيا استمرّت تسأل مرارًا وتكرارًا دون أن يجيبها أي منهم: لماذا يبكي وليم؟

كانت ندى تتساءل في سرّها ماذا يحصل لها لو كانت في وضع ساره. لا تحسّ أنها قوية لتتحمّل هكذا تجربة. عدنان غيّر حياتها. أحبّت قبله، لكنه كان من طينة أخرى، مختلفًا عن كل الذين عرفتهم. لا تزال حتى الآن كلما مرّت صدفة قرب مكتبه القديم، تستعيد ذكريات يرتجف لها كيانها. تتذكّر البناية القديمة وطوابقها الأربعة والياسمينة في الطابق الأرضي، والبرداية البرتقالية التي تحجب شرفة مكتبه. تتذكّر كنبة الجلد السوداء، والبراد الصغير. والحمام الذي يصعب دخوله إلّا موربة. والبلاط الأصفر المشقق. والنافذة التي كانت تطلّ على بناية لم يبق منها إلّا بضعة جدران، تتجمّع في باحتها دواليب وأثاث وأباجورات مشلّعة. تذكر مشقّة أن تعود إلى أهلها كل مساء. مشقّة أن يفصل ليل وصباح بينهما. حتى صفوفها أهملتها، ما عادت تريد أن تتقدّم لامتحان الطب. شهادة في العلوم تكفي. قالت لوالدها. تركته يحتَدّ ويتّهمها بإضاعة شطارتها وتفوّقها سدى. كانت تردّ عليه كلما فوجئ بعلامات نهاية الفصل، إن الطب هو حلمه ربما. أما هي فلا تعرف كيف تورّطت بدراسة لا تطيقها.

أحبّت كل ما له علاقة بعالم عدنان، عائلته، رفاقه، عمله، بساطة عيشهم. كتبه التي يقرأها، عقدة حاجبيه حين يخفي شيئًا عنها، عينيه المتعبتين خلف نظاراته المعدنية. أنامله الدقيقة التي يمرّرها فوق جبهتها حين تكون حزينة. كانت العودة إلى بيت أهلها عذابًا دائمًا. لم تكن تتابع الدروس إلّا تنفيذًا لنصيحة عدنان. حتى الآن لا تدري كيف تمكّنت من النجاح.

السنتان اللتان قضتهما في التعليم مرّتا عليها ثقيلتين. نجت صدفة. ولم تعلق ككثيرين في مهنة لا تريدها. حين عادت من إجازة الولادة أوكلت بمساعدة أمينة المكتبة. إذ سبق وتعاقدوا مع من ينوب عنها. وفي

آخر السنة عندما تقاعدت مسؤولة المكتبة قُبل طلب ندى في الحلول مكانها.

لم تعرّف عدنان على أي من رفيقاتها إلّا بعد انقضاء أكثر من سنة. في الأصل عندما تسجّلت ميرا في جامعة غير جامعتها ما عادتا تلتقيان إلّا نادرًا جدًا، أما ليلى فما كان لها علاقة مستقلة بها. تراها حين تكون برفقة ميرا. الآن لا تذكر متى وكيف صار لها علاقة بليلى تلتقي بها وحدها أو برفقة نادر.

كان عدنان من أصرّ على أن يعرف عالمها، لا تدري لماذا كانت تخشى من أن يحكم عليها إذا التقاهن. لكنها فوجئت بالسهولة التي دار بها الحديث مع ميرا. لم تكن حينها تعرف ساره. أما راغدة فكانت الوحيدة بين أنسبائها من تقرّب من عدنان، وكانت أسئلتها له تضحكهما. حوّلته إلى كاتم أسرارها. تخبره كلّما تعرّفت على أحد وتطلب رأيه بشخصيته وأن يجيبها إن كان لعلاقتها به أي مستقبل. وحين يحتجّ على الحكم على شخص لا يعرفه، كانت تقول إنها أخبرته كل شيء عنه. يجيبها: «أخبرتني كيف ترينه أنت لا كما هو بالفعل». بعد زواج ندى استمرّت راغده في استشارتها لعدنان كلما جدّ حب في حياتها. تنام عندهم من حين لآخر، خاصة إن عاشت انفصالًا. مؤخّرًا لم يكن الحبّ سبب تغيّرها. هجرت عادات التأنّق والتبرّج والسفرات. صار عملها المكان الوحيد الذي تخرج إليه، وحين دلّها عدنان على طبيب، ادّعت إنها ستأخذ موعدًا منه. تعلم ندى أنها لم تفعل. حين تأتي لزيارتها، يكون كلامها عن العمر والحياة التافهة التي عاشتها دون أن تعي. عندما تسألها ندى «ألست مرتاحة في عملك؟» تجيب إنه مجرّد عمل تقوم به بلا أي حماس. تكرّر على مدار النهار الأشياء السخيفة نفسها. لم يعد في قاموسها إلّا كلمات من نوع الوزن والكتلة الدهنية والوحدات الحرارية، برنامج الحمية. ثم تسألها: أهذه حياة؟ قولي بجدّ. تذكّرها راغده بأحاديث طفولتهما بحلمهما أن

تكبرا، ثم تسأل: «كبرنا لكننا لم نفعل سوى التشبّه بأهلنا وبمن سبقونا». كان الحديث يحزِن ندى. كانت راغده بمثابة أخت لها، أخت مختلفة عنها صحيح، لكنّ عمرًا يجمعهما. الحديث يُرجِع إليها ماضيًا لا تريده.

قبل يوم الجمعة. اتصلت ساره بها وهي في طريق عودتها من العمل. أخبرتها إنها حكت مع مارون، وحين سألته عن إمكانية أن تصحب ابنيها في سهرة الجمعة، ردّ بجفاء إن لديهم مشاريع أهمّ وأغلق السماعة. لكنه في اليوم التالي، فاجأها باتصال مبكر قبل السابعة يقول إن وليم سيكون بانتظارها إن أرادت اصطحابه. سألتها ندى إن كانت تودّ أن يكلّمه عدنان، لكنها بقيت على رأيها السابق. عليها أن تفعل ذلك بنفسها. هكذا تدعه ينتقم منها ويجافيها كما يريد، ويتهكّم، لكنه في الأخير سيتعب. العاملة ستنظّف البيت لكنها لن تدرّس وليم. وجوزيف صحيح أنه كبر لكن محال أن يُترك في البيت وحده. ما يعني أن مارون سيُسجن برفقتهما، وهو شيء لم يعتده. مع من يتركهما تساءلت؟ هو يحتاجها لكنه الآن مجروح في كبريائه لا أكثر.

يوم الجمعة سمعت الموسيقى وهي داخل المصعد، لم تنتبه إلى أنها منبعثة من بيت ميرا. كان الباب مزيّنًا بشريط ذهبي وفي أعلاه نجمة حمراء لامعة، ولما دخلت مع صونيا ولينا فوجئت بأن الجميع هناك. اشترت ميرا شجرة شربين لا يتجاوز ارتفاعها المتر، وتركت للأولاد أن يزيّنوها. نظرت ندى إلى أكياس الزينة الموزعة على السجادة وقالت إن لديها زينة تكفي مدينة، لماذا لا تتبرّع ببعضها، هناك عائلات كثيرة محرومة من مظاهر العيد؟ ردّت ليلى «ها قد بدأت. لو كنا ننفع لشيء لكانت تبرّعت بنا». ضحك الجميع بما في ذلك صونيا التي لم تفهم الدعابة. نظرت ندى إلى راغده المتربعة فوق الكنبة، في يدها كأس من النبيذ تشرب منه شاردة الذهن. جلست قربها، قالت إنها لم تعرف بقدومها. ردّت راغده» وأنا أيضًا لم أعلم بقدومي ».

كان الأولاد يرفعون الصوت ويغنّون أناشيد ميلادية حفظوها قبل تعلّمهم الكلام ربما.

انشغلت ميرا بتعليم نادر على استخدام كاميرتها القديمة، أوصته أن ينتبه لها لأنها عزيزة

على قلبها. كان يقلّدها في تأنّيها. يلزمه وقت طويل حتى يلتقط صورة. يحتجّون لأنه يبقيهم مسمّرين وقتًا قبل كبس الزر. كان وليم لا يثبت في جلوسه مع الأولاد، يظلّ يتفقّد أمه أو يجلس قربها واضعًا رأسه على كتفها. حين غفا وأرادت أن ترافقه لينام على السرير، فتح عينيه وتشبّث بها كأنها ستتبخّر خلال نومه. لينا كانت منهمكة في اختيار الطابات من ألوان ثلاثة الأحمر والفضي والذهبي، لكن صونيا أفسدت خطتها، وراحت تعلّق كل الزينة على الشجرة الصغيرة، حتى انحنت أغصانها تحت ثقل ما حُمّلت به. لم يعد يبين شيء من لونها الأخضر.

عندما جاءتهم ميرا بأكواب من الشوكولا الساخنة وبقطع من الكاتو، تركوا كل شيء في فوضاه، شغّلوا التلفزيون وقلّبوا المحطات حتى استقرّ رأيهم على شيء يشاهدونه معًا.

ساره التي يدفعها التوتر إلى الإكثار من الكلام، كانت تنتقل من قصة إلى أخرى دون رابط بينها. من قصص التلاميذ، إلى الشقة التي تتخيّل أنهن سيسهرن فيها، إلى غرفة جوزيف التي ستؤثثها له، السرير الذي يتحوّل إلى كنبة تقول هكذا يكون متسع له ليستقبل رفاقه.

عادت ميرا من غرفتها حاملة صورًا وبطاقات معايدة قديمة. كانت سعيدة بها حتى إنها نادت الأولاد كي تريهم كيف كنّ وهنّ في أعمارهم.

كانت ليلى تقرأ واحدة من البطاقات التي كتبتها إلى ميرا حين كانت في فرنسا، لا تذكر حتى أنها أرسلتها. تذكر بعض الإيميلات القليلة لا أكثر. لم تتعرّف لا على الكلمات ولا على الخط.

تحلّقوا يتفرّجون على صورة لميرا وندى وليلى يقفن متجاورات

تحت شجرة كرز مزهرة. كنّ في السادسة عشرة. وحدها ندى لا تنظر مباشرة إلى المصوّر. بدت أزهار الكرز تاجًا يكلّل قامتها العالية.

أمسك نادر بصورة من زواج والديه. قرب أمه تقف ميرا في ثوب مكشوف الظهر، وعلى رأسها قبّعة سوداء لها غطاء شبك، كأنها في فيلم قديم من الخمسينات. قالت ميرا «أتعلمون أن هذا الفستان لا يزال عندي في الخزانة، لم ترضَ ماما أن أتخلّص منه». تحمسّت لينا لتجريبه. لم تنظر ليلى إلى الصورة، تتجنّب عادة النظر في الألبومات القديمة تخاف منها ومن الحزن الذي تثيره في نفسها.

نظرت ندى إلى ابنتها تتبختر بالثوب، وقد أحاطت كتفيها بشال حرير من لون الفستان، أطرافه مطرَّزة بورود من اللون نفسه. قالت ميرا «جميل عليك بإمكانك أخذه عادت موضته لتصير رائجة». احتجّت ندى كأن الثوب عصا سحرية ستحوّل لينا إلى شابة. شابة ستسارع إلى نبذهم. ثبّت نادر الكاميرا نحو لينا ناداها لتقف بمواجهته، قالت ميرا إن الصور كان يمكن أن تكون رائعة لو أنها وجدت العدسة التي تبحث عنها. أجابت ندى دون انتباه. «سأسأل أمي عنها، تعلم كثيرًا عن هذه الأشياء، أكيد أنها استخدمت طويلًا هذا النوع من الكاميرات». أعقب كلامها صمت غريب. انتبهت إلى أنّها المرة الأولى التي تقول فيها شيئًا عن أمّها. وأنهم جميعًا يجهلون أنها التقتها وتعرفها. لا تعلم كيف خرجت منها هذه الكلمات، لكنها لسبب تجهله، أحسّت للمرّة الأولى بأنّ لها أمًا.

قطعت راغده الصمت لتسأل ميرا «ألم يعد هناك نبيذ». سارعت ميرا لفتح قنينة أخرى. وقف نادر خلف أمه ووضع يديه فوق كتفيها، قال: «أتعلمون أن الماما تسجّلت في الجامعة؟» شربن نخب ليلى التي غشيت الدموع عينيها، لا لاحتفالهن بها بل للنبرة السعيدة في صوت نادر. شعرت أنها ما عادت تُخجله. تخيّلت راجي في بيجامته التي لم يخلعها منذ أيام. قربه قنينة شبه فارغة. ينعس فيغفو على الكنبة دون غطاء. سألت نفسها من سيغطّيه في غيابها؟

وضعت ميرا شريطًا من الأغاني. نهض الأولاد ورقصوا. كانوا يشدونهن واحدة تلو الأخرى للرقص. تحلقوا في دائرة، أمسكوا أيدي بعضهم وكان على واحد منهم أن يرقص وسطها، وعندما يتوقّفون عن الدوران حول الراقص يحلّ آخر مكانه. لا يعرفون من أين أتت تلك الحماسة. ضحكوا والأمطار في الخارج تقوى وتطرطق الشبابيك.

كان الليل يتقدّم، وهم يرقصون بأجساد خفيفة ترتفع أعلى ثم أعلى.

صورهم الفوتوغرافية القديمة مبعثرة على الكنبات، فيها وجوههم تبتسم إلى الأبد.

بيروت 8 كانون الأوّل 2018

صدر للمؤلّفة

1 – بورتريه للنسيان، المركز الثقافي العربي، 1994.
2 – شتاء مهجور، المركز الثقافي العربي، 1996.
3 – بيوت المساء، دار الجمل، 1997.
4 – البئر والسماء، المركز الثقافي العربي، 1997.
5 – العابر، المركز الثقافي العربي، 1999.
6 – بلاد الثلوج، المركز الثقافي العربي، 2001.
7 – بيروت 2002، المركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2007.
8 – أيام باريس، المركز الثقافي العربي، 2005.
9 – صلاة من أجل العائلة، المركز الثقافي العربي،2007، طبعة ثانية 2009.
10 – حياة قصيرة، المركز الثقافي العربي،2010.
11 – رسالة من كندا، دار التنوير، 2012.
12 – سنة الراديو، دار التنوير، 2015.